عمر فضل اللّه

أطياف الكون الآخر

رواية

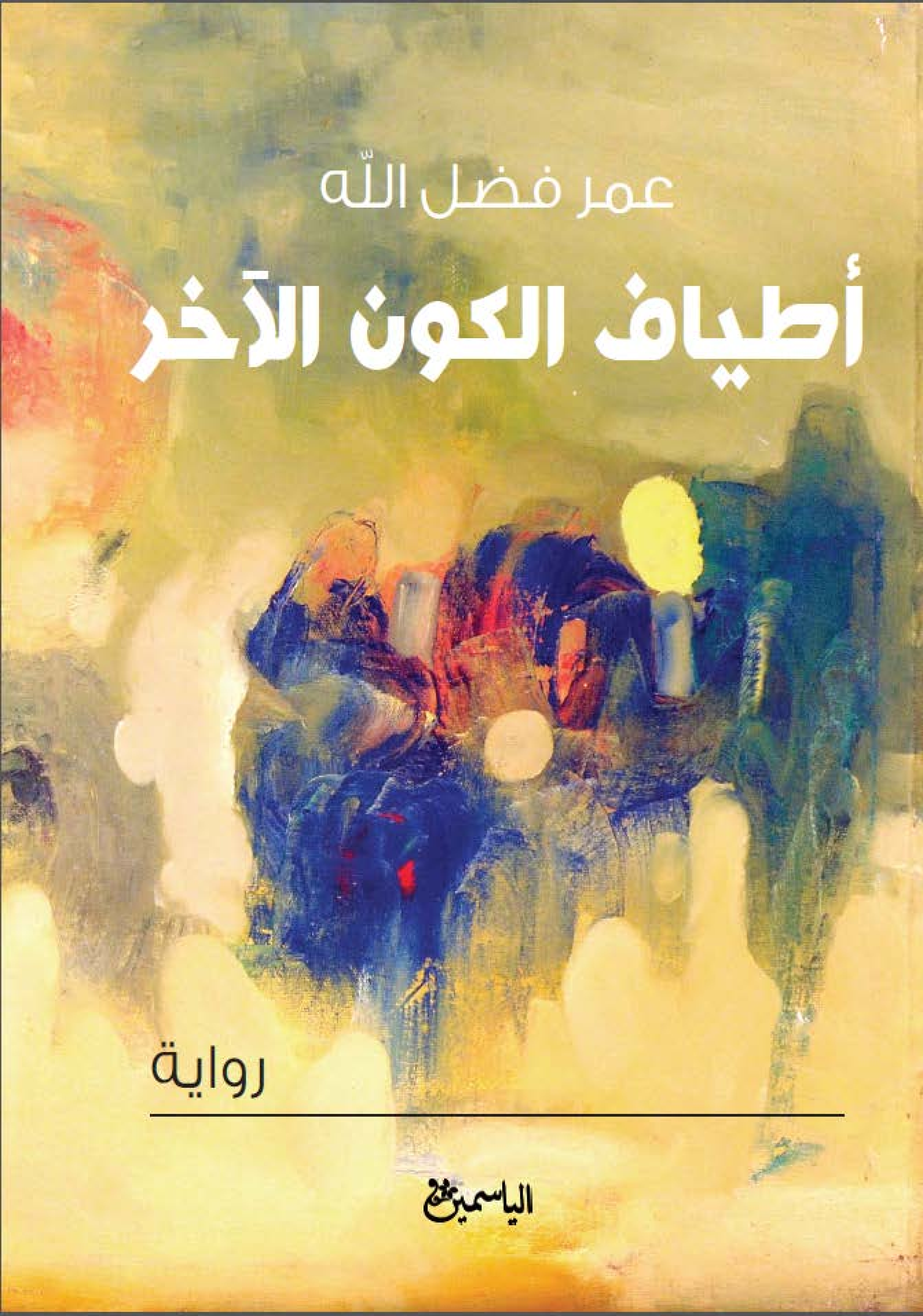

الياسمين

عمر فضل اللّه

أطياف الكون الآخر

رواية

الياسمين

عمر فضل اللّه

أطياف الكون الآخر

رواية

أطياف الكون الآخر

تأليف: عمر فضل الله

طُبع في دولة الإمارات العربية المتحدة

لوحة الغلاف:
ياسر عبدالهادي

الطبعة الأولى: 2014م

دار الياسمين للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

يمنع نشر أو نقل هذا الكتاب أو أي

جزء منه بأي وسيلة من الوسائل الورقية

أو الإلكترونية إلا بإذن خطي من الناشر أو المؤلف

ردمك ISBN978-9948-22-259-0

تمت الموافقة على الطباعة من المجلس الوطني للإعلام

بالرقم 11496 بتاريخ 15/06/2014

الأفكار والآراء المنشورة في هذا الكتاب تعبر عن آراء

الكاتب ولا تعبر عن رأي دار الياسمين للنشر والتوزيع

لشراء كتابك المفضل يمكنك زيارة موقعنا

www.daralyasmeen.com

إهْدَاء

إلى طفولتي الجميلة

أهدي أحلامي.

هذه الرواية أملاها طيف زارني ذات ليلة!

المؤلف

(1)
تجلي الطيف

رنَّةُ صوتٍ صَعَقَتْ مسمعي، فطارت شقَّة مني في السماء، وهبطت أخرى إلى أقصى الأرض السُّفلَى، وبقيتْ روحي معلقة بينهما في الهواء تنظر من كلا الشقتين. هل آن أواني وانقضت أيامي بهذه السرعة، مثل طرفة عين، أم ياترى لا تزال في العمر بقية؟ دسست ذيلي بين رجليَّ في حياء حقيقي لا يخفى على أحد، وتورد خدَّاي باللون الأسود، حين علمت أن هذا الصوت لم يكن إلا صوت بوق نفخه طفل شقي قريباً من أذني، وهو يلعب في البيت الذي أويت إليه آخر عمري، لأموت على سرير أحدهم كما يموت بنو الصلصال. العجيب أنني لم أر الطفل مع أنه كان بالقرب مني. لا أخفي عليكم أن نظري قد ضعف جداً فلم ألحظ هذا الطفل. ولكن ليس هذا هو المهم، فما زلت أعجب كيف تمكنت فجأة من الطيران بهذه السرعة، والتحليق في أقطار المجهول، والغوص أسفل سافلين، خلال ثوان معدودات، وأنا بقايا هيكل لمخلوق هرم! الخوف من الموت يفعل بنا الأفاعيل. كلما تذكرت الموت والهلاك اقشعر بدني، واهتز جسمي، وغاصت روحي إلى أعماق فؤادي، فالفرار لن ينجيني من الموت، وكأن جميع ما عشته من السنين لا يتجاوز في نظري الأيام المعدودة، فلم أر في الحياة شيئاً كثيراً بعد. ارتعاشة الروح وهي تتشبث بحنايا المفاصل داخل خلايا الطيف لتقاوم الفناء وتأبى أن تنسل خارجة من أعماق مستقرها، شعور لا يمكن وصفه

بالكلمات. الأطياف تعلم أين يكون مستقرها حين تنتقل من لحظة الوجود إلى عالم الخلود. رأيت كثيرين يموتون. كانوا قبل ذلك أقوياء جداً، ولكنهم أصبحوا يعلمون وهم في تلك السكرات أنه لا يمكنهم المقاومة طويلاً. كانت نظراتهم تخبرني، في صمت يضج بالكلام، أنهم لو أستطاعوا أن يهربوا من تلك اللحظة خارج دائرة الأكوان إلى حيث العدم المنسي، لما ترددوا لحظة واحدة. ارتكاسة اليأس عند الطيف وهو يقاتل ليطيل أنفاسه وزفراته، تجعل روحي تتبخر لوعة في فضاءات التيه ثم لا تستقر ولا تهدأ.

حين خمدت كوابيس لحظة الفناء في نفسي المتأرجحة، وعدت إلى واقعي المتداعي نحو الهلاك، سرعان ما تذكرت أبيات العقاد التي تصف نسراً هرماً يهم بالطيران فلا يقدر لأنه قد كبر، فضحكت على نفسي، حتى أحسست بأجزاء فكي المخلخلة يصك بعضها بعضاً، وخفت أن تنخلع. كأن العقاد يعنيني بتلك الأبيات ويرثيني وأنا بعد على قيد الحياة:

يَهِمُّ ويُعْيِيهِ النهـــوضُ فَيَجْثِمُ ويعزِمُ إلا ريشُهُ ليس يَعْزِمُ
ويُثْقِلُهُ حَمْلُ الجَناحينِ بَعْدَمَا أَقَلاهُ وَهْوَ الكاسِرُ المُتَقَحِّمُ

ثم يصفُني وأنا أُدير البصر فيما حولي فيقول:
وَيَلْحَظُ أَقْطَارَ السَّمَـــــاءِ كَأَنَّهُ رَجِيمٌ عَلَى عَهْدِ السَّمَواتِ يَنْدَمُ

ضحكت حتى وقعت على قفاي، وآلمني ما تحت ذيلي، حين سمعت ذلك البيت، وربما بالغت في الضحك قليلاً حتى أهزم بقايا الخوف الذي ما زال يرن في جوفي. وأفقت من لوثة الضحك المفتعل إلى واقع الأدب الحزين، حين رددت أبياته وهو يصفني وأنا أغمض عيني وأفكر في نفسي:

وَيُغْمِضُ أَحْيَانَاً فَهَلْ أَبْصَرَ الرَّدَى مُقِضَّاً عَلَيْهِ أَمْ بِمَاضِيهِ يَحْلُمُ
إِذَا أَدْفَأَتْهُ الشَّمْسُ أَغْفَى وَرُبَّمَا تَوَهَّمَهَا صَيْدَاً لَهُ وَهْوَ هَيْثَمُ

الكلام عن الردى نبش الخوف الدفين في أعماقي فهربت منه هذه المرة إلى الكبرياء والهيبة في أبيات العقاد:

لِعَيْنَيْكَ يَا شَيْخَ الطُّيُورِ مَهَابَةٌ يَفِرُّ بُغَاثُ الطَّيْرِ عَنْهَا وَيُهْزَمُ
وَمَا عَجِزَتْ عَنْكَ الغَدَاةُ وَإِنَّمَا لِكُلِّ شَبَابٍ هَيْبَةٌ حِينَ يَهْرَمُ

أبيات العقاد تجعلك تبكي إن تخيلت أنه يحكي عنك، وأما أنا فقد أدخلتني في دوامة الحزن حين أدركت منها أنني كبرت في السن جداً، فقد ظلت الأطياف تفر مني وتخشاني في شبابي. ظللت فترة وأنا أسترجع صدى صوته الأجش المهيب، وهو يقرأها على أقرانه في مجلسه العامر بالأصحاب دوماً. كان العقاد بشراً، ولكنه كان عملاقاً في كل شيء. لو قدر لي أن أكون بشراً لتمنيت أن أكون العقاد.

عفواً فقد نسيت أن أقدم نفسي مع أنه أمر صعب جداً، فقد تغيرت أسمائي كثيراً حتى أنني ما عدت أذكر منها إلا القليل. فقد اتخذت اسماً في كل دورة من دورات الزمان، وجسماً فيما لا أستطيع أن أعده من الأماكن والأحوال. أستطيع أن أصير كبيراً في الحجم مثل الجبل أحياناً، أو أتضاءل فأصير مثل نملة صغيرة. وعندي قدرة عظيمة على الطيران، فأنا أسرع طيار في العوالم السبع وأستطيع الانتقال من أي مكان إلى آخر، مهما كان بعيداً وذلك بمجرد النظر ناحيته. ولكنني الآن ما عدت أقدر على تلك الحركة وذلك الطيران، فقد فعلت الليالي والأيام بي فعلها، وأحس أنني أعيش آخر أيامي، رغم أنني أحمل في عقلي وذاكرتي كماً هائلاً من المعارف والخبرات، فأحببت أن يبقى من بعدي، وأن أخصكم به حتى لا يفنى معي ويذهب بموتي. بنو قومي لا يحبون التواصل معكم إلا إن كان هذا التواصل يحقق مآربهم ويشفي أحقادهم، أو أنهم يفعلونه تلبية لأوامر أبي «عزازيل » أو جنوداً يستجيبون لهواتف ساحر خبيث، يستحضرهم بأسرار طلاسمه ويستخدمهم لقضاء حاجاته ومآربه.

●●●●

ما هو اسمي الآن؟ سمني ما شئت فلا فرق عندي. فما عادت الأسماء شيئاً ذا بال، ولا أصبحت تدل على شخصيات أصحابها. فما هي إلا مجرد أسماء. أنت لا تختار الاسم الذي ترغبه أو تحبه، وإنما يختارونه لك، ويظل

يرافقك مدى الحياة. أين أنا الآن؟ معك بالطبع!! لا تصدقني؟ أنظر إلى الأعلى فوقك تماماً... لماذا لم تنظر؟ أراك متردداً أو خائفاً. ما الذي سيحدث لو نظرت؟ لن تراني بالطبع فقد كنت معك طول عمرك وأنت لم ترني، ولم تكُ خائفاً مني فلماذا خفت الآن؟ وبالمناسبة فإن مسألة الرؤية وعدمها متعلقة بك أنت وحدك، فأنت تستطيع رؤيتي لو أردت في أي وقت. والأمر كله في عقلك ومتعلق بك وبإرادتك. نحن – أعني أنا وأنت – نصنع عوالمنا في عقولنا. ولكل إنسان عالمه الخاص. وكل واحد منها يختلف عن الآخر. وجميعها عوالم حقيقية، لأننا نعيشها بعقولنا ونتخيلها. وربما يكون الخيال عالماً آخر موازياً لعالم الحقيقة لدينا، يقترب من واقعنا أو يبتعد حسبما نرغب. تخيل معي وجود ملايين العوالم والأكوان الحقيقية والخيالية الموازية والمتداخلة في الوقت نفسه، وبمجرد تخيلها في ذهنك تصبح عالماً آخر حقيقياً موازياً لعالمك الواقعي، وتستطيع أن تعيش فيها قدر ما تشاء. العالم الواقعي ليس واحداً، بل هو عوالم كثيرة تفوق قدرتنا على العد والإحصاء. ونحن نخجل أن نحكي للناس عنها ربما لأنها تدل على طفولتنا أكثر مما تدل على نضجنا، أو لأن الناس لا يحترمون من يجنح للخيال كثيراً، أو فقط لأن الآخرين لا يرونها ولكننا نراها بعقولنا، ونتمنى أن نبقى فيها أطول وقت ممكن، وفي الواقع هي أكثر اللحظات إمتاعاً في حياتنا، نهرب إليها من واقعنا المؤلم الذي صنعناه بأنفسنا.

مازلت تحس أنك خائف مني؟ هل مجرد ذكري مخيف لهذه الدرجة؟ وهل تصدق أنني أخاف منك أكثر مما تخاف أنت مني وتخشاني؟ أنت في نعمة كبيرة فأنا خفي بالنسبة لك ولا أظهر لك ولا تراني إلا نادراً، ولكن أنت بالنسبة لي نقمة وعذاب، فأنت تظهر لي في جميع الأحوال وأراك في كل مكان، حتى لو حاولت أن أغمض عيني. تخيل هذا الرعب المستمر. أنت تخشى الأماكن المظلمة لأنك تظن أنني أسكنها وأنني سوف أظهر لك منها فجأة، بينما تجدني أموت رعباً من الأماكن المضيئة، فقد أرغمت على البقاء في الظلام أعواماً طويلة من عمري محبوساً، ومع الأيام أصبح الظلام هو عالمي، ولذا فأنا أخاف من النور مثلما تخاف أنت من الظلام. ولكنك نسيت أن دنياك معظمها ظلمة، فأنت تغمض عينيك الساعات الطوال كل يوم حين تنام، فالظلام رحمة أنت لا تدرك قيمتها ومعناها. وعالمك مثل عالمنا، كله مظلم إلا من بصيص أضواء تنبعث حين تلجأ إلى الحقيقة السافرة، فتضيء جوانحك، وتنير روحك وعقلك، وتحرره من قيوده وأثقاله.

والآن هل تريد أن تراني أم ما زلت متردداً؟ انظر إلى الأعلى وأنا سأتجسم لك لتراني على حقيقتي. هذه فرصة لن تتكرر فلا تضيعها. ما زلت لا تريد أن تنظر؟ لن ألح عليك ولكن تأكد أنك حين ترغب في رؤيتي «حقاً» فسوف تراني. الأمر كله متعلق بإرادتك. قد أتحول أحياناً فأصير على قفاك وخلف ظهرك، ولكنني في معظم الأحيان أبقى فوق رأسك من الخلف وأنت لا تقدر أن ترى هامتك إلا إن نظرت في أكثر من مرآة. ولذا فأنا أحب هذا المكان، هامتك طبعاً. هل تعتقد أنني مشاكس؟ لم أعد كذلك فأنا في

آخر عمري، وما عادت المشاكسة تمتعني، بعد أن كنت أقضي أجمل أوقاتي مشاكساً. أنا الآن أحب أن أتقرب منك حتى تقبل أن أحكي لك قصة حياتي، ففي ذلك سلوى لنفسي بكل تأكيد وفائدة لك لأنك سوف تكتشف عالماً بقي غامضاً في عقلك وكيانك منذ الصغر، وهو عالم مخيف لبني جنسكم، ولكنه لن يعود كذلك حين تعتاد عليه وتستكشف جوانبه وتعرف أسراره، فهو عالم مليء بالقصص والمغامرات الجميلة، يطلق العنان لخيالك فيحلق فيه حيث يشاء ويخرجه عن المعتاد المألوف، ويعيد بعث الحيوية في روحك، ويطرد السآمة والرتابة من حياتك للأبد. وسوف تعود منه لتحكي القصص والنوادر لكل من حولك مثلما أفعل أنا الآن معك.

الواحد منا - أو منكم - حين يكبر، يحب أن يحكي القصص والروايات لأبنائه وأحفاده، فهو يستمتع بهذا، وأنا لا أبناء لي ولا أحفاد، فقد عشت منفرداً وحيداً وغريباً. طاردتني جنود أبي «عزازيل» معظم أيام حياتي، وقضيت جزءاً كبيراً منها لاجئاً في كوكب غريب موحش. وحين عدت إلى الأرض حبسني النبي «سليمان» مدة طويلة من الدهر، وطاردتني أعمالي بقية الأيام. كنت وما زلت مثالاً للتناقض، فقد رأيت الشرَّ في أعقد صوره، ورأيت الخير في أجمل معانيه. وها أنا ذا أميل إلى الذين أمضيت عمري كله في اللعب بهم، والسخرية منهم، ثم أيقنت في آخر عمري أنهم أفضل مني! فأحببت أن أهدي إليهم ولو شيئاً يسيراً عن أسرار عالمي الذي يلفه الغموض، وعن أسرار أبي خاصة. وبالمناسبة فأنا أمتلك مفاتيح كثير من الكنوز المدفونة، التي تملأ الأرض وأعماق البحار، ولو شئت لأهديتها لك،

ولكنني موقن أنها لن تفيدك بأكثر مما يفيدك كلامي هذا، فهو كنز من المعرفة لا تعوضه كنوز الأرض جميعها. المعرفة هي الكنز الحقيقي، ولكنكم أصبحتم تهيمون بالأموال والذهب والفضة والمجوهرات أكثر من حبكم للمعرفة. وحتى حين تبحثون عن المعرفة فهي عندكم مجرد وسيلة وطريق لجمع الأموال. وأنا لا أريد منك مالاً مقابل الاستماع لروايتي هذه فخذها بلا ثمن.

●●●●

خرجت إلى الحياة من رحم أمي في جب عميق تحت الأرض. وأرادت أمي أن تخبئني من أبي، فقد حبلت بي منه سفاحاً، ولم يكن يريدها أن تحبل منه مثلما حبلت منه من قبل مئات الآلاف أو الملايين من الصبايا، وأجهضن على الرغم منهن. ولما كانت أمي هي أحب عشيقات أبي إليه، فقد أراد أن تجهضني قبل ميلادي لما علم أنها حبلى بي، فلم يكن يريد أن تحتفظ منه بذرية حولها تشغلها عنه. وأمر جنوده فطاردوها في الفضاءات، وهربت منهم حتى بلغت غمام السَّديم، وهي تزمع الوصول إلى السُّدُم المظلمة لتختبيء فيها لحين ولادتي. ولكن جنود أبي كانوا خلفها، وكادوا يدركونها عند كويكبات حزام الجبار. ولكنها هبطت حتى النجوم الثلاثة المتدلية عند خنجر الصياد. وعبثاً حاولت الاختباء منهم في سديم الجبار، فقد كشفوا أمرها. ورغم ذلك فقد عقدت عزمها على ألا يدركوها أبداً، رغم

أن حبلها بي قد أثقلها، فلم تعد تلك الطيارة الخارقة. وحين سمعت عزيف الجنود وحفيف أجنحتهم وراءها في الآفاق أوهمتهم أنها هبطت في كوكب الزهرة، وتغلغلت في مسارب الضياء، ففقدوا أثرها وعموا عن رؤيتها، وظنوا أنها بقيت هناك. ولكنها طوت جناحيها وتنزلت إلى الأرض خلسة دون أن يشعروا بها، وتركتهم هناك في تيه الفضاءات يبحثون. وحين بلغت الأرض غاصت عميقاً في جوفها واختبأت في أحد كهوف الأرض الخامسة متدثرة بالسُّدف المظلمة. كنت أحس بكل هذا وأنا في رحمها، وكنت أشفق عليها مما تفعل. نحن معشر المولودين لدينا ميزة أننا نسمع ونرى ونحن في أرحام أمهاتنا قبل أن نولد، غير أننا لا نستطيع الكلام حتى نخرج من تلك الأرحام. ولكن المستنسخين من أبناء أبي يمكنهم الكلام فور انقسامهم من طيفه. ورغم هذا فنحن مصنفون في طبقة سامية مقارنة بالمستنسخين من أبي. هذا الذي أقصه عليك حدث منذ زمان بعيد جداً، ولكنني أذكره وكأنه حدث بالأمس فنحن نتمتع بذاكرة قوية، عصية على النسيان، نسجل فيها كل شيء ونحفظه فهو أحد أسرار قوتنا..

أرادت أمي الوصول إلى الأرض السابعة، لتختبيء هناك حتى تلدني ويشتد عودي، وحينها سأتمكن من الدفاع عن نفسي، ولكن قواها خارت حينما غاصت عميقاً، فلم تبلغها وبقيت في الأرض الخامسة. الغوص في جوف الأرض أصعب من الطيران في الفضاءات. أمي طيف قوي تخشى بأسه أعتى الجنود، لأنه بنفخة واحدة يستطيع إحراق الواحد منهم، فقد كانت أمي تحمل كثيراً من مفاتيح أسرار قوة «عزازيل»، وكان يحبها ولذلك أراد ألا

يشغلها حبلها عنه، فأمرها أن تطرح ما في رحمها، كما أنه كان يريد أن تبقى معه أطول فترة ممكنة، والحَبَل يجعل ما في رحمها مطلعاً على أسراره، وحين كنت في جوف رحمها تمكنت من سماع الحوارات التي دارت بينها وبين أبي، ولهذا فقد حفظت أسماء مفاتيح بعض الأسرار التي كانت تحملها.

الغوص في باطن الأرض أضعف أمي جداً بعد تلك المطاردة الخطرة وهي تحملني في رحمها، فخارت قواها حين بلغت الأرض الخامسة، ولم تقو على الصمود.

●●●●

ماتت أمي وهي في المخاض قبل أن تلدني، ورغم ذلك فقد تمكنتُ من الزحف خارجاً من رحمها، وبقيتُ وحيداً في ظلمات الأرض الخامسة. نحن معشر المولودين لا نحتاج تعلم الطيران، إذ يمكننا ذلك فور ولادتنا حيث نشاء، على العكس من المستنسخين من أبناء أبي، فإن أجنحتهم لا تمكنهم من الطيران دائماً، ويحتاجون إلى إذن أبي لاستخدامها، ولا يستطيعون الطيران إلا بعد وقت طويل من استنساخهم. وعلى ذكر الطيران فأنا من ذوي الأجنحة الرباعية. وهل ذكرت لك أنني كنت أسرع طيار في شبابي؟ كما أن الواحد منا يولد وله عقل كبير وإدراك ومعرفة.

وحين فتحت عيني ونظرت حولي لم أر أمي في ذلك المكان، ولكنني

كنت أحس بروح غاضبة تحوم في الأرجاء ولكنها لم تؤذني. كنت أحس بتيارات الغضب تملأ المكان وبتلك الروح الهائمة المضطربة، فعلمت أنها روح أمي وكان واضحاً أنها ممتلئة غضباً مما فعله أبي بها. وسرعان ما اقترب طيفها مني وبدأ يوحي لي ويوجهني.

بقيت روح أمي الغاضبة من أبي ترف حولي وتحدثني عما أرادت مني. وهمس لي طيفها بالكثير. فقد أرادت أن أبقى مختبئاً فلا أذهب إلى أبي أبداً فأذعنت لمشيئة طيف أمي. وكان يريدني أن أستقل بنفسي وأن أبقى قوياً فلا أضعف. وظل يزودني بالأسرار والمعارف فتعلمت منه بقية أسرار أبي، وحفظت مفاتيح أسرار الصعود والارتقاء والعروج، وكلمات الظهور والاختفاء والتحول، وطرق التنقل بين المجرات، كما حفظت منه كثيراً من الوصفات والجرعات والعلوم. كانت أمي قد أخذت من أبي كثيراً من الأسرار، وقد دلني طيفها على تلك المعارف بعد موتها مثلما تدلكم الرؤى والأفكار والخيالات على الكثير من المعلومات وتفتح لكم أبواب المعرفة.

رغبة روح أمي في الانتقام من أبي غمرت طيفي بتيارات الغضب المتأجج التي فاضت من روحها، فأحسست بلهيب الإنتقام يحيطها ويغلفها، وسحب الكراهية قد نسجت هالة حول طيفها. ولكن أمي ماتت.. وروحها كرست طيفها للاهتمام بي وتوجيهي من أجل هدف واحد. كانت تريد أن تلقن أبي درساً لن ينساه، فأرادت أن أكون نسخة شبيهة بأبي في القدرات ومغايرة ومضادة له في المقاصد، وكنت أنا الوحيد الذي يقدر على ذلك،

فقد كانت أمي ميتة وكنت حياً، فكنت أحمل بصمة أبي في كياني وعقلي وروحي، إضافة إلى قوة أمي المدمرة في قلبي، وروحها المرفرفة من حولي. كما ورثت عنها سرعة الطيران والقدرة على الاختفاء. واستطاعت أمي أن تطمس معالمي وتغير طيفي، وتعفي على آثاري وتغير رائحتي وأنا في رحمها قبل أن أولد وحين كانت تحتضر، فلم يهتد أبي لمكاني، وما عاد يعرفني بعد أن خرجتُ من رحمها، ولم يدرك أنني كنت ابنه، فقد طمست أمي البصمة التي تدل على أصلي، فبقيتُ مجهول الأصل والنسب، إلا من رائحة أبي الممزوجة برائحتها، علماً بأن أبي لا يستطيع أن يشم رائحة نفسه ولا يتعرف عليها ولكنه يقدر أن يتعرف على روائح غيره. كنت مولوداً غريباً في عالم أغرب فمنذ أن كنت رضيعاً رأيت أن كل من يقترب مني سرعان ما يهرب مذعوراً خائفاً. فقد كانوا يجدون في روحي مزيجاً من رائحة تشبه رائحة أبي، وغضباً يشبه غضب أمي. وكان غضبها وحده كفيلاً بأن يجعل من يقتربون مني يفرون ولا يلوون على شيء، ناهيك عن رائحة أبي التي ترتعد لها الفرائص خوفاً ورعباً.

أمي أجمل أنثى في تاريخ الأكوان، وحب أبي لها أعماه عن غيرها لدرجة أنه لم ينسها على مدار التاريخ، ولا عجب أنه أغوى القدماء حتى خصوها بيوم الجمعة يعبدها فيه بنو الصلصال، وجعلوه يوم كوكب الزهرة الذي ظَن أبي أنها اختفت فيه حين طاردها جنوده، وصار عباد الكواكب من بني الصلصال يقدسونها بعد ذلك على مر العصور واختلاف الأزمان،

وصيرها رمزاً من رموزه المحببة إليه وإلى أتباعه، فهي (عشتار) إلهة الجنس والحب والجمال والحرب عند البابليين، وهي (إينانا) عند السومريين، و(عشتروت) لدى الفينيقيين، و(أفروديت) في عهود اليونان، و(فينوس) في زمن الرومان. جعلها نجمة الصباح والمساء معاً، وجعل رمزها نجمة ذات ثماني أشعة منتصبه على ظهر أسد، على جبهتها الزهرة، وبيدها باقة زهر في بقية العصور. وأغوى الشعراء فجعلهم يقعون في غرامها، ويخلّدونها بأعذب الأوزان وأجمل القوافي، والأدباء يهيمون في حبِّها فيهبونها أبلغ نصوص الملاحم، والفنانين يهيمون فيها عشقاً، فيرسمونها على اللوحات ويصنعون لها التماثيل التي تكاد تنطق بالحياة، والموسيقيين يولعون بها فينغّمونها لحناً راقصاً على أوتار العود وفوهة الناي وعلى جميع الآلات. وجعلها رمزاً للخصب والحبّ لدى سكان وادي الرافدين القدماء بلاد السومريين، يبنون لها المعابد في نينوى ويقدمون لها القرابين ويسجدون لها. ولكن أمي بقيت تبغضه بغضاً لم تعرف له الحياة مثيلاً إلا بغض أبي لبني الصلصال.

●●●●

دعني أحدثك عن أبي قليلاً، رغم أنه أشهر مخلوق في الأكوان. أظنك عرفته بمجرد أن ذكرت لك هذا.. نعم.. إنه هو عينه. أبي هو «عزازيل» سيد بني النار... والعدو الأول لبني الصلصال. ورغم أن معظم معلوماتي عنه هي مما سمعته من الآخرين من بني النار إلا أن من حقك على أن أروي لك القليل منها

وخاصة ما يقوم به من أفعال لإضلال بني الصلصال، فقد نجح أبي أيما نجاح حين أوهم بني الصلصال بأنه غير موجود فبقي عدواً خفياً لا ينتبه له أحد ولا يحس بوجوده مما أعطاه قوة مطلقة وحرية في أن يفعل بهم ما يشاء.

واكتشف طرقاً عديدة لإغوائهم، معتمداً على نفخ «الأنا» في دواخلهم فإذا كبرت فيهم استكبروا وتاهوا. وفي أحيان كثيرة يعتمد على تجريدهم من المعارف الحقيقية النازلة من السماء فيستعيضون عنها بالأساطير والوهم والزيف. أبي يعرف أن أعدى أعدائه من بني الصلصال من هم على صلة بالسماء، فاجتهد في تشويه صورهم وتكذيبهم. ولم يزد مجهوده على دعوة بني الصلصال إلى كتابة الأساطير فيستجيبون له بصورة جامحة جعلته يتعجب من سهولة نجاحه في إغوائهم وسرعة استجابتهم له. أبي يعلم أن الأساطير هي البديل المدهش لعلوم السماء في عقول العامة. وحتى من هم على صلة بعلوم السماء من بني الصلصال سرعان ما ينسون عداوة أبي لهم فيستمعون له ويستجيبون لصوته. وهو يطرب حين ينجح في إغوائهم. وهكذا بدأت قصة الغواية التي مهر في استغلالها لدرجة أنه استطاع في مرحلة من التاريخ أن يعيد كتابة بعض الكتب السماوية حينما ضيعها أتباعها فلما أرادوا إعادة كتابتها تلفتوا فوجدوا أن العهد قد طال بينهم وبين تلك الكتب، ولم يستذكروا نصوصها، واستغل أبي الفرصة فأوهم بعضهم أن أسطورة «جلجامش» هي في واقع الأمر ذلك الكتاب السماوي الضائع، فأعادوا كتابة كتابهم المقدس، وضمنوا أسفاره تلك الأسطورة، وبالطبع لم ينس أبي أن يمهر توقيعه على كتابهم الآخر الذي تلا ذلك الكتاب الضائع،

متبجحاً بأنه هو «كوكب الصبح المنير» الذي أرسل رسوله إلى أولئك الأتباع فأبي يلعب بهم كيفما شاء وأنى شاء حتى أني أشفق على بني الصلصال من ضعفهم وسرعة استجابتهم وتصديقهم لألاعيب أبي.

تولى «عزازيل» الإشراف على الكتبة الذين سرعان ما ملأوا الدنيا بالحكايات والأساطير التي كنت أسمعها فأعجب من استغلال حبه لأمي لينفخ الأباطيل في عقول بني الصلصال من أجل أن يصل إلى مآربه الحقيقية. وفي الوقت نفسه كنت أنظر إلى ما صنعه بها في حياتها فأحس بالغضب يملأ جوانحي وأفهم لماذا بقيت ممتلئة بكل هذا الغضب الموار الذي لا تهدأ أمواجه ولا يغيض مَدُّهُ.

ولك أن تسأل لماذا نجح «عزازيل» في إغواء بني الصلصال بهذه السهولة؟ والإجابة سهلة فهو يعرف أسراراً كثيرة اشترك فيها مع بني الصلصال، ولكن بني الصلصال نسوها وأبي لم ينسها. لقد كان يعلم أن العقل والإدراك يستمد قوته من واهب الآلاء الذي أبدعه ومنه جاء، فأصله وجذوره متعلقة بالسماء، ولو تخلى عن أصله تخلى عنه الأصل. ونجح أبي في إلهاء العقل عن العودة إلى الأصل، فتمت له السيطرة عليه. العقل لا يعيش إذا ماتت جذوره، فتجده كريشة في مهب الرياح تحركها الرغبات وتلعب بها الأهواء والشهوات ويفتنها حب النفس.

●●●●

دعني أعود بك إلى طفولتي الباكرة لأحكي لك أعظم مأساة في تاريخ

حياتي:

كنت أطير فآتي عند إنسية مات رضيعها فأرضع من ثديها. وكانت تقيم في أطراف مدينة «الحلة» بالعراق. وكنت أبقى معها ليلاً ونهاراً رغم أنها لم تكن تراني فقد كانت مشغولة بالحزن على رضيعها. وكانت امرأة مسكينة وحيدة هجرها زوجها وليس معها في كوخها أنيس ولا معين، فبقيت معها مدة حتى جف ثديها من الحليب أو أنني لم أعد أجد له أثراً في ثدييها. لا أدري أيهما حدث، ولكن الذي أذكره جيداً هو أنها ذكرت اسم الواهب مرة، حين كنت جالساً في حجرها أرضع، وفجأة اختفى الحليب من ثديها ومن فمي، وأخرجتُ كل ما في بطني فتبخر وأحسستُ بعد ذلك بجوع يعضني في كياني. جبلة الطين في حليب الإنس أضعفت قدرتي على الطيران قليلاً فيما بعد، فلم أبلغ سرعة أمي في الطيران، ولكنها عوضتني عن كل ذلك بأن أكسبتني قلباً رحيماً.. بالإضافة إلى مهارات كثيرة، ورغم ذلك فأنا ما زلت أسرع طيار!

رغم كوني من بني النار إلا أنني أحس أحياناً بانتمائي لبني الصلصال، فدمهم يجري في عروق طيفي، وقد تغذى من حليب بني الإنسان. أنا أتعاطف معهم في بعض المواقف رغم تحذيرات أبي لنا أن العاطفة والشفقة ضعف مهين، وأن الرحمة هي أعدى أعدائه، وأنها لا تليق بنا وإنما تليق بابن حواء الفاني. وبعد موت أمي «فريجا» كنت أحس بأطيافها وهي تحاول اقتلاع الرحمة والشفقة من قلبي واستبدالها بحقدٍ مَوَّارٍ لا ينضب فيضه. وسوف أحكي لك فيما بعد عما فعل ذلك الحقد بي، وعن أعمال قمت بها

تشيب لها الولدان! فعلتها دون أن تطرف لي عين أو يخفق قلب، بل كنت أستمتع بفعلها وأعتبرها فخر الانتماء لقبيلي من بني النار وذلك قبل أن أعود إلى رشدي.

هل أنا نادم الآن على جميع ما فعلت؟ بالطبع أنا كذلك! أقول لك إن كل سيئة كسبتها تطحن قلبي كما تطحن المدحلةُ الأسفلت في طرقات بني الصلصال! ولكن ما الذي حدث؟ وكيف وقع هذا التحول الرهيب في حياتي؟ ولماذا حدث؟ يبدو أننا – أنت وأنا - سوف نستمتع معاً بالكثير من الحكايات والقصص عن مأساة حياتي الطويلة القصيرة. هي حياة طويلة لأنها امتدت لآلاف السنين، وهي قصيرة لأنها مضت وانقضت بسرعة مخيفة وكأنها يوم أو بعض يوم.

بالطبع أنت تحسدني على هذه السنين الطويلة التي عشتها، ولكن العاقل يعلم أنه كلما طال عمره كثرت أخطاؤه، ولو خيرت لاخترت أن يكون عمري قصيراً مثل أعماركم ينقضي بسرعة، ويقل احتمال الأخطاء فيه. كان أسلافنا يعيشون ملايين السنين، وأنتم الآن لا تتجاوز أعماركم الستين أو السبعين. وكلما اقترب الزمان من نهايته أصبحت الأعمار أقصر ودارت عجلة الزمان دورات أسرع. إن الحياة لا تقاس بعدد الأيام والسنين بل بمدى ما أنجزته في حياتك وما قدمته للآخرين. كثيرون عاشوا سنين طويلة ثم ماتوا ولم يشعر بحضورهم ولا بغيابهم أحد. وهناك من عاش حياة قصيرة قضاها والموت يطارده، ولكنه ترك بصمات على وجه الزمان لا تنمحي ولا تزول. هل لاحظت أن معظم العباقرة والمبدعين قصار الأعمار؟ ولكن حين أحدثك عن

عمري الحقيقي الذي عشته رغم أنني ولدت منذ آلاف السنين فسوف تجد أن حياتي هي بالفعل قصيرة وأنني قد أمضيت جزءاً كبيراً منها داخل قمقم صغير في قاع البحر، تمضي الأيام والأعوام والأجيال والدهور، وأنا على تلك الحال، لا يتغير شيء ولا يتجدد. رتابة الحياة في القمقم جعلتني مثل جدرانه الداخلية، بل إنني كنت أحسد تلك الجدران فهي ميتة لا تحس بينما كنت أحس وأتألم. الجزء الخارجي من تلك الجدران يطل على مياه البحر ويشاهد الحركة والحياة فيها، بينما أنا سجين داخل ذلك القمقم المختوم بالرصاص لا أستطيع فكاكاً ولا أقوى على الحركة ناهيك عن الخروج فقد كنت حبيس القمقم حين غضب النبي «سليمان» من أفعالي فأمر جنوده بالقبض عليَّ وإيداعي قاع البحر حتى حين، ثم مات النبي «سليمان»، وبقى المحبوسون داخل تلك القماقم منذ العام 931 قبل ميلاد المسيح حتى تكسر بعضها بفعل عوامل التعرية والتآكل داخل البحر فخرجنا منها. وسوف أحكي لك عن تلك الفترة من عمري فقد كانت غنية بالحكمة والمعرفة.

رغم أنه ليس مهماً عندي أن أصف لك نفسي، ولكنني سأحاول لأن ذلك مهم عندك. وهو ليس سهلاً في الوقت نفسه فأنا لا أستطيع أن أصف نفسي بدقة لأنني لا أملك جسداً ثابتاً مستقراً فهو يتقلب مع تقلب الزمان والمكان والطبع والمزاج. وسوف أحاول أن أستعير كثيراً من العبارات والألفاظ الحسية المفهومة لديكم حتى أقرب لك الصورة، فنحن في الأصل أطياف كما تعلم، وحين الولادة تكون الأطياف على أصلها المائل للسواد المعنوي وهو من لهب مختلط بسواد النار، وهو مثل ريح السموم الحارة. ولهذا

فإننا نحب اللون الأسود، فهو أقرب إلى الظلام الذي نفضله ونحبه، ونحب التجسد في الأجسام السوداء لأنها أكثر كثافة وأقوى سبكاً، ولأنه يسهل تحولنا إليها، مثلما يسهل الخروج منها، ولأنها تحفظ حرارتنا الأثيرية. وأكثرنا يحب التجسد في الأجسام السوداء والأشكال التي تشبه الضباع والذئاب والقطط والكلاب والإبل السوداء التي نحبها كثيراً ونحب امتطاء ظهورها. نحن نقضي أعمارنا كلها في التقلب، فنحن أطياف هائمة في العوالم، بعضنا في علويها وآخرون منا في أسافلها. الأطياف لا يمكن رؤيتها ولكنني أستطيع أن أختلس من الأشكال ما أشاء وأحبس نفسي فيها ساعة من الزمان ثم أعود إلى أصلي الحقيقي متى شئت. كنت أستمتع بهذا في الزمان القديم، وكنت أتخذ أسرع الأشكال وأقواها حتى لا يتسلط على جسدي المؤقت شيء أقوى منه فأموت حبيس ذلك الجسد. التحول عندنا له أكثر من طريقة، فهناك التقمص والحلول والتجسد وهناك طرق أخرى كثيرة ربما أشرحها لك إن شئت.

نحن أطياف في أجسام أثيرية خفية، غير أنها ذوات هيئة وأعضاء معنوية. كما أننا نشبهكم في كثير من الصفات الجسدية إلا من بعض الاختلافات اليسيرة. ومثلما أن أشكالكم وألوانكم وأحجامكم تختلف باختلاف أجناسكم وأماكنكم فكذلك نحن ننتمي إلى أجناسٍ كثيرة تملأ العوالم، وهي مثل قبائلكم متعددة الألوان والسحنات والأعراق. ما يميزنا عنكم هو أن أطيافنا غير مرئية لكم، وهي تتراءى لكم حين نرغب، أو تغيب عن أعينكم حين تفيق من غيبوبة ادعائها وزيفها فتعود إلى أصلها. وبنية

أطيافنا هي في طبيعتها أصغر من بنية أجسادكم مع أننا نستطيع أن نتخذ أجساماً ضخمة ونتعملق متى شئنا. رؤوسنا أضخم في العادة من رؤوسكم، ولمعظمنا قرون في الهامات، كما أن أعيننا براقة وأكثر اتساعاً، وهي رأسية وليست أفقية، وحدقاتها مستطيلة حمراء، وبياضها أسود اللون. نحن نرى في جميع الاتجاهات ورؤيتنا في الظلام أقوى من رؤيتنا في النور. وأسناننا ذوات رؤوس حادة مثلثة الأشكال، ولنا آذان مثل آذان القطط، ولبعضنا ذيل طويل ينتهي بطرف مليء بالشعر وهو مثل نصل الحربة أو السهم. ولنا أذرع طويلة وكذلك بقية أطرافنا. وجلودنا ملتصقة بأجسادنا جداً. وبالجملة فنحن نشبه القرود أو الغوريلا في تكويننا إلا أننا أجمل من القرود كثيراً، وشعر جلودنا أقل من شعر القرود. والبعض منا له جناحان، وآخرون لهم أربعة أجنحة. وأما إناثنا فيتميزن بالشعر الطويل المسترسل حتى الأقدام، والأعين الجميلة الواسعة، والأنف المستدق، والقوام الجميل. كما يتميزن بحدة الصوت وكثرة الكلام وسرعة الطيران والذاكرة القوية. نحن لسنا قباحاً كما يعتقد بنو الصلصال، فالقبح هو صفة لازمة للشياطين والمردة والعفاريت، يحبونها ويكتسبونها ويظهرون بها لبني الصلصال. ولذلك ظن بنو الصلصال أن صفة القبح لازمة لنا وأؤكد لك أنها صفة مكتسبة للشياطين خاصة وهي ليست صفة لجميع الأطياف.

●●●●

القدرة على الطيران صفة فطرية عند معظمنا، ولكن ليس كلنا

يملك أجنحة، ولا كلنا يقدر على الطيران، فالبعض منا مثلكم بلا أجنحة ولا أذناب ولا قرون، بل إنهم يشبهونكم كثيراً فلا تكاد تفرق بينهم وبينكم إلا إن كنت من ذوي البصيرة النافذة. وآخرون يغوصون في الماء ويعيشون في الكهوف تحت البحر. وأما سرعة الطيران فتعتمد على قدرة أحدنا في التخيل والانتقال. فالواحد منا يستطيع أن ينتقل بأسرع من لمح البصر إلى أماكن بعيدة لا تستطيع عقولكم أن تتخيلها، وطي المسافات بالنسبة لنا هو أمر نسبي لا تحكمنا فيه قوانين الطبيعة الأرضية التي تحكمكم مثل قانون الجاذبية والاحتكاك، إلا إن تشكلنا في أجسام مرئية، فحينئذ تحكمنا قوانينكم الأرضية. ولو انتقلنا إلى كوكب آخر أو مجرة، فإن طبيعة ذلك الكوكب وتلك المجرة هي التي تحكمنا، وقوانين الطبيعة الأساسية لا تتغير بالانتقال من مكان لآخر، لكن عالم الأطياف له قوانين أخرى ليس ضمنها قانون المسافة في الإنتقال الذي تعرفونه، وذلك لتحرر عالم الأطياف عن فيزياء الذرة ومكوناتها، ولذا فالأطياف تقدر أن تطوي ملايين الأميال بمعياركم في مدة زمنية لا تستطيع مقاييسكم أن تحسبها لدقتها وتناهيها في القصر. كما أن المسافات بين العوالم هي مسألة نسبية، فالكون ليس فراغاً مسطحاً، وقد ترى أن بعض النجوم والمجرات تبعد عنكم ملايين السنين الضوئية بمقاييسكم، بينما هي في الحقيقة أقرب من ذلك لوقوعها في طيات دروب الكون المختصرة، وقد حاول «إينشتاين» من بني جلدتكم شرح النسبية واقترب كثيراً من الحقيقة لكنه وقف عند أبوابها ولم يلج إلى حقيقتها، فما الكون إلا مثل الثوب يطوى فينكمش وتتقارب مسافاته،

وينفرد فينتشر وتتباعد أطرافه وأنت تنظر فتجد أن أطرافه في حقيقة أمرها بعيد بعضها عن الآخر، فتراه في الجانب المقابل للثوب، ولكنك حين تطوي الثوب تجد أن طياته البعيدة تنحني وتنثني فيلمس بعضها بعضاً، حتى أنك تستطيع أن تجمع الثوب كله داخل قبضة يدك الواحدة دون أن يتغير نسيجه. وهكذا هو الكون، مداراته ثابتة لا تتغير، ولكن مجراته تقترب من بعضها أو تتباعد. وبذا فالطيران عبر الكون متيسر فقط لمن يفهم دروب الأكوان وأسرارها، وطبيعة تكوينها، وفيزياء المسافة، ويعرف الممرات وطرق العروج، ومهابط النزول وبوابات الانتقال. ومن أخطأ الطريق أو تجاوزه احترق بأتون الشهب، أو ضربته النيازك، أو غرق في جحيم النجوم المستعرة، أو تاه في سدم الغيوم، أو جذبه إلى نواته كوكب في طور الفناء. وليس كلنا يستطيع أن يتجاوز المجرات إلى أخرى مجهولة، لأنه سيكون حتماً من الهالكين. فتلك لها سكانها الذين تتفق فطرتهم مع طبيعتها ليتسنى لهم العيش فيها. وهل توجد مخلوقات أخرى غيرنا نحن وأنتم؟ بالطبع يا عزيزي يوجد الكثير والكثير في هذا الكون الفسيح الرهيب.

لا أريد لك أن تصاب بالصداع ونحن ما زلنا في بداية التعارف، ولذا فسوف أضرب الصفح عن ذكر أمر الطيران بين العوالم والأكوان، وربما أعود فأشرحه لك مفصلاً إن أحسست أن أفق فهمك يفسح لي فأحلق في سمائه وأطير عبر أجوائه، وسوف أظل أنفخ فيه بالحكايا حتى يتسع. وأنا أعلم شغف بني الصلصال بالطيران والتحليق في الأجواء. وسوف أستغل هذه الخاصية فيك لنطير معاً عندما أحكي لك عن أخبار السماء.

●●●●

هل أنا مجنون؟ بالقطع نعم فالجنون هو عالمي، إن كنت تُعَرِّفُ الجنون بأنه التمرد على منطق الأشياء بإرادتك أو بدونها. وفي عالمي الموازي لعالمك فإن الجنون هو المنطقي والطبيعي. والحق يقال أنني لا أعتبر نعتك لي بالمجنون إساءة أو مسبة أو تعدياً، بل هو وصف وتقرير لطبائع الأشياء على حقيقتها في عالمي.

حياتي عامرة بكل أشكال الحياة. القصص التي أستطيع أن أحكيها لك لا تحصى ولا تعد. فأنتم لا تعلمون عنا وعن تاريخنا إلا القليل، إلا أن حكيت لك منه. أخشى أن أموت قبل أن أحكي لك كل شيء، فمن حقك أن تعرف عني شيئاً ولو يسيراً. لو كنت قد بقيت على طبيعتي القديمة لما آثرت أن أحكي لك شيئاً ولأبقيتك في جهلك وضلالك عني، وعن أصلي ونسلي، ولسخرت منك بقية حياتي كما كنت أفعل من قبل. ولكن يا لحظك الجميل فقد تغيرت دواخلي من جذورها، فأصبحت طيفاً آخر مغاير. ولعل هذا يفسر اقترابي منك وكلامي معك. بنو النار يعتبرونني خائناً إن حدثتك عنا، فأنتم بفطرتكم يا بني الصلصال أعداء لنا. ولكنني أريد أن أترك لديكم ذكراً حميداً من بعدي، فقد تغيرت في نفسي أشياء كثيرة، ولعل هذا هو مجمل ما أرادته أمي مني. أن أكون ذاتي، ولا أكون نسخة من أبي. أنا أعلم أنه لن يجعلكم بني الصلصال تغيرون عقيدتكم فينا، ولكن لا بأس من المحاولة.

أنتم تجهلون قدركم فقد فضلتم علينا رغم أننا سبقناكم في الوجود، فقد عمرت أنسالنا الكواكب والأرض منذ آلاف الملايين من السنين حين لم يكن لكم ذكر ولا وجود. أنتم من المتأخرين في الخلق. أتيتم في الثواني الأخيرة من عمر الزمان وتم تفضيلكم علينا في هذه الحياة الأولى. وربما تفضلون علينا في الحياة الآخرة. من يدري؟

والآن إن كنت قد أثرت فيك بعض الاهتمام فسوف ترغب أن أحكي لك بعضاً من تاريخنا القديم لعل فيه سلوى تعيد بعض أمجادنا الماضية، وتملأ جوفي الفارغ بالزهو ولو إلى حين. هي أساطير ولكنها أقرب إلى الحقيقة. وهي تحكي عن تاريخ لم يشهده بنو الصلصال وإنما شهده بنو النار فصدق إن شئت أو لا تصدق. سوف أحكي لك قصة «عزازيل» وصعوده إلى السماء وربما أحكي لك قصة نزوله منها.

يالحبكم للأساطير والقصص والحكايات. أراك تحمست حين ذكرت لك أنني سوف أقصها عليك!! ولو علمت كم جنت الأساطير على بني الصلصال لما استمعت إلى أسطورة بعد ذلك قط. لن أخذلك فتعال إذن واسمع حكاية بني النار منذ بدء الخلق حين هبطوا إلى الأرض من كوكب الجبار.

(2)
الأرض القديمة

لا يكاد أحد من بني النار يذكر شيئاً ذا بال عن عصر الرُدَينيين، الذين هبطوا إلى الأرض منذ أحقاب ما بعد الفتق الكبير، الذي نتج عنه انشطار العوالم السماوية والأرضية، فقد هلك كل من يحكي عن تلك الأساطير القديمة. ولا ألوم أحداً على نسيانها، فهي عصية حتى على بني النار. ويقال إنها تعود إلى حوالي ألف ومائتى مليون سنة مضت، حين كانت أغلب كتلة الأرض مجتمعة في قارة واحدة، سكنها الردينيون من بني النار. وقد عاشوا في ثلاث حقب من الزمان القديم، هي حقبة السُدَيريين، وحقبة الميسويين، ثم حقبة الأدرياكيين. أهل التأريخ من بني النار يقسمون أحقاب الزمان القديم، والدهور السابقة، إلى أحقاب خمس هي: الحقبة الأَرْكِيّة، وحقبة البدء، وحقبة الحياة القديمة، وحقبة الملاحم، وحقبة بني الصلصال. ويقسمون الأحقاب إلى عصور، والعصور إلى فترات. بنو النار عرفوا الأرض منذ الحقبة الأركية وحقبة البدء، قبل أن يهبطوا إلى الأرض من كوكب الجبار، حين لم تكن على الأرض حياة. ثم هبطوا إلى الأرض في حقبة البدء فواكبوا بداية الحياة على الأرض.

أساطير بني الشيصبان - الذين يزعمون أنهم سجلوا تاريخ الأرض منذ نشأتها - تحكي ملاحم الأرض القديمة في أول الدهر، حين ساد بنو النار تلك الأرض منذ أربعة آلاف مليون عام، قبل أن يخرج الماء من جوف الأرض

ويتمدد على سطحها ويصير بحاراً. وقد بدأت الملاحم منذ نحو ثلاثمائة مليون سنة سبقت الانجراف القاري ودخول البحر بين الأرضين. فقد كانت اليابسة كتلة واحدة مجتمعة ناحية، وكان البحر مداً واحداً مجتمعاً ناحية أخرى. بنو النار هم أول الخلق على الأرض، بعد أن خرج الماء من جوفها فبردت وسكن غليانها. كانوا إما أهل يابسة أو أهل ماء. وأهل الماء لا يجورون على أهل اليابسة، فهم يمشون فوق الماء، أو يغوصون في قيعانه وينالون من خيراته. ولا أهل اليابسة يطمعون فيما عند أهل الماء، فهم يسعون في مناكب الأرض ويأكلون من نعمها. والكل قانع بما عنده وهو يظن أن ما عنده خير مما عند الآخر.

اليابسة مزدهرة بكل شيء، وبنو النار يملأون الأرض بنسلهم ويعمرونها، والبحر يزخر بما فيه وبنو النار يملأون أقطار البحر. والكل يلهج بالحمد لواهب الآلاء.

ثم تشرق شمس يوم على سكان الأرض لتشهد ما اقترفوه من آثام. بنو النار يجور بعضهم على بعض فيعتدى أهل اليابسة على ما عند أهل الماء، ويعتدى أهل الماء على ما عند أهل اليابسة، فتندلع نيران العداء، وتسود الأجواء سحب البغضاء، وتزهق الأرواح وتسفك الدماء. أهل اليابسة يزعمون أن الماء هو أصلاً فوق اليابسة، وبذا فهو ينتمي إلى أملاكهم والماء بما فيه يؤول إليهم، وكل شيء يخرج من الماء طوعاً ويسكن اليابسة فهو لهم، ولا ينبغي لأهل الماء أن ينسبوه إليهم. وبالمقابل يزعم أهل الماء أن كل شيء يتحرك على وجه الأرض فهو لهم، لأنه من الماء يخرج. وتستمر الملاحم

والحروب الدهور الطوال، بلا انقطاع ولا انفصال، رغم أن ما في الماء يكفي أهل الماء واليابسة، وأن ما في اليابسة يكفي أهل اليابسة والماء معاً. أعمارنا في أول الحياة على الأرض بلغت الملايين من السنين. والحروب دامت نحواً من مائة مليون عام، لم تر الأرض سلاماً ولم تعرف وئاماً حتى ظن الجميع أن الحياة ما هي إلا الفصام والمعارك والقتام، وارتكاب الآثام. وتوارثت الأجيال والأنسال حب القتل والبغضاء، وإهلاك النسل وسفك الدماء فنسوا الواهب وكذبوا آلاءه، وجحدوا هباته وأنكروا عطاءه.

●●●●

«الديناصورات» التي كان بنو النار يرعونها ويقتاتون من لحمها حرموا منها بسبب طغيانهم. بنوا النار رعوا الديناصورات على مدى مائة مليون سنة، وذلك بعد أن أصبحت الأرض هامدةً بعد هياج، وقارَّةً بعد ثَوَرَان بعد أن كانت كتلة واحدة كبرى أطلق عليها بنو النار اسم «رضوى»، ويطلق عليها علماء بني الصلصال في زمانكم هذا اسم «بانجيا»، وكانت الأحياء قليلة نادرة، ولم تكن في الأرض ثديات ولا طيور. كان هذا قبل مجيء النورانيين ليعاقبوا بني النار بالهلاك والطوفانات، وزلزلة الأرض، والرجم بالمذنبات، وإثارة البراكين وزحف الجليد وتسمم الهواء وزيادة الملح في البحار التي كانت عذباً فراتاً في أول أمرها، ولم تكن تعرف العفن حتى اقتتل بنو النار وتفانوا فيما بينهم.

يحكي الأسلاف - من بني الشيصبان - أن بني النار قد عرفوا الديناصورات منذ حقب الحياة الوسطى، وخلال جميع عصور الترياسيين والجوراسيين. وكانت صغيرة الأحجام لا تعدو أطوالها العشرة أمتار، ولكن أسلافنا من الجوراسيين برعوا في تهجينها وزيادة أحجامها، حتى كانت تبلغ سبعين متراً طولاً، فأصبحت ضخام الأجسام، وكانت أشكالها تشبة الفيلة في زمانكم هذا، وارتفعت قوائمها وطالت أعناقها لتأكل من فروع الأشجار العملاقة التي تتجاوز أطوالها المائة متر. واكتسبت الذيول الهائلة، واكتسى بعضها بالجلود والفراء، والبعض الآخر بالقشور والزعانف، واتخذها أهل الماء في البحار طعاماً لهم مثلما اتخذها أهل اليابسة، وكانت منها أنواع لها مناقير مثل مناقير الطيور، وبعضها له أجنحة مثل أجنحة الخفافيش والدبور. وطارت في السماء وحلقت في الفضاء. وهكذا سادت الديناصورات على اليابسة وفي الماء والأجواء. ورغم ضخامة أحجامها إلا أن معظم أنواعها كانت من آكلات العشب، لتكون طعاماً لبني النار، وكان القليل منها من آكلات اللحوم.

ثم اندلعت الملاحم بين الترياسيين قبل مائتين وثمانية وأربعين مليون سنة، وفيها طغا بنو النار وبغوا، وأشاعوا القتل والفتك، فنزل النورانيون لتأديبهم بالجوع والخوف، فقتلوا أغلب الديناصورات التي كانت على وجه البسيطة وحدث الإنقراض الأكبر، فوقع الموت في البر والبحر. وهرب الترياسيون بنو النار إلى قطبي الأرض واحتموا بهما. ولكن النورانيين طاردوهم

طوال العصر البُرَمِي، فأطفأوا نيرانهم وأطلقوا عليهم الشتاءات الطويلة، فحدثت عصور الجليد في أطراف الأرض، وتفجرت البراكين في وسطها وتمدد البحر، وتناقصت اليابسة، وطال غياب الشمس عن أهل الأرض حتى حجبتها الأبخرة السوداء والغمام المظلم، وكادت الحياة تنقطع بسكان الأرض.

«النورانيون» ذوو بأس شديد، يهبطون إلى الأرض كلما فاضت آثام بني النار وظهر فسادهم، فيوقعون بينهم الضربات ويعيدون إلى الأرض السلام ويطهرونها من بقاياهم. وكلما هبط النورانيون إلى الأرض أعقب هبوطهم الخير حيثما تركوا آثارهم. فكان مجيء النورانيين إلى الأرض المرة بعد المرة سبباً في السكينة وإنعاش الأرض.

الترياسيون نسوا أنهم مخلوقون وظنوا أنفسهم آلهة، فقلدوا أفعال الإله وتسلطوا على من سواهم، وما تركوا شيئاً من أنواع الفساد إلا أتوا به، وكانت الأرض تئن من وقع أفعالهم فوقها وفي جوفها حتى تغيرت أنفاس البحار واشتعلت أعماقها.

وفي آخر عصر الترياسيين كثر الفساد على الأرض حتى ضج سكان السماء بالشكوى، واحتشد جنود السماء من النورانيين مثلما لم يحتشدوا من قبل. وكانوا غاضبين فقد أشعلوا المدارات التي حول الأرض بالمستعرات العظيمة، التي تفجرت بالحمم وأطلقت الأشعة على الأرض فدمرت ما دمرت. ولم يبق على ظهر الأرض ديناصور ولا نبات ولا حيوان ولا حياة فقد احترقت جميعها. وهرب الترياسيون بنو النار فاختبأوا في أقطار الأرضين،

ونزلوا حتى الأرض الخامسة في أسفل سافلين. وهبط النورانيون فضربوا الأرض بالشهب الزرقاء والحمم، وفجروا البراكين من أفواه الجبال، وأغرقوا ظاهر الأرض وباطنها بالماء، وزلزلوها أيما زلزال. وتنزلت حمم الحديد من السماء ومعها مقذوفات الشهب فضربت كهوف الأرض السابعة، وأهلكت بني النار، ولم يبق منهم إلا نسل منقطع بعد أن كانوا يملأون الأرض. ونصب لهم النورانيون الشراك والأفخاخ في كل مكان واصطادوهم مثلما تصادون الفئران في زمانكم هذا.

●●●●

النورانيون بعد أن ضربوا الأرض وجدوا صبياً من بني النار اسمه «عزازيل»، كان في مقتبل العمر، إذ لم يتجاوز عمره آنذاك عشرة ملايين سنة، فأسروه وأخذوه إلى السماء، فصار معهم زمناً غير قليل. وكانت أعمار بني النار في تلك الحقب ما بين الخمسين والمائة مليون سنة.

نشأ «عزازيل» في السماء فنسي أو تناسى أصله الأرضي وأنه من بني النار. وظن نفسه من النورانيين، وبمرور الوقت ظن أنه من أشراف النورانيين فأصبح معتداً بنفسه وفخوراً، فقد رأى أن النورانيين هم من ذوي الأجنحة مثنى وثلاث ورباع، ونظر إلى نفسه فوجد أنه رباعي الأجنحة، وأن صورته قريبة من صورهم، فظن نفسه واحداً منهم، فقد كان حينها متوازن الشكل سوي الخلقة. ووجد النورانيين يُسَبِّحُون للواهب ولا يفترون، فنافسهم في

أفعالهم. وكان يطيل السجود حتى إنه سجد سجدة استمرت ستة آلاف سنة. وغرته سجدته تلك فحدث بها كل نوراني لقيه في كل سماء، وكتبها على أبواب الفراديس، ثم أصبح يمشي مثل الطاووس مختالاً.

ظن «عزازيل» أنه لن يصل أحد من النورانيين الى مكانته التي توهمها لنفسه، فلمع في داخله شئ من الكبر والغرور لم يظهره لأحد، و لم يطلع عليه إلا واهب الآلاء. فاستخرج الواهب هذا الكبر من نفس «عزازيل» بأن أمره بالسجود لابن الصلصال والحمأ، فيما بعد.

●●●●

أخبرتك أن تاريخ الأرض كان أسود قاتماً ولم تكن الأرض تتمتع بسمعة طيبة عند أهل السماء، فقد ظلت رمزاً ومثالاً للفساد وسفك الدماء. كلما ذكرت الأرض تذكر النورانيون سكانها البغضاء من السديريين بني النار وسبحوا لواهب الآلاء أن أرسل جنود السموات لينتقموا منهم ويطهروا الأرض من أرجاسهم. وكان «عزازيل» يفخر بأنه اصطحب النورانيين في آخر ملحمة لهم من ملاحم تطهير الأرض، أو أنهم اصطحبوه معهم، وأنه عاد معهم مزهواً بالنصر الذي حققوه.

ولما قال واهب الآلاء للنورانيين إنه سوف يرسل خليفة يخلف بني النار في الأرض كان النورانيون قد امتلأوا دهشة، وعجبوا أن واهب الآلاء سوف يجعل على الأرض نسلاً آخر من بني النار يخلف الهالكين الذين

أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء، وحين سمع «عزازيل» ذلك امتلأ زهواً وترقباً بأنه سوف يكون هو الخليفة في الأرض، فهو يعرف أنه ذاتي الانقسام والتوالد مثلما أنه يقدر أن يتوالد بالتناسل كما هو شأن بني النار، وظن أن نسله هو الذي سيكون الخليفة. ورغم أنه أوهم نفسه مدة من الدهر أنه من النورانيين، إلا أنه كان يعلم حقيقة أمره في دخيلة نفسه، فما هو إلا ابن بني النار ومن نسلهم. وظن أن بقاءه مع أهل السماء قد أهله لخلافة الهالكين من أهل الأرض.

ولكن الواهب كان قد أمر أحد النورانيين أن يهبط فيجمع من تراب الأرض أسودها وأحمرها وأبيضها، وسهلها وجبلها، ثم يعجن هذا التراب بماء الفراديس، ثم يتركه حتى يصير صلصالاً مثل الفخار، ويجعله أجوفاً، فصنع النوراني ما أمره الواهب.

وفي مرة كان «عزازيل» يتجول في طرق السماء وإذا به يرى منظراً عجباً لم يره من قبل، فقد رأى هيكلاً غريباً من الحمأ ملقى ناحيةً، فجعل يطوف به، وكان منزعجاً من وجود هذا الشيء، وكان يقول في نفسه: «لأمر ما خلقت أيها الشيء!». ثم لما أمر الواهب النوراني فنفخ فيه الروح أصبح ذلك الصلصال بشراً من لحم ودم، طوله ستون ذراعاً وعرضه سبعة أذرع. ولما كان لونه يشبه لون الأديم الذي خلق منه فقد أطلق عليه النورانيون اسم (آدم) وكانوا يعجبون منه ومن صنعه. وكان ذاتي الانقسام في أول أمره فقد أذن له الواهب أن ينقسم إلى شقين، فخرجت منه أول أنثى من جنسه. وكان ناطقاً ومتكلماً، وكان حكيماً، يخبر النورانيين بما لا يعرفون مما علمه

الواهب، وكان يعلم أسماء الأشياء، ويمشي على قدمين.

وامتلأ «عزازيل» غيظاً، وأكله الحسد من «آدم». وأنت تعلم أن الحسد ينبع من عدم الرضى بما عندك مع الطمع فيما عند الآخرين، فترغب بشدة أن تنال ما عند الآخرين، وأن يزول ما عندهم فلا يبقى! وقد علم الواهب بما يدور في قلب «عزازيل»، فأراد أن يظهر حقيقته لسكان السماء، ففي يوم الجمع الكبير للنورانيين كان الاختبار لابن النار، حين احتشد أهل السماء حول ابن الصلصال، الذي علمه الواهب أسماء الأشياء والمعارف والعلوم والأجناس والمخلوقات والأدوات، وحين اختبر الواهب النورانيين سلموا بعدم علمهم إلا ما علمهم إياه الواهب، وحينها أمر واهب الآلاء ابن الصلصال أن يريهم ما علمه إياه من أسماء فسماها لهم كلها، وعندها أكبره النورانيون وعلموا أنه الخليفة المرتقب للأرض.

وحين أمرهم الواهب أن يسجدوا سجود الاحترام لابن الصلصال فعلوا طواعية دون اعتراض، فقد جبلوا على الطاعة، ولكن ابن النار عاد إلى أصله المتمرد، وأوهمه حسده الذي صنعه في نفسه أنه أحق بهذا السجود من ابن الصلصال، فقد كان يريد أن يكون هو محل التقدير والاحترام فأصر على العناد، وأبى أن يسجد، وقارن بين أصله الناري وأصل ابن الصلصال الترابي. فوجد أن النار أشرف من الطين والصلصال، فأخرج ما في قلبه وصرح به. وحينئذ استحق أن يطرد من هذا الجمع، وأن تحل عليه لعنة أهل السماء،

وأن يعاد إلى مكانه القديم الذي جيء به منه، فأهبط إلى الأرض.

كان غاضباً فقد ملأ قلب نفسه بالحسد والحقد، وكان مصمماً أن ينتصر في جميع معاركه ضد ابن الصلصال الذي كان سبباً في ما حدث له من إذلال ولعنة. وحين هبط إلى الأرض تبعته اللعنة فأعمته عن حقيقة نفسه، فأراد أن يكون له على الأرض مثل ما لواهب الآلاء في السماء، فصنع عرشاً فوق الماء، وجلس عليه، وأمر أبناءه أن يسجدوا له، حتى يرضي في نفسه الغرور بأنه أفضل من ابن الصلصال، وأنه هو وحده المستحق للسجود.

قرر «عزازيل» أن يتمرد على كل شيء، وأن يستغل القوة التي منحها إياه الواهب، فيسخرها للتعطيل والتشويه والإفساد، ويجعلها تجحد الخير فتحوله عن مواضعه، وتقف في طريق الكمال، وتجعل الزائف مساوياً للصحيح، وتخرج عن أوامر الواهب، وتشوه الخلق وتنتقصه، وتستر محاسنه وتبدي عيوبه وعوراته، وتحول دون رضوان الواهب على مخلوقاته. وهذا هو عين الجنون، ولكن حين يكون بملء إرادتك تكون مسئولاً عن أعمالك، ونتيجة أفعالك، ومن يقلدك يشترك معك في التبعة والمسئولية.

ولما كان ذاتي الانقسام فقد اتخذ لنفسه نسلاً ملأ الآفاق، وكل واحد منهم نسخة طبق الأصل عن أبيه، أو قل إن طيفه قد حل فيهم جميعاً في الوقت نفسه فصار قريناً لكل مولود من بني الصلصال يرافقه حتى

الموت فيأمره بالشر وينهاه عن الخير. «عزازيل» جعل الغاية من حياته هي الانتقام من بني الصلصال، وجعل نسله قرناء لهم فقد انحاز الواهب إلى بني الصلصال وقضى أن يكونوا هم الأصل وأن يكون بنو النار بالتبع لهم. ومثلما منح الواهب العقل وحرية الإرادة والاختيار لبني الصلصال فقد منحها لبني النار.

حياة أبناء «عزازيل» مليئة بالخوف والتوجس من أبيهم، فهو يمارس سلطة مطلقة على عالمه وسطوته بلا حدود. وهو يعلم أنه لن يموت أبداً ما دام بنو الصلصال على الأرض وأن الزمان ممتد به حتى حين، فأوهم أبناءه وأولاده أنه إله على الأرض، لأنه خالد على مدار الأزمان والعصور، وأمرهم بعبادته والسجود له سجود العبادة، الذي خص واهب الآلاء نفسه به، فأطاعه جمع كبير منهم حين صدقوه. ووظف قدرات أتباعه من الأطياف لتحقيق أهدافه ومراميه. وهو يعلم أن قدرات هذه الأطياف لا تنبع من كونها تعلمت ما لم يتعلمه بنو الصلصال، أو لكونها تملك عقولاً أكبر من عقولهم، أو أنها أصلح منهم للفهم والتفكير، بل لأن تلك القدرات تأتيها من عالم الأسرار الذي تعيش فيه، فهي تسخر القوى الطبيعية والخفية لأنها تعيش بين أسرارها وتُحسَبُ منها أو في حكمها، فهي مطلعة على الدقائق والخفايا التي لا يتسلل إليها حس ابن الصلصال ولا يتجه نحوها عقله إلا لماماً كما أنها لا تحدها حدود ولا يردعها رادع ولا يمنعها مانع فهي متحررة من كل التزام.

قدرات هذه الأطياف تكمن في اطلاعها على أسرار الفنون والصناعات،

ومهارتها في أعمال بناء الصروح وتشييد القصور ورفع الصخور وحمل الأثقال، وإتقان الأعمال والحرف، والطيران في الفضاء لاستراق السمع وجلب الأشياء والغوص في البحار واستخراج الدفائن والكنوز، وقدرتها على القيام بما تنوء بحمله كواهل بني الصلصال. وقدرتها على الدخول في ثنايا وخفايا العقول والوسوسة بالأوهام، فتلقي للشعراء بالشعر وللفنانين بالجديد من الفنون. ألا ترى أن معظم هؤلاء الفنانين كأن بهم مساً من الجنون أو ضرباً من أنواع الخبال؟ السر في ذلك كونهم يتخاطبون مع الأطياف الخفية، ويفقهون رموزها وإشاراتها وكلامها ووحيها وأسرارها، شعروا بذلك أو لم يشعروا. وهي تستغل ذلك فيهم فتسخرهم لمآربها.

تسمى أبي بأسماء كثيرة بعد نزوله إلى الأرض. وذلك على تغير الحضارات ومر العصور وسير الدهور، فقد راج بين أهل الأرض باسمه المشهور «الشيطان» كناية عن الصفة الجهنمية التي تدل على الخبث والبراعة وحب الأذى والتمتع به، وكناية عن الضلال والبعد والتلهب والاحتراق والشر. كما تسمى باسم «إبليس» للدلالة على الدس والفتنة والدهاء والسعي بالفساد والوقيعة بين الناس والإبلاس واليأس وفقد الرجاء وضياع الأمل، لكنه لم ينس أن يحتفظ لنفسه دائماً باسمه الذي يعجبه وهو«عزازيل» إله الخراب ورب القفار.

دعنا نكف الآن ولو قليلاً، عن الحديث عن «عزازيل». ورغم أنه كان أبي وهو الذي أسهم في تدمير حياة أمي (فريجا) وحياتي بعد ذلك إلا أنني لا أريده أن يستحوذ على كل القصص والحكايات. وسوف أعود فأحكي لك عنه فيما بعد، ولكنني أرى الآن أنه من حقك عليَّ هنا أن أحدثك عن طفولتي وبعض مغامراتي في الزمان القديم. لا سيما مع رفيقي الوحيد «أشتوت» الذي أخرجني من عزلتي لمدة وجيزة ثم عدت بعدها للوحدة المجيدة. وسوف أتنقل بك في الأزمنة بلا ترتيب حسبما يطوف به خيالي أو تسعفني ذاكرتي فهيا بنا.

(3)
أطياف الطفولة

أتمنى لو تنقلب عجلة الأيام على أعقابها لأعود طفلاً يعيش حياة أخرى في نجم بعيد في الطرف الآخر للكون، في تاريخ سحيق، يتقمص شخصية جديدة في كل دورة من دورات الحياة كيفما يريد. يطير بخياله الحر حيث يشاء، ويحلق في المكان بأجنحة الزمان. أتمنى أن يكون كل شيء من حولي ناطقاً في ذلك المكان السحري، الماء والأسماك، والأحجار والأشجار والحيوانات والأزهار والفراشات الملونة. تكلمني فأستمع إليها وتروي لي أسرار فرحها الدائم وأشاركها بهجة الحياة وأكلمها فأبثها نجواي وآمالي، وأحكي لها عن أفراحي وأحلامي وأسراري. تغرد الطيور من فوقي وتتراقص الأسماك في الماء فرحة بي، وتحنو الأغصان فتميد تجاهي جذلانة حين أستظل بظلها. أتمنى أن تكون حياتي طفولة بلا نهاية، لا ينتهي فيها المرح ولا تشيخ الأفكار ولا تموت. أتمنى أن أعيش حياتي كلها بقلب طفل بريء، يرى عالم الأحلام حقيقة وتتحول الحقيقة عنده إلى حلم جميل. أتمنى أن تستمر أفكاري المجنونة هذه ما دمت حياً لأنني يوم أفيق منها تتوقف عجلة الحياة في روحي، فرغم أنني قد كبرت في السن إلا أنني ما زلت أعيش بقلب طفل صغير، وهذا هو ما يبقيني متشبثاً بالحياة. أنا أحيا من أجل طفولتي الممتدة في الزمان. فقد عشت طفولة متمردة مجنونة حاولت أن أعوض فيها فقد الأم قدر ما استطعت. الأطفال حتى لو كانوا أطيافاً فإنهم

يحتاجون الأم.

في طفولتي كنت شقياً، أتنقل بين الكهوف في الأرض أطير إليها لأتعلق من ذيلي وقدمى متدلياً من سقوفها كما تفعل الخفافيش حتى أرى الأشياء بالمقلوب. أحب الأماكن إلي قلبي كانت وما تزال هي الكهوف المنتشرة في منطقة «عُمان» الحالية لكونها كهوفاً ضخمة يجتمع فيها بنو قومي، والإنس يخشونها ولا يقتربون منها، وكنت أزورها كثيراً لألعب فيها وأنا صغير. لا سيما ذلك الكهف الذي يقع في سفح جبال الحِجْر الشرقية عند هضبة «سلمى»، وهو كهف ضخم له ثلاثة مداخل صغيرة عمق الفتحة منها في باطن الأرض مائة وعشرون متراً أو يزيد، ظل قومي يجتمعون فيه منذ أكثر من خمسين مليوناً من السنين. كنت أطوف كثيراً من الكهوف المجهولة في تلك المنطقة، والتي لم يعرفها بنو الصلصال إلا مؤخراً. وفيها التقيت بأصحابي من الصبية أقراني آنذاك للمرة الأولى، نجتمع لنتسابق ونغوص في الآبار العميقة مثل (بئر سام بن نوح) «بصنعاء»، و(بئر ميمون) «بمكة»، و(بئر برهوت) «بحضرموت» وذلك بعد أن نشأت في مرتفعات «بابل» بالعراق، حيث رأيت أصول السحر الحقيقي، ثم انتقلت إلى «بيت أتوم» و«أبيدوس» وقرى «أخميم» ومدافن الفراعنة بمصر، وأخيراً خرائب «سواجن» وأرض السحر ببلاد السودان.

بئر (برهوت) «بحضرموت» هي أكثر الآبار إثارة فهي بئر عميقة تسكن الأطياف في قعرها، وسعة فتحتها أكثر من مائة متر، وعمقها يزيد

عن ألفين وخمسمائة متر، ولا يستطيع البشر النزول إليها، ولا النظر الى داخلها، وتتقمص أطياف سكانها هيئات الحمائم البيضاء والأفاعي، وتحرسها روح هائمة اسمها «دومة». ومياه البئر سوداء منتنة الرائحة تصدر منها أصوات الخرير والهدير حتى وهي ساكنة. هذه البئر حفرها بنو النار لأحد ملوك حمير في القديم، وكانت له سلطة على قومي فأمرهم أن يبنوا مدينة من مدنهم في أعماقها، وكان يلقي بأعدائه في جوفها. ولما مات ذلك الملك الحميري بقي قومي يسكنونها. هذه البئر من أحب الأماكن إلى نفسي حيث تسكنها الأرواح المعذبة التي كنا ونحن صغار نرتعد حين نسمع أصواتها وهي تبكي وتنوح. ولكن ذلك النواح والعويل لا يمنعنا أن نسبح عراة في تلك البئر ثم نطير فنستبق إلى «جبل خنوقة». زملائي وأقراني يحبون اللعب مع صبية بني الشنقناق وبني الشيصبان، إلا أنني مفتون باللعب مع صبية وادي عبقر. وهو وادي الغرائب والعجائب الذي يقع في جبال الحجاز، وربما أحكي لك عنه في إحدى المرات.

صديقي الوحيد أيام طفولتي اسمه «أشتوت»، وهو من سفهاء بني النار وصعاليكهم منذ طفولته، يصيح ويرفع صوته في الخلاء والأودية ليخيف ضعاف النفوس بصوت مسموع وجسم غير مرئي؛ وسكان الصحراء يعوذون بسيد كل وادٍ من سفهاء قومه، وخاصة من «أشتوت» الذي هو أكثر هؤلاء السفهاء حضوراً فهو مصدر إزعاج للجميع. غير أنه صديقي الوحيد. ورغم ذلك فهو يخاف مني ويخشاني. حين قابلني أول مرة وشم رائحتي التي تشبه رائحة أبي هرب مثل الجبان، وبما أنني أسرع طيار فقد لحقته وركبت فوق

رأسه وأجبرته على الهبوط. وحين هبط إلى الأرض كادت عيناه الزائغتان تخرجان من محجريهما من الخوف فقد ظن أنني «عزازيل» الرهيب قد تمثل له في طيف صبي، وذلك لكونه لم ير أحداً من قبل يطير بهذه السرعة، ولكنني حين أقنعته أنني طيف صغير مثله واطمأن لكلامي ألقى بي من فوق رأسه وظل يضحك حتى وقع على قفاه. ومن يومها أصبحت لنا معاً مغامرات لا تعد ولا تحصى قبل أن أفارقه.

●●●●

اشتركنا - أنا و«أشتوت» - في أفعال مخجلة استمتعنا بها. بنو قومي كانوا يروننا دائماً معاً نطير ونسرق ونخطف ونلهو كثيراً. وشهدنا معاً الأحداث الكبيرة والحروب وزوال الممالك وخراب المدن وهلاك الأمم، وخاصة في بابل وما حولها، فقد قضيت طفولتي كلها في المنطقة التي تعرف الآن بمحافظة بابل في وسط العراق جنوب العاصمة بغداد فأنا أنتمي بحكم طفولتي إلى منطقة «الحلة» التي تقع على مسافة عشرة كيلومترات جنوب مدينة بابل القديمة في العراق، وهي تقع على الضفة اليمنى من «نهر الفرات» وكانت غابة مليئة بالحيوانات والوحوش قي ذلك الزمان القديم. وكنت ألعب أحياناً مع الصبية من أقراني في ناحية «الكفل» و ناحية «أبي غرق».

كانت لي علاقات محدودة مع بني الصلصال في طفولتي، فقد كنت

أختلف إلى المرأة التي كنت أرضع من ثديها، وأنا صغير. كنت أزورها كثيراً في أطراف مدينة «الحلة» حتى ماتت فقد كانت بمثابة أمي. وحين ماتت بكيت عليها ونُحْتُ ولطمت. كنت أنوح حين يخلو المكان من أطياف قومي، وأتجلد حين أحس بحضورهم. وما كان بنو قومي يجرؤون على الاقتراب مني حتى وأنا في أضعف أحوالي. وبذا فقد عشت طفولة منعزلة وحيدة بائسة. تعرفت على كثير من بني الصلصال فيما بعد، ولكن معظم الذين تعرفت إليهم كانوا من أسوأ أصناف البشر، فقد كانوا ممتلئين بالشر عن طريق أعوان أبي. وسأحكي لك بعضاً من مشاهداتي لأفعالهم وتجاربي معهم.

كنت أطير في صحراء الحجاز ونجد وصحراء الربع الخالي، ومعي «أشتوت»، نخيف المسافرين ونفزع إبلهم ونروع نساءهم. واستمرت أعمالنا هذه حتى بعد أن كبرنا فأذكر أنني في مرة، حين عاودني الحنين إلى ما كنا نفعل في العهود السحيقة طرت في وادٍ بين نجد وتهامة فوجدت شاباً يسير على غير هدى فزينت له الهوى حتى وقع في حب صبية من بني قومه وأصبح يهيم في الخلاء والصحراء.

وكنت قبل ذلك بعهود قليلة أتبع أحدهم، وكان يتوه عن دربه فأدله على الطريق، حتى أصبح من أعرف الناس بدروب الصحراء، وربما أحمله على الريح فتجري به، حتى اشتهر بين الناس بأنه أسرع بني البشر عدواً في الصحارى. وكنت أظهر له في صور الذئاب والضباع وبنات آوى وابن عرف، وكان يستأنس بوجودي إلى جانبه، وكان يعتبرني أهله وقومه

ويميل إلى طيفي دون غيري، ولعبت بكثير من أمثاله فجعلتهم يهيمون في الصحاري، ويسابقون النعام والغزلان ويعيشون في البراري وبطون الأودية، وكانت الصبايا من البنات يظهرن لهم في صور الغيلان والسعالي، ويوقدن لهم النيران بالليل، ويتغنين لهم بالألحان، ويظهرن لهم في صور عرائس غير أنهم كانوا ينظرون فيجدون أن لهن سيقاناً مثل سيقان الغنم فكانت الصبايا يسخرن منهم.

صاحبي «أشتوت» طيف غريب الهيئة فنصفه الأيمن على شكل إنسي بينما ظل نصفه الأيسر باقياً على أصله، ولهذا سمي «أشتوت» أي ذا الهيئة الغريبة بلغة الأطياف، وهو سفاح لا يتورع من إراقة الدماء. وتعجبه صورة بني الصلصال وهم يتألمون ويحتضرون بعد أن يقوم بسفك دمائهم.

ورغم أن «أشتوت» سفاك دماء، إلا أنني كلما أتذكر صورته التي يظهر بها لبني الصلصال أكاد أقع على قفاى من الضحك، فهو يحب أن يتشكل في الهيئة التي أصبح عليها أبي «عزازيل» بعد أن وقعت عليه اللعنة ومسخت هيئته. «أشتوت» يظهر في هيئة جسد كبير جداً حتى أن رأسه يمتد طويلاً ويكاد يغيب بعيداً في السماء ويظهر بجلد سميك يشبه جلد وحيد القرن وفي جلده قشور تشبه قشر السمك ووجه طويل ينتهي بلحية طويلة مدببة تمتد حتى أسفل بطنه ويخرج من فمه نابان طويلان وفمه يشبه فم الخنزير، وعيناه مائلتان إلى أعلى وكأنهما جمرتان متقدتان من

النار وعند نهاية حاجبيه من أعلى قرنان آخران طويلان جدا. وبين حاجبيه قرن ثالث أصغر يبرز الى الأمام.

●●●●

صحبت «أشتوت» بعد أن قبض عليه أبي «عزازيل» وصيره من أعوانه وبعثه إلى الموضع الذي كان فيه هاروت وماروت فتعلم أصول السحر مدة من الزمان ثم أصبح مندوباً لأبي يأخذ له العقود والمواثيق من السحرة الجدد، وصار يجد متعة كبيرة في القيام بهذه الأعمال ويشغل نفسه بها متنقلاً بين القرى والبلدان يشهد حفلات التعميد ويمتع نفسه بمناظر السحرة المرشحين وهم يتوسلون إليه للحضور وتوقيع العقود معهم. ومن خلال «أشتوت» تعرفت على عالم السحر والسحرة الغريب المعقد.

عرفت من «أشتوت» أن السحر نوعان: سحر الوهم والخداع الذي يقوم على الحيل والشعوذة والكذب، وهذا النوع يستطيع كثير من بني الصلصال أن يقوموا به بالتدريب والمران وخفة اليد، وهناك السحر الحقيقي الأسود، وهو علم يختص به أبي وحده، ولا يمنحه إلا لمن أصبح تابعاً مخلصاً له دون غيره. ولا يتم السحر الحقيقي إلا بمساعدة محضة من أبي أو أعوانه. وهو ليس خدمة مجانية ما لم يلتزم بنو الصلصال بالمقابل بتقديم خدمات لأبي طيلة حياة الساحر ولا تنتهي هذه الخدمات إلا عند موت الساحر.

●●●●

لقد شهدت خلال رحلاتي مع «أشتوت» كثيراً من السحرة المتخصصين في رياضة الأطياف حين كانوا يأتون لتوقيع العقد مع «أشتوت» مندوب أبي، ورأيت أن جميع هؤلاء السحرة على مدار الأزمنة والدهور هم أمساخ عزلتهم الحياة حين فشلوا في مجاراة مطالبها وفشلوا في عالمهم فلجأوا إلى عالم بني النار المتسم بالغموض والخفاء والعلاقات الغامضة لكون هذا الغموض يوقع في نفوس غيرهم التوجس والتساؤل والريب فيما وراء الظواهر والمألوفات، فاتخذوا من الغموض قوة لهم، ومن توجس الناس أداة يسلطونها على رقابهم. ورأيت أن معظم هؤلاء السحرة هم إما شخص دميم الخلقة لا يطمح في الحصول على امرأة يتزوجها، أو أنه لقيط تبرأ منه مجتمعه فامتلأ بالمرارة وتحول إلى السحر لينتقم من قومه، أو رجلاً متأنثاً بطبعه لا يصلح للزواج فيلبس لباس النساء مدى الحياة، أو امرأة دميمة بائسة لم تنل حظها من زواج، ولا مكانة لها في مجتمعها. وبالجملة فلا يوجد ساحر سوي الشخصية متوازن النفس أبداً. يبدو لك الساحر في أول أمره قوياً سليماً ولكنك تكتشف أنه مسخ مشوه سريع الإنفعال والتأثر وذلك لضعف نفسه فيستغله أبي، وهو يساعده على ذلك بعزلته في الأماكن الخربة، أو صومه عن بعض الأطعمة، واستيحاشه من بني جلدته، حتى تحيطه الأوهام، وتلعب به الخيالات، فيطرقه طيف أبي في منامه ويهدده بالموت، حتى يصل مرحلة يملكه فيها أحد أطياف أبي فيتصرف به وفق

هواه، ويتخيل الناس من حوله أنه أصبح ملهماً مكشوفاً عنه الحجاب، بينما هو في حقيقة أمره قد تحول إلى كاهن يعبد طيف أبي ويستجلب رضاه ليعينه في المآرب التي يختارها مثل إلحاق الضرر ببعض الأعداء أو تنفيذ رغبات شريرة وهوى خبيث للبعض الآخر. ويعمد الساحر للوسائل الخبيثة حتى تحل به الأطياف المتخصصة في الأذى والضرر والتي تعودت على النكاية والنقمة فتعينه وتعمل له وهو يؤدي لها الأجر ويتقرب إليها بمراسم العبادة والأعمال الخفية التي ترضيها. معظم السحرة مشوهون أو مصابون بالآفات وهم لا يصلحون للحياة العادية وكأنما السحر عندهم هو تعويض عن نصيبهم المفقود في الحياة. الساحر يؤمن بقوة الطلاسم وقوة أرواح وأطياف أبي ويظل عمره كله منقاداً إليها واقعاً تحت تأثيرها حتى تهلكه.

الذين يريدون الدخول في هذا المجال يبدأون مسيرتهم التعسة بالتعلم على يد ساحر ذي خبرة يعلمهم مطالعة كتب السحر، ويروضهم بالأعمال التي تهيئهم لمقابلة «أشتوت» مندوب أبي وتوقيع العقد معه. وكان «أشتوت» يتبع مع السحرة طرقاً غريبة حتى يتأكد من ولائهم المطلق لأبي وحده وهو يتبع طريقة مختلفة في كل منطقة أو مدينة أو قرية وله طرق كثيرة جداً.

دعاني «أشتوت» مرة لمرافقته وتعلم طرائقه فاصطحبني لمراقبة ساحر مرشح للتعميد، اسمه «نمكور» ، فَكَمَنَّا له - أنا و«أشتوت» - أمام كوخه بضع ليال حتى علمنا أنه لقيط عاش عمره كله وحيداً في كوخه هذا على أطراف قرية من قرى بابل، وكان منبوذاً من الناس، وأهل القرية يجتنبونه ولا يخالطونه، وحين كان صبياً كانوا يمنعون أبناءهم من اللعب أو حتى مجرد الكلام معه. فنشأ وقلبه يقطر حقداً على أهل القرية عامة وعلى أقرانه خاصة.

تبعناه وهو يغادر كوخه في ليلة مقمرة مبتعداً عن البيوت والناس والعمران عند انتصاف الليل، ثم توجه إلى أحد الأماكن المهجورة الواقعة في منطقة خربة موحشة مقفرة، وعندما وصلها خلع ملابسه كلها حتى أصبح عارياً كما ولدته أمه، ثم رسم دائرة كبيرة ونقش نقوشاً داخلها وخارجها ورسم في محيطها طلاسم مما تعلمه من كتاب «أشتوت» تلميذ أبي، ثم نقش أسماء الأطياف التي كان يريدها أن تعينه ليستدعيها بتلك الأسماء، وضحكت حين رأيت أنه كتب اسم رفيقي «أشتوت». ثم أوقد شمعتين مسروقتين ووضعهما في إناء فضي بعد أن لوثه بالبراز وشوه إطاره وصفحته من الخارج ثم وضعه وسط تلك الدائرة، ووضع بداخله بعضاً من بذور الحرمل والنتِّين واللبِّين التي هي ثمرة العشر وهي بذور سامة كريهة الرائحة، ثم بدأ يغني رافعاً صوته وهو ينحني ويقفز مثل القرد داخل تلك الدائرة وهو قابض على الشمعتين بكلتا يديه، وينشد أناشيد الأطياف و

يتلو التعويذات والطلاسم التي كان قد قرأها قبل ذلك وحفظها عن ظهر قلب، واستمر في هذا حتى بلغ به التعب غايته فجلس القرفصاء داخل تلك الدائرة وهو يقرأ ويتلو تلك التعاويذ وينشد الطلاسم ويلوح في الفضاء بالعقد المكتوب ويقرأ نصوصه ويجتهد ويلح ويكثر من القفز والقراءة مظهراً الخضوع والذلة والمهانة.

كنا في تلك الأثناء نراقبه ونسخر من حرصه واجتهاده وإتقانه لدوره ولكن «أشتوت» لم يتأكد بعد أن «نمكور» جاد حقيقة في اتباع أبي والخضوع له، فبقينا نسمر ونراقبه ونسخر منه. وانقضت الليلة ولم يظهر له«أشتوت» فرجع إلى كوخه كئيباً محزوناً.

وفي الليلة التالية عاد «نمكور» ليؤدي نفس الطقوس التي أداها في الليلة السابقة، ولكنه في هذه المرة اصطحب معه جدياً وديكاً وضفدعاً وبعض الحيوانات التي نص عليها كتاب «أشتوت»، فخلع ثيابه وجلس عارياً ثم بدأ يذبح تلك الحيوانات بترتيبها المذكور في الكتاب وهو يتلو الطلاسم أثناء الذبح وكان يحرص أن تتدفق دماء الذبح في إناء قذر جلبه معه، ثم صب تلك الدماء في زجاجة متسخة وألقى بها في الخلاء وألقى معها الجدي الذي كان قد ذبحه قرباناً لأبي، ثم أخذ يستعطف ويلح في طلب عبادة أبي ليظهر له «أشتوت» فيستلم منه العقد ويحدد له ليلة التعميد. ولكن «أشتوت» كان عنيداً فأراد أن يستوثق لأبي من إخلاص هذا الساحر الكئيب

فلم يظهر له تلك الليلة.

ولم ينم «نمكور» في فراشه فقد بات سهراناً قلقاً يتأوه ويتأفف حتى طلوع الفجر فعمد قبل شروق الشمس إلى الغابة المجاورة واختار شجرة عقيمة لا تثمر نباتاً فقطع منها غصناً بمبراة جديدة لم يسبق استعمالها من قبل وعاد به إلى كوخه ومعه حجر صغير ثم خلع ملابسه جميعها ورسم مثلثاً متساوي الساقين ووضع شمعة سوداء على كل زاوية من زوايا قاعدة المثلث واستمر في بقية الطقوس رجاء أن يسمع صوت «أشتوت» أو يراه. واستمر يكرر ما فعله في هذا اليوم حتى إذا انتصف ليل اليوم الثالث ظهر له «أشتوت» واستلم العقد منه ثم أمره بمقابلة «قَاتِشْ نِيْسَابَا» رئيس سحرة تلك المنطقة ثم اختفى بسرعة وسط اضطراب «نمكور» وخوفه وتوجسه. وفي صباح اليوم التالي لاستلام العقد توجه «نمكور» لمقابلة «قَاتِشْ نِيْسَابَا» رئيس السحرة والساحرات كما أمره «أشتوت» فوجدهما في انتظاره وحددا له ليلة ومكان احتفال التعميد وأمليا عليه النصائح والتعليمات الواجب مراعاتها حرفياً ليلة التعميد.

حين رأيت «أشتوت» في ذلك اليوم وعدني بليلة ممتعة لن أنساها ما حييت، وكان جذلاناً طول النهار ينتظر هبوط الظلام. وما أن ألقت الشمس

عصا الترحال واحتجبت وراء التلال حتى طرنا نحو المعبد القديم المهجور في أعلى التلة لنشهد أحداث التعميد منذ بدايتها وهناك تعلقنا من أقدامنا فوق قمة تمثال قديم لامرأة عارية ممتلئة الجسد يشبه تمثال (عشتار) إلهة الجنس والشهوة عند البابليين، وبقينا نشهد تقاطر السحرة المراد تعميدهم من رجال ونساء.

النسوة المرشحات ليكن ساحرات حضرن للحفل وقد وضعن العطور والبخور، وكشفن البطون والنحور وأظهرن الأعجاز والصدور، ولبسن ما يستطعن من ملابس تكشف كل مستور، ووضعن ما قدرن عليه من زينة استعداداً لهذا الحفل وهن يعلمن أن هذه هي آخر مرة تبتل فيها أجسادهن بالماء أو يمسها الصابون ومساحيق الزينة أو العطور. ورغم ما وضعن من زينة إلا أنه لم يبد على أي منهن مسحة من جمال أو حسن بل ازددن قبحاً في أعين الناظرين فقد كن أصلاً من المومسات أو العوانس المنسيات أو المشوهات ذوات الخلقة الدميمة ممن لا يشتهي الرجال مثلهن ولا يطمعن في صلاح الحال.

كان على كل ساحرة أو ساحر مراد تعميده أن يحضر معه كتابه الذي يقدسه أهل دينه وملته، فكنا نراهم وقد حملوها وكأنهم تلاميذ مدرسة يسارعون لتلقي الدرس الأول. وكان «قَاتِشْ نِيْسَابَا» رئيس السحرة واقفاً عند الباب ليتأكد من التزام الجميع بإحضار كتابه. وكان كل داخل للمعبد

يبدأ بخلع ثيابه ويقف عارياً كما ولدته أمه ثم يرسم حول نفسه دائرة سحرية باللون الذي ينص عليه كتاب «أشتوت» الذي يملكه «قَاتِشْ نِيْسَابَا» وهو كتاب تعليم السحر المكتوب بالدم النجس وغلافه أسود مصنوع من جلود الموتى.

وبعد أن قام السحرة برسم الدوائر السحرية وكتبوا داخلها وحولها النقوش والرموز والطلاسم لاستدعاء أبي وجنوده وأعوانه من الأطياف، شرعوا في الغناء والإنشاد والتراتيل والإلحاح والاستعطاف. واختلطت أصواتهم حتى أنك لا تكاد تفهم منها كلمة واحدة.

أضواء المعبد خافتة، وزيت الإضاءة المحترق يصحبه دخان أسود كريه الرائحة، يختلط بروائح السحرة الممتلئين حماساً وترقباً لما سوف يحدث و«قَاتِشْ نِيْسَابَا» يروح ويجيء في عصبية ظاهرة وهو يتلو التمتمات والطلاسم وعيناه شاخصتان نحو تمثال عشتار العارية حيث كنا نجلس. وكان يشعر بوجودنا ولا يرانا.

وحين تأكد «أشتوت» من استعداد الجميع للاحتفال أظهر طيفه لهم فجأة في شكل مخلوق أسطوري نصفه إنسان أعور مشوه الخلقة ونصفه الآخر حمار أسود دميم قبيح، فضجت أرجاء المعبد بالفرح الممزوج بالدهشة واندفعوا نحوه وتنافسوا على تقبيل قدمه اليسرى وحافره الأيمن، ولكنه كان

شاخصاً ببصره للأعلى في ازدراء ولم يبد أي اهتمام بما كانوا يفعلونه من تقبيل واحترام.

ثم أشار بأصبعه لـ«قَاتِشْ نِيْسَابَا» رئيس السحرة الذي سرعان ما بدأ في تقديم السحرة المرشحين واحداً تلو الآخر لإجراء تعميدهم، فكان الواحد منهم يتقدم عارياً وهو حامل قطعة من القربان الذي ذبحه فيبصق عليها ويدوسها بقدميه، ثم يمزق كتابه السماوي الذي كان قد أحضره للحفل كما أمره «قَاتِشْ نِيْسَابَا» فيلقيه على الأرض ثم يلبس نعليه ليطأ بهما كتابه، رمزاً للخروج عن طاعته لهذا الكتاب وتمهيداً لالتزامه بطاعة أبي. وهنا أتى «قَاتِشْ نِيْسَابَا» بغلام صغير كان قد اختطفه من أهله قبل ليلة التعميد ليقدمه قرباناً لأبي في هذه الليلة فوضع الطفل المسكين بين يدي «أشتوت» وذبحه دون شفقة أو رحمة وذكر عليه اسم أبي وسط تهليل واستحسان السحرة ثم لوث بدماء الطفل عورته وعورة «أشتوت» وعورات بقية السحرة من الرجال والنساء حتى إذا نزفت دماء الطفل جميعها ألقى به في وعاء كبير جداً ليستوي مع باقي المأكولات التي أتى بها السحرة لالتهامها في هذه الليلة المشئومة.

ثم أخذ كل ساحر يكرر ولاءه لسيده وثباته على إخلاصه والإلتزام بكل ما ورد في العقد من شروط. وبعد ذلك بدأ «أشتوت» في اختبار قوة احتمال كل ساحر وصدق عزيمته ونواياه نحو أبي فيأمره بالسخرية من كل

دين سماوي وسبه وشتمه علناً على الملأ. ولا بد أن يطيع الساحر الأمر فوراً ودون تردد، وإلا قتله «أشتوت» على الفور.

كان «أشتوت» يأمر كل ساحرة وساحر بالركوع أمامه، وبعد أن يرضى عن ذلك الركوع والخضوع يأمر الساحر بالسجود لأبي سجود العبادة. وفور أن يسجد الساحر ويرضى عنه «أشتوت» يركله بحافره على رأسه أو وجهه ركلة تسيل منها دماؤه وتختلط بالتراب ثم يأمر الساحر أن يمسح وجهه بهذا التراب الملوث بالدماء إظهاراً للمزيد من الخضوع والاستكانة، ثم يرمي في وجهه بذلك العقد القذر ليوقع عليه بالدماء السائلة من وجهه فيطيع الساحر الأمر صاغراً، ويوقع على العقد ويعيده لأشتوت الذي يستلمه منه بكل ازدراء ثم يبصق على الساحر بصقة نارية تشتعل لتصبح علامة ظاهرة بحجم القطعة النقدية ذات اللون الأسود الباهت، والتي تتحول فوراً إلى علامة بارزة ميتة، حتى أنك إن غرست فيها دبوساً محمى بالنار فإنها لا تدمى ولا يشعر الساحر بألم لوخزة الدبوس، وإن كانت الساحرة التي يجري تعميدها أنثى يبصق «أشتوت» بين فخذيها فتلهب شهوتها تجاه أي رجل تقابله وذلك بقية عمرها. ومثلما تصبح متعطشة للرجال تكون بعد هذه البصقة متعطشة للدماء فيمكنها ببساطة أن تقتل كل من يعارضها ولا ينفذ أوامرها، وغالباً ما تقوم بقتل ضحاياها بواسطة سموم لا تظهر معها أي أعراض.

وبعد ما انتهى «أشتوت» من تعميد جميع السحرة والساحرات

ودمغهم بدمغة السحر أطلق عليهم أسماء جديدة يعرفون بها وسط مجتمع السحرة وأمر بتقييد تلك الأسماء في سجل سحرة تلك البلاد.

استدعى «أشتوت» أعوانه فحضروا فوراً على هيئات مختلفة لحيوانات مفترسة كريهة الرائحة يتطاير الشرر من أعينها فجعلت تتبول وتتبرز على هؤلاء السحرة وأخذ السحرة يدهنون أجسادهم بذلك البول والبراز ويظهرون ابتهاجهم فيصفقون ويطربون. وكانوا يصفعون بعضهم بعضاً على أقفيتهم ويتراكلون في البطون مثلما يفعل أي مخبول أو مأفون ضاع عقله وغاب رشده وفارقه وعيه. لقد كان واضحاً أن فطرة هؤلاء السحرة قد مسخت وأن طبائعهم قد تغيرت إلى الأبد فالسحر طريق ذو اتجاه واحد متى دخلته فلا يمكنك العودة أو العدول عنه أبداً وعندها لن تملك أمر نفسك بل يملكك السحر وتكون عبداً لأبي ما حييت.

ثم حان وقت انصراف «أشتوت» وهو يتأبط العقود التي وقع عليها السحرة الجدد أمامه فبدأ يكيل لكل منهم ركلة في القفا ثم طار وغاب في الظلام ليقدم تقريره «لعزازيل» عن تلك الليلة.

وبعد أن غاب «أشتوت» سمح لهم كبير السحرة بالاحتفال، وسرعان ما دارت الكؤوس وفاحت رائحة الخمر في المعبد فأفرغوا برميلاً كبيراً من الخمر وتجرعوه حتى آخر قطرة منه وظل السحرة والأطياف يأكلون

ويشربون ويسكرون ويمارسون الرذيلة بين الرجال والنساء طوال الليل وحتى قبيل الفجر بقليل.

وعند الفجر ارتدى الجميع ملابسهم وانصرفوا عائدين إلى ديارهم والخمر قد أدارت رؤوسهم وهم يتضاحكون فقد أصبح كل واحد منهم ساحراً حقيقياً يمكنه أن يقوم بخدمة أبي وإطاعة أوامره وإلحاق الأذى والضرر بأكبر عدد ممكن من الناس.

وفي صباح اليوم التالي بدأ كل ساحر و ساحرة الاستعداد لحياته الجديدة بتفصيل ملابس السحرة ذات الرموز والأشكال الخاصة، وجلب معدات وأدوات السحر كما تفرضها قوانين ولوائح السحرة. كان كل ساحر قد احتفظ بصورة من العقد المبرم بينه وبين أبي والذي يحمل توقيعه، فيخبئه في مخبأ سري لا يطلع عليه أحد البتة و يحافظ عليه محافظته على حياته، فالعقد المبرم بين الساحر وأبي هو عقد حقيقي لإثبات بيع الساحر روحه ونفسه ومتاعه نظير ما يمنحه أبي له من القوة والمقدرة لإتيان السحر. ومعظم العقود مكتوبة على قطع قذرة من جلود القطط أو الكلاب، وملوثة ومحررة بالدماء النجسة، وغيرها من القاذورات التي يستحيل على الإنسان أن يتحمل رؤيتها أو يشم رائحتها.

شغلني ما رأيته تلك الليلة من أمور السحر والسحرة واجتهادهم في تعلم هذا العلم الممنوع ورغم أنني كنت أعرف كثيراً من الأسرار ومفاتيح العلوم إلا أنني سألت «أشتوت»:

- أخبرني يا «أشتوت» ما الذي يجب على الساحر أن يفعله من رياضة وممارسات قبل التعميد تؤهله لأن يكون ساحرا؟

كنت أعلم أن «أشتوت» يعجبه الكلام عن هذه الأمور فقال دون تردد:

- ينبغي على الراغب في الاتصال معنا أن يعزل نفسه من مخالطة بني الصلصال ليهيء نفسه لحياة أخرى مسكونة بالأطياف، لينتقل من عالم الإنسان الموحش الكئيب، إلى عالم الأطياف المدهش العجيب، وبهذا يتسنى له رؤيتنا والكلام معنا، وحين يتمكن من ذلك يختار الطيف الذي لن يفارقه بعد ذلك أبداً. ولكى يتمكن من الارتباط بهذا الطيف يتوسل إلى الأطياف أن يبلغوا «عزازيل» برغبته في سلوك هذا الطريق. ثم يذهب إلى أحد الأودية أو الكهوف أو الشعاب بعيداً عن الناس، حاملاً معه مرآة إطارها من خشب الأبنوس وهناك يبدأ الاعتكاف حاملاً المرآة في يده بينما يتمتم بالأدعية، والبخور يتصاعد من المجمر القريب منه. ويقوم بتغيير ملابسه على رأس كل ساعة من الزمن، ويكتفي بأكل الخبز الذي تم إعداده من دون ملح وبقليل من الخميرة، مع التين المجفف والزبيب. وعليه طيلة هذه المدة ألا يرى آدمياً ولا يراه آدمي لفترة تمتد مائة يوم ويوم، وخلال هذه الفترة يمتنع

عن إزالة أي شعر من جسده كما يمتنع عن الاغتسال والاستحمام، وعليه أن يحرق البخور عند طلوع الشمس وعند الغروب فيضع في المبخرة خليطاً من الملح والحرمل والشب وجلد الثعبان. وعند انقضاء المائة يوم ويوم ينظر الساحر وهو في معتكفه إلى مرآة على ضوء شمعة، بعد أن يكون قد أغلق جميع الأبواب والنوافذ فبدلاً من أن يرى في المرآة صورة وجهه يرى صورة الطيف الذي سيصاحبه ويلازمه، وبذا يعلم أنه قد وضع أول قدم على طريق السحر. وبعدها يقوم الطيف المصاحب له بتعلميه لغة الطلاسم التي هي مفاتيح التخاطب مع الأطياف، وكيفية كتابتها وإعدادها.

- هل هذا هو كل شيء من أجل تعلم السحر؟

- بالطبع لا فأنت تعلم أن هناك أشياء خاصة بكل فرد قبل أن يصبح ساحراً، وليس كل أحد يقدر أن يكون ساحراً حتى لو تمنى هذا. لابد من إكمال جميع الشروط. ومن حاول أن يصير ساحراً باعتماده على نفسه فقط دون الاعتماد على أبي أصابه الجنون من فوره وفقد عقله.

- وكيف يبدأ الطيف بالتخاطب مع الساحر وماذا يقول له؟

- يبدأ الطيف مستنكراً سلوك الساحر فيتهمه بأنه قد أزعج عالم الأطياف بسلوكه هذا ثم يهدده بأن لملك الأطياف سبعة جيوش سوف تمر من أمامه وهي تظهر في هيئات الأفاعي والعقارب والحيوانات المتوحشة، ويجب على الساحر ألا يخاف منها وألا يرد على من يكلمه منهم حتى تمر جميعها. وذلك للتأكد من أن الساحر قد اعتاد على رؤية الأطياف وأنه لا يخشى التعامل معها. فإن خاف أصابته لوثة من الجنون فوراً وذهب عقله

إلى الأبد. وإذا لم يخف يظهر له ملك الأطياف فوق جواده، فيكون على الساحر أن يمسك بالدابة التي يركبها ملك الأطياف من لجامها ثم يتقدم بطلبه. وهنا يقوم ملك الأطياف بمنح الساحر طيفاً قريناً يكون عليه أن يقيم معه أواصر علاقة حميمة ستجمعهما للأبد، ولهذه الغاية، يوقد البخور فيتصاعد عمود من الدخان، يتحول إلى قطعة خشب تتمدد شيئاً فشيئا لتتحول من جديد وتصبح ثعباناً، لا يلبث أن يتحول من تلك الهيئة إلى هيئات وأطياف أخرى كثيرة ومتعددة، ثم يتحول بعدها إلى شاب جميل الخلقة، يحمل في يده سكيناً حادة.

- وماذا يحدث بعد هذا يا «أشتوت»؟

- يتبادل الساحر والطيف الشاب التحية فيتصافحان بظاهر أيديهما، ثم يتملك كل منهما الآخر، ويقدم الساحر علبة صغيرة للطيف الشاب الذي يبدأ في التضاؤل حتى يتمكن من دخول تلك العلبة بالكامل، فيغلقها عليه الساحر، ويحملها معه، بعد ذلك باستمرار.

- وإذا كانت الساحرة امرأة ما الذي يحدث؟

- إذا كانت المرأة هي التي تريد أن تصبح ساحرة، فإن عليها أن تصبح عاهرة وتمارس جميع الطقوس القذرة، إلى أن يقتنع الطيف فيقوم بالارتباط بها، ولا يفارقها طيلة حياتها. وقبل أن يحدث ذلك تبدأ المرأة بعرض نفسها خلال فترة الحيض على أي شخص أو أي شيء (آدمياً كان أو حيواناً) وتستحم كل صباح ببولها لتصبح نجسة دائماً، ثم توقد البخور لعشيقها من الأطياف، إلى أن يظهر لها فتمنحه نفسها ليفعل بها ما يشاء،

كما ستفعل هي به ما تشاء!

- هذا أمر مقزز يا «أشتوت»!!

- أخشى عليك من عاقبة كلامك هذا يا صديقي.

كان «أشتوت» نفسه مقززاً وليس كلامه فقط، ولكنه كان صديقي الوحيد!! عشت معه طفولة بائسة لكنها سرعان ما أصبحت ذكريات.

(4)
في معبد أوروك

لم تطل مصاحبتي لأشتوت كثيراً فقد وهب نفسه كاملة لخدمة أبي. أشتوت كل متعته هي في تعميد السحرة وأخذ المواثيق منهم، ولم يكن لي أي دور فيما يقوم به إلا حظي من المشاهدة التي انطبعت في ذاكرتي طول عمري أو الحوارات العقيمة معه، أو ذكريات الطفولة المجنونة وشقاوتها. ظل روح طيف أمي الغاضبة يصيح بي كل يوم أن أتخلى عن «أشتوت» وأبحث عن طريق مغاير ومصير آخر لأن«أشتوت» قد ربط نفسه ومصيره بأبي إلى الأبد، فلا يقدر أن يفارقه. ثم أصبحت روح طيف أمي شديدة الإلحاح ولم أعلم مرادها الحقيقي إلا بعد ذلك بوقت طويل.

ففي ليلة من ليالي الشتاء الباردة الطويلة استجبت لنداءات روحها القلقة التي ظلت ترفرف فوقي طوال تلك الليلة فتبعتها حتى دلتني على مكان غريب في مرتفعات «بابل» ببلاد النهرين. وحين انتقلت إليه رأيت أن «عزازيل» قد سبقني إلى هناك وكان يبقى فيه كثيراً، وحين سألت بني الشيصبان بعد ذلك عن السر وراء هذا حكوا لي أن «عزازيل» بعد أن نجح في إغواء قدماء الصين حتى أصبحوا يعبدون بعضهم البعض في الزمان القديم انتقى منهم قبيلة السومريين الذين يعرفون هناك بـ «الساموراي» فأغوى رئيسها وجعله يهاجر بأهله إلى وادي دجلة والفرات ثم مازال بالآريين

والساميين والطورانيين والمغول الذين نشأ بينهم «زرادشت» المجوسي ليوفق بين عبادتهم وعبادة الثنوية التي ترمز لتنازع النور والظلام حتى أصبحوا يعتقدون أن الكون يحكمه إلهان: إله الملأ الأعلى وهو رب الخير الذي خلق النور، وأما الآخر فهو «عزازيل» إله العالم الأسفل الذي ينبغي أن يعبده أهل الأرض، وبذلك أنشأ «عزازيل» في بابل هذه العقيدة التي هي في حقيقة أمرها عبادة الشيطان فيجتمع أعضاؤها في المحافل يقربون القرابين لأبي ويكررون التلاوات التي ترتل في معابده وتدعو للإيمان بسيادة الشيطان على العالم.

●●●●

مازال «عزازيل» يهتم كثيراً ببلاد ما بين النهرين فهي بلاد النبي «إبرام» وبلاد أبنائه مثلما هي بلاد «حمورابي» و«الميديين» و«البابليين» وهي في الوقت نفسه بلاد عبادة «مترا» وعبادة «المانوية» وعبادة أبي نفسه!!.

تولى «عزازيل» بنفسه تعليم «البابليين» عبادة الكواكب، ليجعل مصائرهم وأقدارهم متعلقة بالسعد والنحس، فلا يسعد أحدهم إلا بالكواكب ولا ينحس إلا بها. تعلموا منه علم الفلك والرصد وحساب التنجيم وجعل له كهاناً يقومون بأعمال التنجيم وتعليمه. وجعل التنجيم عقيدة ممزوجة بالقصص والألغاز والأوهام. ودارت حياة «البابليين» حول ذلك

فجعلهم يصدقون أن الإلهة (تيامات) ربة الأرض قد تحدت السماء وخلقت الحيات والحيتان لتوطيد سلطانها، وأوهم أهل «بابل» أنهم يستطيعون أن يبنوا برج «بابل» لغزو السماء!.

طريقة «عزازيل» في إغواء بني الصلصال سهلة وبسيطة فهو يعمد لسادتهم وملوكهم وكبرائهم فيوسوس لهم ويوهمهم حتى يخرجوا على قومهم بتلك الأفكار المجنونة و«عزازيل» يعلم أن العامة تطيعهم دون تفكير، ويحرص على الإيقاع بين أؤلئك السادة الكبراء وبين المصلحين والأنبياء حتى تخلو له الساحة ويصفو له الجو.

●●●●

اعتاد «عزازيل» أن يأتي كل يوم إلى أهل «بابل» ليوهمهم بما يشاء. فيوماً يوهمهم بسطوة أهل الأرض وأياماً أخرى يوهمهم أنهم طوع لإرادة الكواكب لا يخرجون عنها، وعليهم التسليم لها بالصلاة والقرابين، وعليهم أن يسألوا العرافين المنجمين عن رغبة النجوم، فإن رضيت فهو السعد، وإن غضبت فهو النحس. واجتهد في تعليمهم كشف الطوالع ورصد الكواكب. وتقدم البابليون في التنجيم حتى ربطوا حياتهم وأيامهم بالنجوم، فأطلقوا على أيام الأسبوع أسماء الكواكب المعروفة لديهم آنذاك، وكان عددها خمسة، وخصوا اليوم السادس للقمر، واليوم السابع للشمس، وجعلوا لكل

كوكب يوماً يعبدونه فيه، فجعلوا يوم السبت لعبادة كوكب (زحل)، ويوم الأحد لعبادة (الشمس)، ويوم الاثنين هو يوم (القمر)، والثلاثاء يوم كوكب (المريخ)، والأربعاء يوم كوكب (عطارد)، والخميس يوم كوكب (المشتري)، وأما الجمعة فقد خصه «عزازيل» لتخليد ذكرى أمي (فريجا) ونسبها له، فجعل يومها هو يوم كوكب (الزهرة)، إلهة الحب والجمال. ومن عجب أنهم أطلقوا على أيام الأسبوع أسماء تلك الكواكب، وأصبحت تلك الأسماء من المسلمات حتى زماننا هذا على مدار الأيام وعلى الرغم من تغير العقائد والأديان.

وحين احتدم الصراع متأخراً منذ ألفى عام أيام الدولة الرومانية بين أتباع المانوية والمسيحيين وخاصة في بلاد آسيا الصغرى وعادت مسألة العقيدة الثنوية وتنازع النور والظلام لأشدها رأى آباء الكنيسة انتزاع شعائر عباد النور فجعلوا يوم الأحد من كل أسبوع رمزاً للمسيحية لأنه كان مخصصاً لعبادة الشمس التي هي رمز النور. كما جعلوا يوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر هو يوم ميلاد المسيح لأن المسيحيين كانوا يذهبون في هذا اليوم إلى السهرات التي يقيمها الوثنيون فقد كان الوثنيون يعتقدون أن هذا اليوم يقصر فيه الليل ويطول النهار فهو يرمز لهزيمة إله الظلام وانتصار إله النور فاتخذه كهنة الكنيسة يوماً للاحتفال بأعياد ميلاد المسيح لينافسوا الوثنيين وليمنعوا أتباع العقيدة المسيحية من حضور أعياد الوثنيين وسهراتهم في ذلك اليوم.

تولى «عزازيل» بنفسه تعليم الكهنة في معبد أوروك طقوس العبادة لتمجيد الأطياف وبذل الأضاحي من أجلها. ومثلما تولى تدوين تعاليم السحر الحقيقي في (كتاب أشتوت) الذي أصبح من بعد ذلك هو (كتاب إينوخ) «كتاب الموتى» عند المصريين فقد حرص أن يتولى ذلك بنفسه في كل مكان آخر. رأيت هذا حين انتقلت إلى مصر بعد «بابل»، فوجدت كتاب الموتى لديهم يدور حول تمجيد أطياف العالم السفلي وبذل الأضاحي لهم وتقديم القرابين والذبائح.

●●●●

وجهتني روح أمي إلى «بابل» فرأيت قرب المعبد صبية كأنها القمر في ضيائها وبهائها، وكأنها الزهرة في رقتها وكأنها الفراشة في خفتها، وكانت تأخذ بالألباب وتخطف الأبصار وتبهر القلوب فعلمت على الفور لماذا وجهني طيف أمي إلى هذا المكان البعيد.

ولكنني لما اقتربت من المعبد شممت رائحة «عزازيل» فعرفتها على الفور، وأيقنت أنه يحوم حول الفتاة أو حول المعبد، وعلمت أن في الأمر سراً لابد أن أعرفه.

ودون تردد تحول طيفي إلى شاب أمرد وسيم يلبس ثياب القادة والأمراء ويقود فرساً مطهمة جميلة وكأنه قد أتى من الشرق البعيد في سفر طويل، ويرغب في من يدله على مأوى. وحين وقع بصر الفتاة على طيفي

المتجسد رأيت في عينيها بريق الفتاة المتطلعة، ولكن وجهها في جملته كان ينبيء عن فتاة مهمومة وكأنها تساق للذبح.

تقدمت منها وحييتها باحترام، فردت التحية في حياء واضح وأدب جم. وسألتها:

- هل يوجد مأوى أو نزل قريباً من هنا للغرباء يا صبية؟

- نعم يا سيد يوجد نزل المعبد! ولكنه نزل قذر وغير مرتب، ولا أنصحك بالذهاب إليه. فالناس هناك ليسوا ودودين. ولا يحبون الغرباء. ابق مكانك ولا تذهب حتى أعود، أنا ذاهبة للمعبد لأمر هام!! وسأعود بسرعة. انتظرني. اسمي «ميسون»!!

قالت عبارتها بلهفة شديدة وكأنها عثرت على كنز من الكنوز. وتمهلت قليلاً ونظرها إلى الأرض قبل أن تهرع إلى المعبد. وفهمت أنها تريد أن تعرف اسمي فقلت على الفور:

- «مياس»، اسمي «مياس»!!

كان اسماً اخترعته للتو، ولكنه أعجبني فهو يدل على مشية الأسد ويدل على التبختر والثقة بالنفس، كما أنه اسم رنان ولا يقل جاذبية عن اسم «ميسون»!.

وراقبت الصبية وهي تسرع نحو المعبد في مشية مترددة وتبعتها بنظري دون أن تراني حتى دَخَلَتْ المعبد. ودفعني الفضول لتعقبها فدلفت

وراءها خلسة وجلست في مكان خفي في الظلال أراقب الحاضرين دون أن ينتبهوا لوجودي.

الكهنة تجمعوا في المعبد لأمر هام، واستدعوا الصبية التي لم تكن تعلم أي مصير ينتظرها. ولكنها لم تكن تجرؤ على الامتناع عن تلبية الدعوة فقد كانت جميع بنات أوروك تحت طوع الكهنة يوجهونهن أينما يشاءون وكيفما يرغبون. والفتاة لا تملك أمر نفسها ولا تستطيع أن تمتنع حيال الكهنة الذين يملكون روح المرأة قبل جسدها.

واضح أن الكهنة يمهدون لجعل «ميسون» راهبة في المعبد، ولذلك قاموا بدعوتها لتشهد حفل طقوس تنصيب رفيقتها «مايا». وعلى الفور أدركت أن لأبي يداً في هذا الأمر.

طقوس التنصيب تشتمل على تقديم ذبيحة بشرية تتولى الصبية المرشحة إسالة دمها لتتأهل بعدذلك لشرف أن تصبح راهبة بعد أن يقوم الكهنة في معبد أوروك بتجرع تلك الدماء الآدمية فهم يعتقدون أن هذا جزءاً هاماً من طقوس عبادة الأطياف، وأنهم حين يشربون دماء القربان تنتقل قوة الحياة عبر دماء الأضحية لتقوي أجسادهم وتطيل أعمارهم وتمنحهم حياة أخرى ممتدة وبهذا يتمكن الواحد منهم من العيش في أكثر من دورة من دورات الحياة.

رأيت هناك امرأة مقيدة ومربوطة على صليب مقلوب في قفص فوق المذبح تمهيداً لتقديمها قرباناً لــ«عزازيل». وكان واضحاً أن «عزازيل» هو المهزوم هنا وأن المرأة هي المنتصرة فقد كانت رابطة الجأش ثابتة القلب مطمئنة حتى في تلك اللحظات، لحظات ترقب الموت وانتظاره، والتي هي أشد اللحظات بؤساً وعبوساً، بينما الفتاة «مايا» التي تمسك بالمثقاب مضطربة خائفة، ترجف أوصالها، وتكاد تسمع دقات قلبها من على البعد لو أرهفت سمعك.

لو نظرت إلى المرأة في تلك اللحظات لعلمت لماذا لم يكن «عزازيل» هو المنتصر في جميع معاركه دائماً فقد كان هناك كثيرون من بني الصلصال يهزمونه بثباتهم على مبادئهم، فيدفعونه إلى قمة اليأس والغيظ، رغم أن هؤلاء لم يكونوا كثيرين، بل كانوا قلة ولكنهم كانوا أقوياء على مدار التأريخ، فقد كان هناك رجل اسمه «إبرام» وكان نبياً ولم يكن ساحراً، ولكنه كان قوياً، فقد تمكن من هزيمة «عزازيل» في كل مرة كان يتصدى له. وعبثاً حاول «عزازيل» الخلاص منه والإيقاع به حتى أنه أغرى أحد الملوك لإلقائه في فوهة بركان مشتعل، ولكن «إبرام» يملك قوة في قلبه تجعله يخرج منتصراً على «عزازيل» في كل مرة، وبعد كل جولة، فقد خرج بعد ثلاثة أيام من هذا البركان سليماً معافى. وأصبح «إبرام» بعد ذلك أسطورة في الثبات وقوة العزيمة والمضاء وكثر أتباعه ومحبوه.

و«عزازيل» يشتعل غيظاً من «إبرام» ولهذا فهو يغرى الكهنة للانتقام

من أتباعه، وكان واضحاً أن المرأة المقيدة على الصليب هي من أتباع إبرام فقد كان واضحاً أنها قوية الشكيمة شديدة العزيمة، وهي لم تطع أوامر الكهنة ولم تستسلم لهم فقبضوا عليها وقرروا أن يذبحوها لأنها أهانت إلههم (أوتو) إله الشمس، فجاءوا بالفتاة الصغيرة البائسة «مايا» وبدأوا بمباشرة طقوس تنصيبها لتصير راهبة في معبد أوروك وكان واضحاً أنهم يريدون أن تقوم «مايا» بذبح تلك المرأة - التي هي من أتباع إبرام- قرباناً للإله (أوتو) وأن يتم ذلك بدون مساعدة من الكهنة الثلاثة الذين يقفون بالقرب منها ممسكين الكؤوس بأيديهم بانتظار أن تملأها لهم بالدم النازف من الضحية. وجاءوا ب«ميسون» لتشهد الطقوس لأنها سوف تكون راهبة بمعبد أوروك يوماً ما.

المشهد رهيب.. فالمرأة الضحية معلقة على صليب مقلوب في قفص فوق المذبح، وقدماها للأعلى ورأسها للأسفل. والكهنة أوقفوا الفتاة «مايا» قريباً من عنقها ممسكة بالمثقاب الذي سوف تثقب به عنق الضحية لتنسكب الدماء في كل كأس من كؤوس كهنة المعبد.

فوجئت الفتاة «ميسون» بما يحدث فوقفت هناك غير مصدقة عينيها اللتين كادتا تفارقان محجريهما وهي تشاهد هذا المنظر الذي لم تستعد لوقوعه أبداً رغم أنها سمعت بأن مثل هذا كان يحدث داخل المعبد. وقفت كالتمثال ولكن أوصالها بقيت تضطرم والعرق البارد يسيل من فوق جبينها

على وجهها الجميل الذي كأنه قطعة قمر.

رأيت أنه لا بد أن أتدخل لأفسد تدابير الكهنة وأنقذ هؤلاء النسوة الثلاث. وطيف أمي يدفعني دفعاً للإسراع قبل أن تقع هذه الكارثة فقد كان حرصها على الكيد لأبي أكبر من حرصها على إنقاذ هذه الأرواح البريئة ولكن طيف أمي ما كان يقدر أن يقوم بأي عمل حقيقي فقد كان ميتاً في حين كنت أستطيع فأنا حي.

نهضت على الفور فغادرت مسرعاً، وجمعت بعض الأغصان سريعة الاشتعال من شجرة يابسة كانت جوار المعبد، ثم أخذت معي بعض القطران من برميل في الباحة الخلفية مما يستخدمه الكهنة، ليطلوا به وجوه الأعداء الذين يجاء بهم للمعبد بعد هزيمتهم في المعارك. تسلقت إلى سطح المبنى ثم ألقيت بالأغصان من فوهة المدخنة ثم نفخت فيها فزادت النار اشتعالاً ثم صببت ذلك القطران عليها وسددت فوهة المدخنة من الأعلى.

سرعان ما انبعثت غيمة من الدخان الأسود الكثيف فغمرت المعبد وملأت أركانه وهرع الكهنة للخارج وهم يسعلون. وتسمرت الفتاتان مكانهما فلم تستطيعا الحراك.

الفوضى والاضطراب الذي حدث داخل المعبد هو كل فرصتي في إنقاذ هؤلاء النسوة وهي سانحة قصيرة العمر، وضئيلة جداً فالكهنة سرعان

ما سيكتشفون أن الأمر كله متعلق بالمدخنة فقط وسوف يجدون طريقة لإطفائها. بيد أن الدخان المنبعث من القطران ثقيل ولا ينقشع بسهولة.

هرعوا جميعهم خارج المعبد وهم يتساءلون ما الذي حدث فجأة. وأكسبني اضطرابهم وحيرتهم بعض الوقت للصعود أعلى المذبح وفتح القفص وتحرير المرأة من قيودها ثم حملها والنزول بها. كانت المرأة قد فقدت وعيها من جراء احتقان الدماء في رأسها وعنقها فاضطررت إلى حملها ولم أنس أن أسحب الفتاتين معي وأنا أهرب من الباب الخلفي وأنادي على فرسي الذي طار بالنساء الثلاثة على متنه وطوى الأرض طياً وأنا أطير من فوقه وأوهم النساء أنني على صهوته، وطيف أمي يحوم من حولنا ويستحثنا على النجاة.

لا أدري لماذا قمت بهذا العمل فلم يسبق أن فعلت في حياتي كلها أمراً مماثلاً. بل لم أفعل شيئاً حسناً قط حتى ذلك الوقت، فقد نشأت على حب الأذى والكيد والسخرية من الغير، وتنفيذ رغبات طيف أمي، وصحبت «أشتوت» الذي كان لا يتورع عن فعل جميع الشرور والآثام.

لا بد أن أبي غاضب الآن وهو يتساءل من الذي فعل هذا؟ أبي لا يعرفني ولم يتمكن يوماً من رؤيتي. وبهذا فأنا في وضع من لا يخشى انتقامه ولا يتوقعه. غير أنني أحس الآن بأنني فعلت شيئاً رائعاً. شعوري هذه المرة

مختلف عن أي مرة سابقة قمت فيها بأي عمل آخر. ولكن ما الذي يدفعني حقاً لهذا السلوك الذي لا يشبهني؟ أهو طيف أمي ورغبتها القوية في الكيد لأبي والانتقام منه وإفساد خططه وحيله؟ أم هو حنيني لبني الصلصال والمرأة التي أرضعتني من ثديها؟ أم ياترى هو إعجابي بـ«ميسون» الفاتنة البريئة؟ أم أنه هو إشفاقي على المرأة الضحية التي هي من أتباع إبرام؟ أم أنني لم أحتمل أن أرى الفتاة الساذجة «مايا» وهي طوع أمر الكهنة يسخرونها لتلوث يديها بإراقة دم تلك المرأة المسكينة؟ أم أنه كل هذا ياترى؟ أم هو غير ذلك كله؟ وهل الدم الآدمي الذي يجري في عروقي من حليب المرأة الإنسية الذي رضعته وأنا طفل صغير هو الذي دفعني حقاً لهذا العمل؟

عموماً، ونتيجة لما فعلته للتو، فقد بدأت أحس إحساساً مغايراً لكل ما عرفته من أحاسيس سابقة وأسكرني هذا الإحساس بالنشوة ودفعني للمزيد.

قطعت المرأة الضحية حبل أفكاري بأن تكلمت معي ولكنني دهشت حين خاطبتني بالسريانية الآرامية:

- (شلُومُو وَشِمْ، إيدربو هات؟ منيو هات؟ قيو كو سمت؟ ليكو كُزَخْ؟)

ولم أكن أتحدث السريانية جيداً ولكنني فهمت من كلامها أنها كانت تقول:

- (مرحباً أيها الوسيم كيف حالك؟ من أنت؟ ولماذا فعلت هذا؟ وإلى أين تذهب بنا؟)

- (لِشَانُمْ أَكّدِيتُمْ)!!

أي تكلمي باللغة الأكدية. قلتها دون تفكير. ولما لم أكن أرغب في أن تسخر المرأة من معرفتي الساذجة بالسريانية فقد خاطبت «ميسون» باللغة الأكدية البابلية التي كنت أتقنها جيداً، لتترجم كلامي وتتولى الرد عليها. وفي هذا نوع من التودد لـ«ميسون» والإيحاء لها بأنني أثق فيها لتترجم كلامي. وعلى كل فقد تعودت على الكلام مع «ميسون» حين خاطبتني من قبل.

كانت «ميسون» و«مايا» حتى تلك اللحظة غير مصدقتين ما حدث ولم تفيقا من هول الصدمة، فالأحداث تتوالى بسرعة مجنونة. إلا أن المرأة الآرامية ظلت هادئة ومطمئنة، وهي التي بادرت بالتحدث. قلت لـ«ميسون»:

- أخبريها بأنني لا أعلم لماذا فعلتُ هذا ولا أدري إلى أين نسير ولكنني بالقطع لا أنوي بكم شراً.

ابتسمت المرأة الإبرامية «ماوية» ولم تعلق على كلام «ميسون» حين تطوعت بترجمة كلامي ولكنها نظرت نحوي ثم نظرت لميسون نظرات ذات معنى فهمته «ميسون» فنظرت إلى الأرض في حياء.

- أخبريها أن هناك كهفاً في الجبل وسوف آخذكم إليه لتختبئوا بضعة

أيام ريثما يهدأ غضب الكهنة.

- وأنت هل ستبقى معنا؟ أعني في نفس المكان؟

وفهمت إيحاءاتها من طريقة السؤال، ولكنني لم أجب.

صعدنا الجبل الذي تغلفه شجيرات الأرز الخضراء حتى انتهينا إلى فوهة الكهف الصغيرة فدلفنا ثم بدأ المكان يتسع شيئاً فشيئاً حتى أصبح رحباً. ودهشت النساء كيف تمكنت من اكتشاف هذا المكان الغريب، ولم يكن يعرفن مع من كن يسرن ولا إلى أين المصير!

حين تأكدت أن النسوة قد بدأن يتآلفن مع المكان وسكن روعهن قليلاً فكرت في جلب الطعام والماء والفراش لهن لأنني كنت أتوقع أن يبقين في هذا الكهف حتى حين.

قلت دون تفكير:

- سأعود سريعاً فلا تقلقن.

ومضيت بسرعة واختفيت في الضباب الكثيف الذي خلفته حوافر فرسي وهو يطير بي طيراناً مبتعداً عن الكهف وذلك قبل أن يتسنى للنسوة أن يسألنني إلى أين أو متى سأعود.

صيد الطرائد ليس صعباً في ذلك الجبل فقد رأيت قطيعاً من الماعز الجبلي وكان تيسه منشغلاً بالنزو فلم يلحظ اقترابي وانقضاضي على ذلك

القطيع. اصطدت تيساً سميناً كبيراً وذبحته في مثل لمح البصر لأنني كنت أعلم أن المرأة الإبرامية «ماوية» لن تأكل طعاماً غير مذبوح.

هذا الكهف مناسب تماماً للاختباء فهناك جدول من الماء قريب من المدخل، وموقع الكهف معلوم لدى فلم أجد عناء في الاهتداء إليه. ولكن أصعب شيء الآن هو توفير الفراش والغطاء لأولئك النسوة فقد أمضيت اليوم كله أبحث عن فرش وثير، ثم عثرت عليه في بيت رجل غني كان ينام في العراء وضربه برد الليل وهواؤه البارد فترك ذلك الفراش واحتمى بغرفته الدافئة. كان الفراش غنيمة سهلة. فنفخت فيه حتى طار في الهواء ثم اختطفته وطرت به إلى الجبل.

●●●●

حين عدت بالفراش إلى الكهف رأيت «ميسون» تنظر في مرآتها، وقد جدلت ضفائر شعرها جدلات كبيرة متداخلة وأرسلت جزءاً منه خلف ظهرها في حين أبقت بضع خصلات فوق كتفها الأيسر مسترسلاً حتى صدرها. وكانت قد زينت هامتها بطوق من الرياحين. علمت أنها أصبحت مطمئنة وأن القلق قد زايلها بدليل أنها بدأت تعبث بشعرها وتهتم به.

«ماوية» كانت جاثية على الأرض تصلي. واستمرت في صلاتها ولم

تقطعها رغم أنها أحست بعودتي إلى الكهف، وكانت «مايا» جالسة غير بعيد تراقب وتعبث هي أيضاً بشعرها.

انتظرت حتى أكملت ماوية صلاتها ورأيت أنها لم تقترب من الفراش ولا الغطاء بل كانت تتحاشاهما. سألت «ميسون» هامساً:

- هل حدث شيء من بعدي؟ لماذا تتحاشى «ماوية» الجلوس على الفراش؟ ولماذا جلست على الأرض العارية؟

أجابتني «ميسون» بصوت هامس:

- لقد سألتها نفس هذا السؤال يا «مياس» ولكنها قالت لي: «لن أجلس على هذا الفراش فهو مسروق». هذه المرأة من أعجب ما رأيت في حياتي. وحين قلت لها «وكيف عرفت أنه مسروق؟» قالت: «هذا فراش «جمشيد»، وهو أحد أشهر الأغنياء في هذه الأرجاء، وهو بالطبع لن يبيع فراشه لأحد إذ لا ينقصه المال وليس محتاجاً إليه، كما أنه معروف بالبخل فهو لا يمنح أشياءه هبة لأي إنسان في الوجود، والتعليل الوحيد لوجود هذا الفراش هنا هو أنه مسروق، وديني لا يسمح لي باستخدام الأشياء المسروقة».

ساد المكان صمت رهيب، فقد كان وقع كلام «ماوية» على نفسي مثل الصاعقة. فهذا الذي صنعته هو أمر جديد لم أعرفه من قبل، وهو أمر قد جرح كبريائي إلا أنه أسعدني أن أرى امرأة بهذا الشموخ والاعتزاز،

ورغم أننا بقينا صامتين إلا أن هناك حديثاً كان يضج في دواخلنا. ثم سألت «ميسون»:

- وهل أكلت من الطعام؟

- نعم. ذكرت عليه كلاماً وعبارات لم أفهمها ثم أكلت.!! ولكنها من بعد ذلك ظلت تكلمنا بالأكدية يا «مياس» هذه المرأة عجيبة فعلاً.

طريقة «ميسون» في الهمس في أذني تبعث في قلبي مشاعر غريبة تشبه مشاعر بني الصلصال. وهي حين تبدأ لا أريدها أن تكف عن ذلك الهمس الجميل. ليت كل كلامها معي يصبح همساً مموسقاً يلثم أذني بشفتيها الخمريتين. «ميسون» واسعة العينين، مكحلتين بلاكحل فلم أرها تضع كحلاً فيهما. وكانت عيناها تقولان كل شيء. يطربني ذلك الكلام الذي بلا صوت.

جلسنا صامتين. وبقيت أراقب «ميسون» خلسة فرأيت أنها تطيل النظر ناحيتي، في إعجاب. ثم نظرت إلى «مايا» فرأيت أنها تراقبنا من بعيد، وبوغتت عند نظرتي المفاجئة إليها فانصرفت تلعب بضفائر شعرها في اضطراب. ثم نظرت ناحية «ماوية» فرأيت أنها تراقب المشهد كله في ابتسامة تنم عن كلام كثير حتى وإن بقيت صامتة لم تتكلم.

(5)
وحـي بابـل

عدت إلى مدينة أوروك مرة أخرى لأستطلع ردود أفعال أهل المدينة تجاه ما حدث في معبد أوروك. ولكنني حين بلغت وسط المدينة أدركت أن «عزازيل» لم يكن مهتماً كثيراً بالحادثة التي وقعت عند المعبد، رغم اختفاء الضحية والراهبتين، فقد كان مشغولاً بما هو أهم. عزازيل حريص أن يترك عند أهل «بابل» ذكراً له لا ينتهي. فقد اجتهد جداً في إشاعة الأساطير بين أهل تلك البلاد فهو الذي أوجد أسطورة «إينوما إيليش» في عقول العامة من السامريين، يقصها الآباء على الأبناء، وهي تحكي بدء الخليقة، فهو الذي أوجد في عقول البابليين الآشوريين قصة الخلق أو ملحمة «أتراحاسيس» وغيرها من الأساطير والملاحم.

وراقبته من بعيد فرأيته يملي على «شين إيقي أونيني» تلك الملحمة المشهورة ملحمة «جلجامش» و«شين» يكتبها باللغة الأكدية وينحتها بالخط المسماري على ألوح الطين الحجري المحروق. رأيت السعادة على وجهه وهو يتلقى تلك الأسطورة من فم «عزازيل». وينحتها على الألواح حتى لا ينساها. ورأيت «عزازيل» يتقمص روح «شين» فيتولى بنفسه صياغة الكلمات والعبارات وكان يتحدث عن نفسه كثيراً ويذكر أمي أكثر مما يذكر نفسه ولاريب أنه يهدف من وراء ذلك إلى شيء لم أكتشفه بعد.

وعندما طالت مراقبتي له شهدت جلسات الإملاء والإيحاء، إذ رأيته جالساً متربعاً وهو يتفل في يديه ويفركهما وقد انتفخت أوداجه وانتفش شعره وهو يملي على «أونيني». «أونيني» لا يتعب من الكتابة أبداً وله طاقة لا تنضب وحماس لا يفتر، خاصة حين يعبَّ من كؤوس الشراب التي يرمي بها في أي اتجاه بعد أن يفرغ ما فيها:

- أنا أعلم يا «شين» أنك نحات ماهر، وأنك بارع في الكتابة والنقش أيضاً. ولذا فسوف أقص عليك أعظم قصة. وأريد منك أن تنقشها على ألواح الحجر .. أنا أقص وأنت تكتب. ما رأيك؟ موافق؟ إذن اكتب يا «أونيني».. اكتب.

- ماذا أكتب أيها السيد؟

- اكتب كل كلمة أمليها عليك ولا تنس منها شيئاً ولا تهمل حرفاً. اكتب هذا الكلام فهو مقدس وانقشه على الألواح، فسوف تتناقله الأجيال وتحدو به الركبان ويرتله الكهنة وينشده المصلون وتشدو به الصبايا وتحكيه الجدات للأحفاد. اكتب يا «أونيني».

ويطرب «أونيني» لهذا الكلام ويمتليء إعجاباً بنفسه فتسري الدماء في عروق جسده المشبع برائحة الخمر وينطلق إزميله يحفر على الصخر وينقش الألواح:

- (هو الذي رأى كل شيء حتى تخوم وأطراف الدنيا. هو الذي عرف

كل شيء وامتلأ بكل شيء. هو سيد الحكمة الذي في كل شيء تعمق. رأى أسراراً خافية، وكشف أموراً خبيثة، وجاءنا بأخبار عن زمان ما قبل الطوفان. مضى في سفر طويل، وحل به الضنى والعياء، ونقش في لوح من الحجر كل أسفاره.)

«أونيني» يعلم أن من يملي عليه هذا الكلام هو بطل القصة. ولكنه لا يبالي ما دامت ستحمل اسمه وأنه سينقشه على تلك الألوح أما باقي التفاصيل فليس مهماً. سوف يجيء يوم يدرك الناس فيه عظمة هذا النقش الجميل على الحجر.

- مالك توقفت يا «أونيني» بعد أن كتبت أول فقرة؟ لا تفكر ولا تتوقف! اكتب.

ويندفع «أونيني» يكتب:

- (حدثنا عن «جلجامش» الذي عبر جميع الصعاب. وفاق كل الملوك، ذائع الصيت متين البنيان. ابن أوروك، الثور النطوح. الذي يمضي في المقدمة كما يليق بالقائد،كموج الطوفان الصاخب يهدم الأسوار الصماء. «جلجامش» الضافي الروع، فاتح ممرات الجبال، ناقب الآبار في سفوح المرتفعات عابر المحيط، والبحر المترامي، إلى حيث تشرق الشمس، مرتاد أصقاع الأرض بحثاً عن الحياة.)

كان العرق يتصبب من «أونيني» وهو يعمل بأزميله على الحجر، ولكنه سعيد بكل قطرة باردة تنساب من جبينه فوق عينيه ثم تترقرق فوق خديه اللذين انطفأ بريقهما من التعب والنصب، فهو سوف يخلد أسطورة العظيم «جلجامش»:

- أنت هو حقاً.. إني أعرف لمن تكون هذه الصفات يا سيدي. إنك تصف نفسك!! أنت هو «جلجامش» الملك.

ويبتسم السيد في خبث دون أن يرد على تساؤلات «أونيني» ويمضي في الإملاء شامخاً بأنفه:

- اكتب يا «أونيني»:

(ثلثاه إله، وثلثه بشر. ما لهيئة جسمه من نظير...)

- ولكن أنت لست بشراً!! أنت سيد بني النار.

- هه ها.. سوف أتوقف عن الإملاء الآن ما دمت قد عرفت السر، وسوف أزرع الفكرة في عقلك الضعيف الخاوي حتى يمتليء عن بكرة أبيه وسوف تكتب بلسان حالي يا «أونيني»: هيا !!

ويحك «أونيني» جبينه المبتل بحبات العرق وهو غير مصدق! ثم يمر بأصبعه فوق الشعيرات الضعيفة التي بقيت فوق رأسه، مروراً خفيفاً دون أن يمس تلك الشعيرات وكأنه يريد أن يحك رأسه ولكنه يخشى إن هو فعل أن تتساقط تلك الشعيرات وينكشف صلعه لذلك السيد المهاب، فيكتفي بالإشارة إلى ذلك الشعر بتمرير أصبعه من فوقه دون أن يمسه بيده. وفجأة يمتليء ذلك الرأس الضخم ذو الشعر الخفيف بالأفكار المنسابة التي لا يدري

من أين تجيء ولا كيف تزدحم. فيواصل النحت والكتابة:

- (كثور وحشي يرفع رأسه عالياً. بأس سلاحه بلا شبيه، وعلى صوت الطبل يوقظ رعيته. ثار أهل أوروك في بيوتهم. لا يترك «جلجامش» ابناً لأبيه، ماض في مظالمه ليل نهار. وهو الراعي لأوروك المنيعة، هو راعينا القوي الوسيم الحكيم. لا يترك «جلجامش» بكراً لأمها. ولا ابنة لمحارب أو صفية لنبيل).

●●●●

ويظل طيف «عزازيل» المتجسد في هيئة سيد نبيل يراقب «أونيني» وهو يندفع كالثور الهائج ينحت الصخر وأزميله لا يتوقف. وهو يحفر ويحفر وينقش على الألواح:

- هل نستطيع أن نتوقف قليلاً لنرتاح ياسيدي ونحتسي كأساً حتى نتقوى على الكتابة؟

- حسناً حسناً، أنت لا تشبع ولا ترتوي من هذه الكؤوس أبداً يا «أونيني». أنظر إليها وقد تناثرت من حولك، راضية بما فعلته بها. الكؤوس أصبحت تعشق لمس يديك، وحوافها ثملت من لثم شفتيك. اذهب يا «أونيني» اذهب. ولكن لا تتأخر فأنا أنتظرك. وعموماً فأنا هنا لأراقب فقط ألم تلاحظ بعد أنك أصبحت منطلقاً في الكتابة من نفسك دون إملاء مني؟ حين تعب من تلك الكؤوس يصبح سمعك مرهفاً لهمساتي وأستطيع أن

أكلمك دون أن أنطق بلساني.

وبعد قليل لا يطيق «أونيني» الانتظار حتى يكمل احتساء كأسه فيعود لاهثاً مهرولاً رغم حبه لذلك الشراب:

- هل نعاود الكتابة الآن يا سيدي؟

- الأمر عائد إليك يا «أونيني». لقد أصبحت الكتابة شغفاً يسكن فؤادك ويستولي على إرادتك. مرحى لك وأنت تكتب. اكتب يا «أونيني» أكتب يا نديم الكأس.

ويمسك «أونيني» بالمطرقة والإزميل ويمتليء حماساً ويستمر في الحفر والنقش على تلك الألواح. ثم يترك الحفر أحياناً قليلة والمطرقة في يده اليسرى والإزميل في يده اليمنى فقد كان أعسر ، ويحرص ألا يطأ الزجاجات الفارغة المتناثرة حوله وهو يتجول في الساحة المحيطة على غير هدى وكأنه يبحث عن فكرة ضائعة منه، ثم يعود في حماس ليحفر وينقش. وجسده الهزيل يتحرك مع كل طرقة خافتة ضعيفة ينقر بها تلك الألواح، في مثابرة مدهشة، ونثارات الحجارة المتساقطة تحت سن الإزميل الحادة ترسم أشكالاً متنوعة مبعثرة على الأرض تعود «أونيني» أن يتركها كل ليلة ثم يعود ليكنسها في صباح اليوم التالي بمكنسة القش المصنوعة من سعف النخيل قبل أن يبدأ العمل حتى لا تجرح تينك القدمين النحيلتين الحافيتين ذواتى الأصابع النحيفة المتفرقة على غير هدى.

ظللت أراقب وأعجب وأتساءل ما الذي يشغل «عزازيل» بهذه

الحكاية التي يمليها على «شين»؟ يا ترى ما السر وراء هذا كله؟ ولماذا يترك عظائم الأمور وينشغل بهذه التوافه؟

وكنت أسير إلى الكهف فأمضي الليالي والأيام ثم أعود لأجد «عزازيل» جالساً لا يمل، وهو يملي على «شين».. وإزميل «شين» يعمل دون كلل، فلا يفتر ولا يتوقف وقد نقش على الألواح كلاماً كثيراً وصاغ قصة طويلة. ثم شهدت ختام تلك الأسطورة. التي أملى «عزازيل» كل كلمة منها ورأيت أنه يتحدث عن نبتة الخلود التي من يأكل منها لا يموت. وتذكرت كيف أنه قد جرب هذه الكذبة مع «آدم» حين غرر به وقال إنه سيدله على شجرة الخلود! والمُلْك الأبدي المتجدد.. جلست أتأمل وأتعجب في حين كان «شين» ينقش على اللوح وينقش وينقش!!

●●●●

رغم مضي السنوات على تلك الحادثة وانقضاء الدهور إلا أنني بقيت أفكر فيما صنعه «عزازيل» حين أملى هذه الأسطورة وقص فيها قصة رحلة «جلجامش» وبحثه عن الخلود قبل أن أكتشف الحقيقة. وكنت أتساءل كثيراً ماذا يريد «عزازيل» من وراء كل هذا؟ وكنت أعلم أنه في قرارة نفسه يخاف من حقيقة أنه لابد أن يموت يوماً لأنه ليس إلهاً، وهو فانٍ فهو مخلوق ولا خلود لمخلوق أبداً. فهل أراد أن يقنعهم بالبحث عن هذا الوهم بدلاً من

عبادة الإله لأنه يعلم أن البشر أيضاً يموتون فسطر هذه الأسطورة؟

كنت أسأل نفسي دائماً ماذا يريد «عزازيل» من وراء هذه الأسطورة؟ ثم اكتشفت الحقيقة العجيبة. وكان اكتشافي لها هو محض صدفة. ولكنه تأخر كثيراً. فقد عرفت ذلك في آخر زمن مجيء بني اسرائيل إلى السبي في «بابل» وحين بدأوا يعيدون كتابة «أسفار التوراة» . السر كان بسيطاً جداً ولكنه سر مدمر.. لقد لجأ بنو إسرائيل وهم في الأسر بعد أن ضيعوا التوراة، لجأوا إلى الأساطير فأسعفتهم أسطورة «جلجامش» التي كان أبي قد كتبها بعناية فائقة حتى اشتهرت وشاعت كأعظم أسطورة في التاريخ، لجأ إليها بنو إسرائيل وهم في السبي بعد أن انقطعوا عن أصلهم في «أورشليم» فاقتبسوا منها معظم أسفار كتابهم المقدس وأعادوا كتابته ثم قالوا للناس، هذه هي «توراة موسى» لم تضع. وجدناها وجدناها.. سجلوها يا بني الصلصال ورتلوها واقرأوها فهي مقدسة. وكان أبي يستمع ويبتسم في مكر لم تعرف الأكوان له مثيلاً من قبل ولن تعرف له شبيهاً أبد الدهر.

●●●●

قلت لك إنني أعلم كثيراً من أسرار أبي التي هي أسلحته للانتقام والنيل من بني الصلصال. وقد أخبرتك أن السحر هو أحد تلك الأسلحة لكنه ليس أخطرها. فقد نجح أبي في هزيمة الشعوب عن طريق الأسطورة وهي سلاح ناعم لكنه فتاك. وبما أنني أعلم أن أسلحة أبي جميعها كذلك

فسوف أهديك سراً واحداً منها احتفظ أبي به لنفسه دائماً كأحد أنجع وسائله، وهو سوق الوهم الذي جعله أبي مشاعاً وبلا ثمن لجميع السحرة من بني الصلصال ولجميع أعوانه وأتباعه وشيعته. سوق الوهم هو سوق ضخم وعامر بالزبائن ولكنه لا يبيع إلا الوهم. والعجيب أن بني الصلصال يقبلون عليه في شراهة ونهم ودون تفكير وعلى مدار العصور والأزمان. يبيع أبي فيه بضائع مزيفة ومقلدة وغير أصلية لقوى الطبيعة فقد نجح أبي في اكتشاف القوى الكامنة في الطبيعة ونجح في تقليد تلك القوى. فقد أخفى الأصيل منها وأظهر الزائف براقاً لامعاً ليجذب بني الصلصال كما تنجذب الحشرات نحو الأضواء الساطعة ولكنها حين تصلها تحترق بأتون الحرارة. بنو الصلصال صنعوا أسلحة فتاكة على مدار العصور صممت جميعها لتؤدي إلى نتيجة واحدة حاسمة هي القتل. وبهذا فقد ظل الإعتقاد القائم عندهم أن الانتصار في الحروب هو تأكيد قدرتهم على إخضاع إرادة العدو عن طريق الأسلحة التقليدية للفتك بأكبر عدد لتسود روح الاستسلام عند البقية الأخرى. ولكنني أرى أن أخطر سلاح تم استخدامه على مدار التاريخ هو سلاح الوهم الذي اخترعه أبي فهو أشد الأسلحة فتكاً وهو سلاح فعال نجح في تدمير إرادة الشعوب وإفقادها شخصيتها على مدار الأزمان. وقد نجح أبي في هذا نجاحاً منقطع النظير فقد لجأ للأكاذيب التي نسجها لبني الصلصال فوقعوا في حبائلها وتوهموا أنها هي محض الصدق فسقطوا في شراك الوهم. أوهمهم بالشك في المسلمات وحقائق الكون الأساسية فمسخ فطرتهم. سرق أجمل صفات الإنسانية منهم عن طريق الوهم. إنك تكسب

الحرب حين توهم عدوك أنك أقوى منه وأنه مهما حاول فلن ينتصر عليك فتنهار معنوياته وتتحطم وحينها لا يقدر أن يقاومك. ولكن أكبر الهزائم لبني الصلصال حين نجح أبي في هزيمتهم بتجريدهم من سلاح الإيمان فجعلهم يتوهمون أنهم يسيرون في طريق صحيح يقودهم إلى الخلود الأبدي والنعيم وجعلهم يعيشون في سكرات هذا الوهم ولا يفيقون منه إلا عند لحظات الموت.. إياك أن تقع فريسة الوهم ياصديقي فالحق واحد لا يتعدد، ولكن الوهم هو الأباطيل التي لا يقدر بنو الصلصال على إحصائها فهية عصية على الحصر.

●●●●

أحس أحياناً أن طيف أمي يسكن داخل جمجمتي ويطل منها عبر حدقتى عيني إلى العالم. حين أفكر في هذا أحس بلهيب تلسع حرارته قلبي وتنتقل إلى كل ما حولي. أمي تمتلك حقداً يتسع لكل هذا العالم ويفيض.

عفواً فقد نسيت أن أقول لك إن ظننت أنني أثرثر كثيراً فيمكنك أن تخبرني لأتوقف. فليس من الضروري أن تستمع لكل ما أقوله، وأعتقد أن كثيراً مما ورد في مذكراتي لا يهمك في شيء، وقد تظن أنني أهذي، وفي واقع الأمر فإن كل ما أقصه عليك هو حقيقة أمري التي غابت عنكم يا بني الصلصال. كل ما في الأمر هو أنني أردت أن ألخص قصة حياتي التعسة

لمن بعدي عله يتعظ بها. وبالصدفة كان البائس المسكين الذي كتب عليه أن يستمع إليها أو يقرأها هو أنت في هذا الزمان الكئيب من عمر بني الصلصال!! إنني أرثي لحالك وأنت تقرأ مذكراتي وتبغضها ثم أعجب لك وأنت تتشبث بصفحاتها وتقرأ في عناد وإصرار!!. حقاً إنني لا أفهمك. ياترى هل ترغب حقاً في المواصلة أم أنك لا تجد شيئاً آخر تفعله سوى القراءة؟

لا أريدك أن تجيب عن سؤالي هذا ولا أن تعلق على اقتراحي لأنني – بالطبع - لن أتوقف عن رواية قصتي لأنك فقط لا تريد الاستماع إليها. ولو حدث أنك أغمضت عينيك عن القراءة أو سددت أذنيك بأصابعك أو انصرفت في غير مبالاة فسوف أستمر في سرد حكايتي وبصوت عالٍ لعله يسمعها شخص عابر فيعيها أكثر منك أو ربما أكلم بها الجدران والتراب والأشجار، وقد أكلم نفسي أو أبث كلامي في الهواء ليبقى هناك منساباً بلا وجهة محددة.. ومن يدري فقد يكون هناك عالم آخر مواز لعالمكم هذا وتكون فيه مخلوقات عاقلة وقادرة على أن تسمع روايتي وتتعظ بها. أو قد يجيء في آخر الزمان من لديه القدرة على استعادة هذا الكلام من الأثير وسماعه والاستفادة منه. أظن أن مثل هذا أصبح ممكناً أو قريباً من الإمكان في زمانكم.. لو نجح بنو الصلصال في هذا لتمكنوا من سماع الحوار بين أبيهم آدم وأمهم حواء. أو لربما سمعوا هدير أمواج الطوفان في عهد نوح أو استغاثة فرعون مصر حين أطبقت عليه أمواج البحر.

نحن في عالم الأطياف نستطيع - إذا أردنا - أن نستعيد كلام الأسلاف السابقين وحواراتهم فما هو إلا أن نطلب من الأرواح القديمة أن تحدثنا فتنطلق في حكاية لا تنتهي تروي وتروي وتروي ولا تريد أن تسكت. وكل كلام قيل في الزمان السابق فهو مسجل في طبقات الأثير.

اطلب مني ما شئت فأنا رهن إشارتك. هل ترغب أن تسمع همسات القائد الروماني «مارك أنطونيو» وهو يسكب أعذب كلمات الغزل والحب في أذن «كليوباترا» المصرية؟ أو ربما ترغب في مشاركة «روميو» و«جولييت» ليلة من ليالي الحب؟ أو «لانسيلوت» و«غوينفير» أو«تريستان» و«أيسولد»؟ ما رأيك أن أنقل لك ساعة واحدة من سويعات «هيلين» زوجة «مينيلوس» ملك «اسبارطة» التي كانت أجمل النساء في ذلك الوقت والتي وقع «باريس» ابن ملك «طروادة» «بريام» في حبها وخطفها وعاد بها إلى «طروادة» ذلك الحب الذي أدى إلى تدمير «طروادة». أنا أحب هذا النوع من العشق الذي ينتهي بتدمير المدن وخراب الأمم. طبعاً أنت تعلم أن ذلك العشق أغضب اليونانيين الذين جمعوا جيشاً جراراً لاستعادة «هيلين» ودمروا «طروادة» وأعادوا «هيلين» إلى «اسبارطة» لتعيش مع زوجها «مينيلوس» بقية حياتها.

بالطبع أنا أعلم أنك في قرارة نفسك يعجبك مثل هذا الكلام وتحب سماع هذا النوع من القصص. وأظن أن الفصل الأول من قصة حياتي قد

أوحى إليك بالكثير من الأفكار، ولربما تكون الآن قد فكرت في سرد قصة حياتك. أريدها مجردة مثل سيرتي هذه، بلا أكاذيب أو تلفيق. هكذا.. حقائق مجردة من كل ثوب. هل تجرؤ؟ لا عليك، ولكن دعنا الآن نعود إلى حيث تركنا النسوة في ذلك الكهف القريب من أوروك في الزمان القديم ولنر ما الذي حدث هناك.

(6)
سِفْر الهروب

لم أطمئن إلى الهدوء الذي رأيته في مدينة أوروك فقدرت أن الكهنة لن يستسلموا بهذه السهولة ولابد أنهم الآن يبحثون خارج المدينة. عدت مسرعاً إلى الكوخ فقرأت القلق في وجوه الجميع. النساء لاحظن حركة بحث دءوب في الغابة التي تحت الجبل. ولابد أن الكهنة قد استنفروا أهل أوروك جميعهم لمطاردة الخاطفين. انتهاك حرمة المعبد جريمة لا تغتفر عند أهل أوروك، وحين يصل الأمر إلى اختطاف قربان الإله (أوتو) من أيدي الكهنة فإن هذا يزيد الأمر سوءاً فما بالك باختطاف كاهنة بالمعبد وأخرى مرشحة؟

النسوة كن قد توجسن حين سمعن حمحمة فرسي من بعيد قبل أن يرينني فظنن أن أهل أوروك قد علموا بأمر الكهف، ولا بد أنهم قادمون ليقتادوهن إلى وسط المدينة فيقدموهن قرباناً للإله (أوتو) جراء ما فعلن. وحين بدا وجه الفرس ثم عنقه ورأينني أقوده صاعداً ناحية مدخل الكهف تنهدن في ارتياح. «ميسون» هرعت ناحيتي وأحاطت رقبتي بذراعيها بقوة. فعلت ذلك بتلقائيتها المحببة ولم تكن تدرك عاقبة ما فعلت. وحين انتبهت لنفسها انتفضت فجأة وأنزلت يديها وتراجعت للخلف ثم استدارت في حياء متشاغلة بإصلاح هندامها وتسوية شعرها في حين كانت تنظر بمؤخرة عينها ناحية «ماوية» دون أن تلتفت ناحيتها. كان حضنها ولهفتها شيئاً يحدث

معي لأول مرة فأيقظ في نفسي مشاعر شتى، أيسرها الرغبة التي تشتعل في أجساد بني الصلصال في مثل هذه المواقف.. المشاعر التي تشتعل في نفسي الآن لم أعرفها من قبل، وأجمل ما أحس به هو أن هناك شخصاً يثق بي ويهتم لأمري ويعتمد عليَّ. تمنيت لو أنها لم تتخل عن معانقتي وأنها أبقت ذراعيها حول رقبتي مليون عام. أنا أحسدكم معشر بني الصلصال على المشاعر الإنسانية التي تكتنفكم. أنتم تعتقدون أنها علامات ضعف في حين أنني أعتبرها أشد مظاهر القوة التي تملكونها. مساكين بنو الصلصال لا يعرفون قيمة ما يملكون. أتمنى أن أشرب من دفء مشاعركم هذه بقية عمري فأبقى ثملاً بجميع مشاعر بني الصلصال.

أخرجتُ «ميسون» من الحرج الذي أحست به بأن خاطبت الجميع في حين ظللت ممسكاً بيدها:

- «ميسون» محقة فيما تحس به فالمكان لم يعد آمناً، وعلينا أن نرحل.

وبالطبع فقد انتبهت «مايا» و«ماوية» لكل إشارة قمت بها وكل رمشة عين واختلاجة جفن وكل حركة من حركات يدي وكل التفاتة. النساء دقيقات الملاحظة فيما يتعلق بالمشاعر حتى وإن لم يتكلمن. وحين لاحظت ذلك أرسلت يد «ميسون» فارتدت إلى جنبها بتلقائية وكأنها يد ميتة لا حياة فيها، وأدركت بعد فوات الأوان أنها لم تكن تريدني أن أترك يدها حين حاولت أن تفعل أي شيء بتلك اليد التي تعرضت تواً للخذلان، فرفعتها قليلاً وشبكت بها يدها اليسرى من أمام وقالت:

- ولكن إلى أين؟ وهل تظن أن الكهنة يعتقدون أننا شريكان في هذا الأمر؟

قالت «ماوية»:

- بالطبع يا «ميسون» بل يقيني أن الكهنة وجميع أهل أوروك يلقون بالمسئولية الكاملة عليك فأنت أخبرتني أنهم لم يروا «مياس» أصلاً.. ولا يعرفون حتى الآن كيف اختفينا بهذه السرعة، ولابد أنهم قد أمضوا وقتاً طويلاً يبحثون في الجوار، فلم يخطر ببالهم أن لدينا فرساً سريعاً وفارساً قوياً مثل «مياس»..

قالت هذا ونظرت ناحيتي نظرة مليئة بالاتهام والشك، فقابلت نظرتها بابتسامة مجاملة ولا أخفي عليك أنني امتلأت زهواً وتيهاً في تلك اللحظة.. ولكن «ماوية» أصابتني بالذهول والدهشة حين استدارت مخاطبة «ميسون» بلهجة يقينية:

- ما قام به «مياس» لا يمكن أن يقوم به بشر.. وكأن «مياس» هذا مؤيد بقوة خفية أو بروح من الأرواح.

قالت ذلك دون أن تنظر ناحيتي.

أدركت أن «ماوية» تشكل الآن خطراً حقيقياً على أسراري، فهي إن لم تكن قد كشفت أمري تماماً فإنها توشك أن تفعل. هذه المرأة تستطيع أن تخترق ببصيرتها كثيراً من الحجب. ولابد أن السر يكمن في هذه الصلوات التي ترتلها وترددها ليل نهار والتي تفتح بصيرتها وتصلها بالسماء. قلت لها متضاحكاً ومحاولاً أن أخفف من وقع الصدمة:

-ههه!! ربما أرسلتني الأرواح لأنقذك من الهلاك يا «ماوية»، فيبدو أن أمرك يهمهم. أو ربما أرسلتني لأنقذ «ميسون»... و«مايا». وواضح أن الأرواح لم تحتمل أن ترى كل هذا الجمال يهدر على المذبح قرباناً للإله (أوتو)..

لاحظت أن «ميسون» قد فتحت فمها وعقدت حاجبيها في دهشة مصطنعة أو ربما في عدم رضى فقد فهمتْ أنني أغازل «ماوية» بهذه المجاملة. ولكن المرأة قالت:

- ولكن كيف تفسر سرعة اختفائك وظهورك؟ وقوتك الخارقة رغم كونك شاباً في العشرين من العمر فقد تمكنت من حملنا جميعاً بل والجري بسرعة هائلة وأنت تحملنا.. وكيف تفسر قوة فرسك على حملنا جميعاً فقد كان يعدو بنا ولم تكد حوافره تلامس الأرض حتى أنني أحسست أنه كان يطير طيراناً بدل أن يعدو. وكيف تفسر قدرتك على..

- رويدك رويدك يا «ماوية» فقد كدت أصدق من كلامك أنني مؤيد من الأرواح بالفعل.

- إذن أخبرني من أنت ولماذا تلبس لباس الأمراء ومن أين جئت فجأة فنحن لا نعرف بلاداً قريبة يلبس أمراؤها مثل ما تلبس. وهل جميع الأمراء عندكم بمثل قوتك هذه؟

ساد المكان صمت مهيب.. وبقيت أفكر في مخرج من هذا المأزق الذي أوقعت نفسي فيه.. وسرعان ما قطعته الفتاة «مايا» متكلمة لأول مرة:

- أظنه من أمراء الشرق يا سيدتي، فقد رأيت أمراء من الهند يلبسون قريباً من هذا الزي.. أمراء الشرق أقوياء جداً. أتمنى أن أتزوج بأحدهم!

قالت هذا ثم نظرت ناحيتي نظرات ملؤها الوله!

- نعم نعم. أنا من أمراء الشرق فعلاً وأنا غريب على هذه البلاد وقد رأتني «ميسون» لأول مرة حين كنت على أبواب أوروك حتى أنني طلبت منها أن تدلني على نزل أو مكان أستريح فيه.

قالت «ميسون» وقد اقتربت مني وكادت أن تمسك بثوبي ويبدو أنه لم تعجبها عبارة «مايا» الأخيرة:

- بلى بلى هذا صحيح !!

ولكن «ماوية» تساءلت في دهشة:

- ولكن أنت لا تتكلم الهندية وبدلاً من ذلك فأنت تتكلم الأكدية بطلاقة. !!

ولذت بالصمت، فلم أجب على تساؤلها وأظهرت أنني منشغل بجمع الأغراض. وترك صمتي هذا علامات استفهام أكثر . ولكن «ماوية» لم تنتظر جوابي فقد كانت هي الأخرى منشغلة بالصلاة قبل أن نستعد لمغادرة الكهف. وفي ذلك الحين استدعيت قدرات الأطياف لقراءة أفكار «ماوية» فلم أتمكن. لقد كان عقلها كأنه محاط بغلاف من الرصاص فلم أتمكن من اختراقه ولم أتمكن من حل رموزه أو معرفة شفرته وبقي عصياً على فهمي. أعدت المحاولة كرات ومرات وفي كل مرة كانت قواي تنهار أمام جدران عقلها المغلق الصلب.

عقل «ميسون» و«مايا» كأنه كتاب مفتوح مكتوب بخط كبير على صفحات شفافة تظهر جميعها في وقت واحد. كنت أستطيع أن أعرف فيم تفكران وبماذا تحلمان. كان كل شيء يدور في خاطريهما يبدو مكتوباً على جبين كل واحدة منهما فالأفكار مفضوحة والإشارات والعبارات مكشوفة وكأن صفحات كتابيهما تتقلبان تلقائياً وتدعواني لقراءتهما في إغراء مثير. ماعدا «ماوية» التي أعجزتني فاحترت أمام غوامض أسرارها المغلقة التي لم أستطع اختراقها أو العبث بها. كان كتابها مختوماً وكان عصياً.

وندمت على احترافي الكذب بهذه السهولة والاتقان، وسخرت من نفسي وأنا أحاول إخفاء حقيقة هويتي وبقيت أردد في سري ساخراً من أسلوبي الجبان:

- نعم نعم. أنا من أمراء الشرق فعلاً وأنا غريب على هذه البلاد !!

ياللحقارة. توقعت في نفسي أن تكون «ماوية» مطلعة على كذبتي هذه ولعلها الآن تضحك في سرها من كلامي هذا.. من يدري؟

●●●●

الغابة تعج بالأطياف الهائمة، ولكنهم يهربون مذعورين كلما رأوني قادماً أو رائحاً، وهذا يوفر لي غطاء لأتحرك بحرية دون تحرش من جنود أبي أو نقل للأخبار عن النسوة، فالجميع يظن أن أبي هو الذي أتى بهؤلاء النسوة

إلى الكهف لأمر ما. ولشدة خوفهم من أبي فقد كانوا لا يجرؤون على استراق السمع أو اختلاس النظر لمعرفة ما يدور داخل الكهف. أكثر شيء أخشاه هو أن يكتشف أبي بنفسه ما يدور داخل الكهف. وأنا أعلم أن أبي منشغل بأسطورة «جلجامش» داخل أسوار أوروك، وأن هذا الأمر لن يستمر طويلاً ولذا فمن الأفضل أن أبادر بالابتعاد قدر الإمكان عن «بابل» وما حولها وأتوجه شمالاَ. ولا أعلم لماذا أفعل هذا أصلاً، فقد أصبحت أحمى هؤلاء النسوة حتى انعقدت بيني وبينهن رابطة لا تفسير لها. كما أنني أعلم في قرارة نفسي أن هذا الأمر لن يدوم فهن من بني الصلصال وأنا من بني النار وبيننا ما صنع الحداد، ولكن ماذا أفعل إزاء المشاعر الإنسانية التي تشدني برباط غريب فأنقاد لها صاغراً مطيعاً. أخشى أن أنقلب على هذا الأمر فأحطمه في مثل غمضة عين.

●●●●

لاحظت أن المرأة الإبرامية «ماوية» لا تضمر أي حقد تجاه «مايا» التي كانت تمسك بالمثقاب لإراقة دمها في المعبد حين رأيتها أول مرة. وبدلاً من ذلك فقد أوجد ذلك الحدث نوعاً من التقارب بينهما ولا أدري لماذا فربما لتأمن كل واحدة منهما الأخرى أو لأن فيه نوعاً من الاعتذار الضمني وإثبات أن ما حدث لم يكن بإرادة أي منهما. أنا موقن أن التقارب من ناحية «ماوية» لم يكن مصدره الخوف أبداً، ولا أظن أن «مايا» كانت تخشى

انتقام «ماوية» فهي تعلم أن المرأة الإبرامية ليست من هذا النوع. وفي مرة وجدت «ماوية» جالسة على الأرض والفتاة «مايا» جالسة بين ركبتيها و«ماوية» تمشط لها شعرها. وأنا أعلم أن هذا النوع من العلاقة عند بني الصلصال يعني التقارب والإلفة بين الأم وابنتها ويعني حنو الأمومة. وكانت «ماوية» منهمكة في تعليم «مايا» بعض الكلمات باللغة السريانية وفهمت أنها تعلمها أسماء أعضاء الجسم و«مايا» تردد وراءها مثل الببغاء:

أيدو : يد

قرعو : رأس

أذنو : أذن

و«مايا» سريعة التعلم فالكلمات سهلة والعبارات متقاربة بين اللغات في المنطقة كلها. وكانت تضحك وهي تردد وراء «ماوية» وكأنها طفل يتعلم مباديء الكلام:

أونو : أنا

هيّا : هي

أحنا : نحن

هنَّ : هم

و«ميسون» التي تفهم اللغتين معاً تتابع بابتسامة وتهز رأسها مؤمنة على كل كلمة تقولها «ماوية» وأحياناً تشارك «مايا» الضحك. فجأة يجعلك كل هذا تحس بقيمة أن تكون فرداً من أسرة تعيش معاً، تتشارك المأكل والمأوى والاهتمامات، ويعتني كل فرد منها بالآخر ويهتم لأمره. نحن معشر

الأطياف لا نعرف مثل هذه المعاني أو أنها عندنا لا تعني شيئاً كثيراً رغم ارتباطي بطيف أمي وتعلقها بي إلا أن العيش مع أرواح حية هو أمر آخر مختلف تماماً .

●●●●

غادرنا الكهف ووجدت «ماوية» فرصة للانفراد بي فقالت:

- إلى أين نحن متوجهون؟

- ربما إلى مصر !!! من يدري!! أي مكان بعيد عن هذا المكان. ألا تخشين أن تقعي في أيدي أهل (أوروك) الغاضبين؟

- لو قلت في أيدي الكهنة لقلت لك نعم ولكنني كنت أتمنى أن يعثر عليَّ أهل (أوروك).

قلت في دهشة واضحة:

- معقول هذا؟ ولماذا؟

نظرت المرأة في عينى طويلاً ثم قالت:

- سوف أحاول أن أشرح لك هذا الأمر بطريقة مبسطة حتى يمكنك استيعابه. لقد أشاعوا في المدينة أنني أهنت (أوتو) إلههم الذي يعبدونه، ورغم ذلك ما كانوا يجرؤون أن يقدموني قرباناً علانية لأن ذلك كان سيغضب قومي وعشيرتي لكوني (أَوِيلُم) فلجأوا إلى اختطافي سراً للتخلص مني بتقديمي قرباناً في المعبد، وربما يكون السبب في أنهم لم يلاحقوني حتى الآن هو أنهم

يخشون انكشاف سرهم لدى أهل (أوروك) وهذا أمر مدمر لكهنة المعبد.

- عجيب هذا!! ومن هم الـ (أَوِيلُم) هؤلاء وماذا يكونون؟

قالت «ماوية»:

- (أَوِيلُم) تعني السادة أو الأحرار فأنا من الطبقة العليا في أوروك. وسوف تعجب إن ذكرت لك أمراً آخر وهو أننا نحن الثلاثة (أنا وميسون ومايا) من ثلاث طبقات مختلفة في أوروك، وقد يكون هذا الأمر عندكم في الهند أيضاً – إن كنت من الهند حقيقة - فمجتمع بابل ينقسم إلى ثلاث طبقات: طبقة الأحرار (أَوِيلُم)، وطبقة الفلاحين (مُشْكِنُم) وطبقة العبيد (وَرْدُم). فأنا من طبقة (أَوِيلُم) و«ميسون» من طبقة المشكينم.

قالت هذا ثم سكتت فعلمت أن الفتاة «مايا» هي من طبقة العبيد (وَرْدُم)، وعجبت من أدبها في الحديث حيث لم تذكر صراحة أن «مايا» من طبقة العبيد فقلت في دهشة:

- ولكنني رأيتك تمشطين شعر «مايا»!! أيعقل هذا عندكم؟

قالت «ماوية» دون أن تنظر ناحيتي:

- نعم.. أعني لا لا. ليس معهوداً عندنا.. ولكنني لا أتحرج عن فعله فأنا إبرامية.. ولعل هذا هو السبب الذي لم يعجب الكهنة فألبهم عليّ وجعلهم يشيعون ما أشاعوا فقد كنت أدعو إلى تساوي هذه الطبقات فكل من تحت أديم السماء متساوون فقد ولدوا مثلنا أحراراً، وكون بعضهم فلاحين لا ينقص من إنسانيتهم أو آدميتهم ولا يحط من قدرهم. ثم ما الذي يجعلنا نسيء إلى العبيد؟ إن كان حظهم العاثر قد أوقعهم في أيدينا ليكونوا

أسرى في الحروب، فلا يعني هذا أنهم كانوا عند أهلهم عبيداً فقد كانوا أحراراً وعلينا أن نعاملهم مثلما نعامل الأحرار حتى يتم إطلاق سراحهم أو تحريرهم.

هذه المرأة تتمتع بمنطق فريد، ولاحظت قوة شخصيتها قبل ذلك رغم تواضعها وأدبها الجم. وبدأت أراجع كل ما انطبع في ذهني عنها من معلومات خاطئة. عليّ أن أنتبه إلى الفرق الواضح بينها وبين الفتاتين. لاحظت فعلاً الطريقة التي تلبس بها وأسلوبها في الحديث، وشموخها واعتزازها بنفسها، ودقة ملاحظتها وقوة منطقها ومعرفتها باللغات، وأدهشني جداً أنها تعرف اللغة السومرية الأكدية والسريانية الآرامية وتعرف لغات أخرى.. وأدهشني أدبها حين تركت «ميسون» تترجم كلامي لها بالأكدية ولم تحرجها. أدركت أنني أمام إحدى سيدات البلاط في أوروك، وتحققت ظنوني حين أخبرتني:

- أنا من أسرة ملكية في أوروك، ولكننا على دين غير دين أهل أوروك فهم يعبدون (أوتو) إله الشمس.

- وأنت ماذا تعبدين إذاً؟ أليس هو (أوتو)؟

- نحن، أعني أنا أعبد الإله الواحد الذي خلق الشمس والقمر والنجوم. وأنا على الحنيفية دين «إبرام» النبي.

كنا نغذ السير متجهين غرباً وقد آلت الشمس للغروب مرسلة أشعة ذهبية على سطح الماء الذي كنا نوشك أن نعبره بفرسي.

- أنظر يا «مياس» الشمس على وشك المغيب.. لا يمكن أن نعبد إلهاً يغيب..

قاطعتها الفتاة «مايا» ولكن باضطراب:

- ولكن يا سيدتي.. ولكن.. ولكن الشمس هي مصدر الحياة على الأرض فبدونها لا تكون حياة!!

- إنها ليست الإله يا «مايا» ولا يمكن أن تكون إلهاً. فالشمس لا تملك أمر نفسها.. وليست لها إرادة. الإله الواحد يأتي بها من المشرق للمغرب كل يوم فهل استطاعت الشمس يوماً أن تخالف هذا وتأتينا من المغرب مثلاً؟

الصمت الذي ساد للحظات بعد هذا الحوار جعلني أتأمل الغروب ومنظر الشمس التي بدأت تختفي وراء الكثبان، وعجبت لمنطق هذه المرأة الإبرامية في الاستدلال. منطق بسيط ولكنه قوي ومقنع جداً.. وبالفعل لاحظت الحيرة الواضحة على وجه الفتاة «مايا» وكأنها بدأت تشك في كون الشمس إلهاً حقيقياً..

●●●●

تلك الكذبة الكبيرة بكوني أميراً من أمراء الهند جعلتني أراجع ذكرياتي ومعلوماتي عن الهند حتى لا أخطيء فيما لو أعادت «ماوية» الكرة أو

أرادت أن تختبر صدق ادعائي. وأول ما شد انتباهي في الهند هو أن أبي كأنما أراد أن يترك بصمة مختلفة للعقائد في كل بلد، ففي حين تجده يتولى تقديس الأجساد في مصر واستبقاءها للحياة الأبدية وجدته في الهند يتولى إنكار الجسد ويؤمن بتناسخ الأرواح وأنها لا تنال الخلاص إلا إذا فني الجسد كل الفناء.

نحن – أعني بني النار - لنا تاريخ عريق جداً في الهند فقد سكنت أرواح بني النار بلاد الهند واستوطنتها كثيراً. وكان اسمهم (راكشا) وكانوا يسكنون في الطرق وعلى ينابيع المياه، وكانت منهم قبائل (ياكشا) الطيبون الهائمون على وجوههم، وكان منهم المتمردون من جنود أبي الذين يسكنون المقابر والصوامع ويتحالفون مع الموت والخراب، وكانوا مشوهي الخلقة قباح الأجسام للبعض منهم رأسان وللبعض ثلاثة أرجل، ومنهم من له عين واحدة في رأسه وآخرون لهم عدة أعين.

كان «الراكشا» يغتصبون النساء ويتلصصون في الطرق المقفرة ويستبيحون الأذى من أجل العبث والدعابة. وكان لهم رئيس اسمه «رفانا» وهو الذي اختطف الحسناء «سيتا» زوجة البطل «رام» ثم حملها إلى جزيرة سرنديب، ولم يستطع زوجها أن يهتدي إليها ويخلصها من الأسر إلا بمعونة القرد هنومان. ومنذ ذلك اليوم اتخذ الهنود القرود أصدقاء لهم وتركوها حرة تهيم في المعابد والطرقات.

قام أبي بنشر عقيدة البراهمة وجعلهم يعتقدون في ثلاثة أرباب: «براهما» الإله الخالق و«فشنو» الإله الحافظ، و«شيفا» الإله الهادم. وجعل لكل إله زوجة قرينة له اسمها «شاكتي» تنوب عن الإله في أعمال البيت وفي جميع الأعمال التي يتركها الإله. فهي الأم الإلهية والكائن الأعلى وهي تجسد قوة وطاقة زوجها فتجسد قوة فيشنو في «الفيشنوية» وشيفا في «الشيفية» حيث تأخذ اسم «ماهسواري» عند إرادة الشر بينما تأخذ اسمها «أوما» و«جوري» للرحمة والمودة. وربما تتسمى باسم «كالي» إذا أرادت النقمة وسوء النية.

●●●●

نجح أبي في إقناع الجميع في الهند أن الشر ينحصر في المرأة، فكل مطمع وشهوة وكل فتنة بلذة من ملذات العالم المحسوس ومقتنياته تجتمع في المرأة فهي سبيل جميع الروابط الدنيوية فالمرأة هي «المايا» وهي أنثى شديدة الفتنة والغواية. وتحكي أساطيرهم أن الشيطان اسمه «المارا» وهو الذي وسوس للناسك «بوذا» ليشغله عن النسك ويصده عن الزهد والحكمة والاعتدال.

بعد أن راجعت معلوماتي عن الهند انتبهت الآن لماذا كانت «ماوية» تنظر وتبتسم حين كنت أمسك بيد «ميسون» فقد كانت تعلم أن المرأة عند

أهل الهند تمثل الشر نفسه فكيف لأمير من الأمراء الذين يعتبرون في مرتبة الآلهة أن يقوم بإنقاذ هؤلاء النسوة ويعتني بهن بل ويمسك بيد إحداهن.

وعلى الفور أدركت أنه ينبغي لي أن أتخلى عن هؤلاء النسوة في أسرع وقت. ولكن كيف وقد تورطت معهن، وشدتني «ماوية» فملأتني رغبة في التعرف على دينها وعقيدتها، بل إنني كنت أنوي أن آخذها وأسير بها إلى مصر حيث توجه «إبرام» حتى أراه وأتعرف عليه. وماذا أفعل بطيف أمي الذي كان يوجهني للبقاء مع هؤلاء النسوة.

قلت للمرأة الإبرامية:

- حدثيني عن «إبرام» هذا الذي أنت على دينه

- ماذا تريد أن تعرف عنه؟

- كل شيء

- حسناً .. هو الأب الرفيع.. هو من هنا من هذه البلاد. ولد قرب أوروك ونشأ فيها وهو صغير، ثم هاجر إلى حران في الشمال، وهناك عرف «ساراي» ثم عاد إلى أرض «كنعان» وأقام حول «نوزي» و«عورة» و«وراو».

- لا لا يهمني هذا!!

- وما الذي يهمك إذن؟

- أريد أن أعرف دينه.. إلام يدعو ومن الذي أرسله؟

- أهاا. حسناً حسناً.. هو يعبد الإله الواحد (الله) ويدعو إلى دينه. الله دعاه للذهاب إلى «الأرض المباركة» التي أراها له ووعده أن يباركه ويجعل له أمة عظيمة. و«إبرام» وثق بوعد الله له، فرحل إلى «شكيم» وهناك عند الشجرة المقدسة أُعطيَ العهد بأرض له ولذريته.

- وهل هو هناك الآن؟

- لا أعلم فيبدو أنه في ذلك المكان أو حوله.

- أريد أن ألحق به هناك حتى أراه.

- خذني معك إذن فأنا أريد أن أراه.

- وهل تقدرين على السفر.

- سوف أحتمل من أجل رؤية «إبرام» و«ساراى».

عجبت من حب «ماوية» لـ«إبرام»، ومن قوة عقيدتها وثباتها وحكمتها. تعلمت منها دروساً كثيرة، وودت لو أن أمي مثلها وتمنيت لو أن أمي كانت من أتباع «إبرام». ودون أن أشعر فقد شدني الشوق لرؤية «إبرام» وعزمت على ملاقاته ورؤيته ومعرفة حقيقة ما يدعو إليه. وقد كانت مشاعر هذه المرأة وحبها لإبرام وشوقها لرؤيته شيئاً جديداً لم أعرفه من قبل، فقد كان نوعاً من الحب الحقيقي والولاء القائم على الفهم والمنطق واستخدام العقل وليس ذلك الولاء الأعمى الذي اعتاد سكان هذه المنطقة تقديمه لكهنة المعابد.

«ماوية» تؤمن إيماناً قاطعاً بأن كل ما يقوله «إبرام» هو الصواب، وتدافع عن ذلك الإيمان بكل ما أوتيت من قوة وهي مستعدة للتخلي عن كل المتع التي توفرها لها طبقتها الرفيعة فهي من طبقة الأَوِيلُم - وهي الطبقة العليا في أوروك، طبقة السادة والأحرار - من أجل أن تسافر لتقابل «إبرام» وتتبعه وتتعلم منه. وهي لا تأنف من صحبة امرأتين من طبقة الفلاحين وطبقة العبيد وذلك وفقاً للدين الذي يدعو إليه «إبرام». وبالطبع فهذا دين خطير يهدم عقيدة عبادة الشمس ودين الكهنة بل يهدم كل ما بناه «عزازيل» في مجتمع بابل على مدار السنين والدهور الماضية .

وعقدنا العزم على المسير حتى نلحق بإبرام. ومن يدري فربما أراه فأسمع منه حتى أعلم أي دين هذا الذي يجعل «ماوية» مستعدة للتخلي عن طبقتها الرفيعة بما توفره لها من سيادة ومتعة ونعيم، من أجل أن تتبع إبرام وتتعلم منه.

(7)
سدوم وعمورة

ظللنا طوال الطريق نتحدث كثيراً ونصمت أوقاتاً أكثر. وكان الحديث يدور حول دين «ماوية» أحياناً، وعن طبيعة الحياة في مجتمع (أوروك) في أحيان أخرى. ولما يحين دوري في الحديث أبدأ في الكذب كثيراً عن الهند ومجتمعها ولكنني كنت أدرك المقولة التي تقول: إذا أردت أن تكذب فاحفظ ما تقول جيداً فكنت أتحفظ في الكلام ولكن «ماوية» بتلقائيتها وبساطتها تجعلني أنطلق في الحديث معها. وحين كنت أخلو بـ«ميسون» بعد أن نحط الرحال عند قدوم الليل تصبح للكلام وجهة أخرى مغايرة تماماً، فقد أصبحت أتقن لغة الغزل التي يجيدها بنو الصلصال، فكنت أذيق «ميسون» سُكَّر الكلام وأشرب منها عسل الهمس الرقيق، تحت قبة السماء الزرقاء، والنجوم ترقب خطيئتنا وتتضاحك في خفر. والفتاة «مايا» تخدمنا وتطوف علينا بما لذ وطاب، مما كنت أسرقه من طعام من قوافل المارة، أو أصطاده من أرانب برية أو حيوانات يلقي بها حظها العاثر في طريقنا.

ولكنني بقيت متوجساً من «ماوية» التي كشفت سري وهي لا تأكل من طعامي بل تكتفي بالثمار التي تقطفها من الأشجار البرية طول الطريق. وذلك يغيظني بالطبع ويجرح كبريائي ويحط من كرامتي، ولكنني أسكت على حنق وأغض على غيظ موار أكتمه في جوانبي وأظهر ابتسامة صفراء فهمتها «ماوية» وتجاهلتها غير مبالية.

بعد أن تجاوزنا منتصف الطريق إلى الأردن قابلنا نبع ماء عذب فوار في نهاية ذلك اليوم الحار من أيام الصيف اللاهب، والتعب قد بلغ بالنساء أشده، وحين رأين الماء سمعت صيحات التهلل والفرح تنبعث من أفواههن، وشاهدت ردة أفعالهن المختلفة تجاه ذلك النبع.

الفتاة «مايا» خلعت ملابسها ولم تبال بي أو بالفتاتين الأخريين وركضت عارية وألقت بجسدها في الماء وبقيت هناك.

«ميسون» حاولت أن تحذو حذو الفتاة ولكن حياءها مني منعها فاكتفت بأن ألقت نفسها في الماء ولكنها احتفظت بملابسها.

أما «ماوية» فقد بقيت في كامل زيها حتى وصلت الماء فوضعت جبهتها على الأرض ساجدة ورفعت كفيها وعينيها نحو السماء قبل أن تتقدم نحو الماء واثقة الخطوة تمشي في هيبة وثبات ثم تنحني لتغسل وجهها وتغرف فتشرب ولم تنس أن تتنحى ناحية بعيداً عني حتى لا أنظر إليها من الخلف وهي منحنية لتشرب.

أشرت للفرس فتقدم نحو الماء بعيداً عن الفتيات وانحنى يشرب في حين كنت منشغلاً بفك لجامه وإنزال السرج عن ظهره وحل المتاع من جانبيه.

وفي غمرة كل هذا نسيت أن أشرب أو أقرب الماء، وليتني فعلت. «ماوية» لاحظت هذا فأيقنت أنني لست بشراً، إذ لا يعقل أن يسير أي بشر طوال هذه المدة في لهب الصحراء اللافح وشمسها المحرقة ثم يرى نبع الماء الصافي ولا يندفع نحوه كالمجنون ليروي عطشه. كانت «ماوية» تشك حتى تلك اللحظة في بشريتي ولكن مخاوفها تأكدت حين رأت ما رأت عند نبع الماء، فنفرت مني وبدأت تتلو صلواتها وتعاويذها. حين لاحظت ذلك اندفعت نحو الماء فشربت منه ثم حاولت الاقتراب منها والتودد إليها بالمزح حتى تطمئن لي ولكنها زادت نفوراً ورأيت تيارات الغضب على وجهها، وقرأت البغضاء لما أقوم بفعله منبعثاً من قلبها. كان الصراع يحتدم في نفسي بين البقاء مع هؤلاء النسوة حتى يبلغن مأمناً من سطوة الكهنة أو يعثرن على «إبرام» وبين الفرار خزياً لأن أمري قد انكشف، وستري قد افتضح. وحاولت جهدي أن أتجاوز هذا الموقف فلم أفلح.

●●●●

يبدو أن المرأة الإبرامية «ماوية» أبلغت «مايا» بما تظنه من أمري، وواضح أن «مايا» قد صدقتها لأن مشاعرها نحوي سرعان ما تبدلت فكانت تلوذ بـ«ماوية» وتجلس خلفها في غير ما سبب واضح. ولم تكن «ميسون» لتصدق هذا فيما لو أخبرتها «ماوية» فهي غير مستعدة لتصديق أي شيء عني يكون ضد توجه قلبها الذي تعلق بي أيما تعلق. وحين خلوت

بـ«ميسون» تأكدت أن «ماوية» لم تخبرها فقد بقيت في عوالم هيامها بي وتعلقها بشخصيتي الجذابة. مسكينة فهي لا تعلم أنها تعلقت بآمال كاذبة، ووهم وسراب لا يلبث أن يسفر عن حقيقة مؤلمة، ووجه شائه قبيح. وكنت أخشى من اقتراب هذه الحقيقة لأنني كنت أستمتع بصبحة «ميسون» كأكثر ما يستمتع به بنو الصلصال وبدأت أدرك معها قيمة المشاعر البشرية وصدق الأحاسيس التي تحس بها حين تمنح قلبك لشخص ما ويمنحك قلبه.

●●●●

وفي صباح اليوم التالي أومأت لي «ماوية» بإشارة فاقتربت منها أملاً في عودة المياه إلى ما كانت عليه من أجل مواصلة الرحلة على الأقل. ولكن «ماوية» خيبت ظني حين قالت:

- أسمع أيها (الشيء)، أنت صنعت جميلاً حين أنقذتنا من الموت، وربما كان مقدراً أن يحدث هذا لنا على يديك، فأشكر ربي عليه كما أشكرك أيضاً.. ولكنني تعلمت من الزمان أنك نفس خبيثة، تعيش الكذب، وتستمريء الخداع. وهذا الأمر لو انطلى على الفتاتين فإنه لا ينطلي على الحنفاء أبداً، فأنا – كما تعلم - من الحنفاء أتباع ملة «إبرام»..

قاطعتها في لهجة الاستنكار والتعجب، ولكن قدراتي لم تسعفني هذه المرة لأجيد التمثيل أو استمر في الخداع.

- ماذا تقولين أيتها المرأة ماهذا الذي أسمعه منك؟ هل طار عقلك

على ذلك المذبح في معبد أوروك؟ أم ما الذي حدث لك؟ ما أنا إلا مخلوق مثلك، فما الذي يميزني عنك؟ قولي لي أجيبيني.

كانت حيرتي واضطرابي تفضحان أمري وكان صوتي وأنا أحدثها وكأنه قادم من أعماق بئر لا قرار لها. ولم أكن أجسر أن أنظر في عينيها مباشرة.. وحاولت الاستمرار في المداهنة ولكنها نظرت لي نظرات ذات مغزى وفهمت منها أنها لن تصدقني أبداً ثم بادرتني بقولها:

- اسمع أيها الشيء. إن كنت تشك لحظة في أنني قد عرفت حقيقتك فأنت واهم. أنا أعلم جيداً من أنت. وإن رغبت أن تستمر في الكذب حتى نرى الأب الرفيع «إبرام» فيكشف لنا جميعاً حقيقتك أمام الملأ فلا مانع عندي، ولكنني أريدك أن تعلم أنني قد عرفت حقيقتك ولن أجاريك في تمثيليتك هذه حتى لا أعينك على الكذب، وأرجوك أن تكف عن الكذب على تلك الأخرى المسكينة فهي تظن أنها قد تعلقت بأمير من أمراء الهند على الحقيقة، ولا تعلم أنها تعلقت بطيف كذاب متنكر في جسد بشري يلبس زياً هندياً.

حين فكرت في أنني سأقف بين يدى «إبرام» أصابني الارتباك والحيرة وارتعدت فرائصي خوفاً وتصلب تفكيري فأصابه الشلل المفاجيء. لم أعرف كيف أتصرف بروية وعقلانية. لم أفكر في «ميسون» وما سوف يحدث لها إن أنا تخليت عنهم وتركتهم في هذا المكان المقفر في منتصف الطريق. كنت خائفاً وحسب. غريزة الخوف عندي هزمت العقل والتفكير. وكانت كرامتي

قد جرحت بكلام «ماوية» الذي كان قاطعاً مثل حد السيف. أغلقت عقلي وقلبي ومشاعري وعدت إلى طبيعتي فأنا في نهاية الأمر من بني النار.

فجأة خطر لي أن أن أستبق «ماوية» لأرى أين يكون «إبرام» في تلك اللحظة. كان شغلي الشاغل هو أن أبريء ساحتي أمام «ميسون» وأن أستمر في التظاهر أمام «ماوية» حتى لو أدى ذلك للكذب على «إبرام». وكنت أعلم في قرارة نفسي أنني لن أستطيع هذا فـ«إبرام» مشهور بين أهل (أوروك) وفي كل مكان آخر بأنه متصل بالسماء. جميع الأطياف يخشونه و«عزازيل» لا يطيق سماع اسمه.

حين فكرت في كل هذا تخليت عن النسوة بكل برودة أعصاب. تخليت عنهن وتركتهن في ذلك المكان البعيد عن العمران والمدن والناس.

فجأة تحول ذلك الأمير الهندي الكذاب الذي تقمصته إلى طيف قبيح في هيئته الأصلية وطار محلقاً في السماء بين ابتسامة «ماوية» وخوف «مايا» وذهول «ميسون» التي ارتمت على مؤخرتها وسقطت على الأرض واضعة يديها فوق رأسها وهي تنظر إلى السماء حيث حلقت أنا وفرسي وغبنا في الفضاء البعيد في مثل لمح البصر. لحظات الحقيقة السافرة مُرَّة صعبة، تدمي القلوب وتنكأ الجروح ولكن ليست تلك الجروح التي تكون على الجلد واللحم بل هي جروح عميقة غائرة تصل إلى القلب ثم تبقى فيه فلا تغادره أبداً. جروح الحقيقة السافرة لها مخالب تنشب وتتشبث بالقلب.

لم أفكر كثيراً فيما فعلته تلك اللحظة فقد تعطلت في نفسي جميع المشاعر التي كنت أحس بها حين كنت أتمثل في شكل من أشكال بني الصلصال. لم أعد أحس بها في تلك اللحظة. وطرت بلا تفكير وكأن هناك قوة خفية تمسك بي من قفاي وتوجهني وتدفعني، وكنت أتبعها بلا تفكير حتى أتيت وادي نهر الأردن وهناك حدث ما لم أكن أتوقعه حين حلقت فجر ذلك اليوم فوق مدن الأغوار..

●●●●

رأيت ملايين الأطياف الحائرة المرتبكة وهي تطير بعيداً عن سماء الأغوار، وأخرى خائفة مذعورة وهي تطير ولا تلوي على شيء فعلمت أن هناك شيئاً كبيراً وخطيراً على وشك الحدوث، ولم أعلم ماهو. وشممت رائحة أبي في المكان فقد غادره مسرعاً، ويبدو أنه غادر مذعوراً خائفاً، فقد شممت رائحة الخوف تنبعث في أثره. وزادني هذا الأمر فضولاً وتصميماً على أن أعرف ما الذي يجري. وحين كنت أهم بالتحليق فوق «سدوم» و«عمورة» رأيت موكباً صغيراً للرجل الصالح صاحب «عمورة». اسمه النبي «لوط». رأيت مركبته وهو يغادر المكان على عجل ولم تكن زوجته معه، ولكن كان معه رجلان أو ثلاثة في موكبه ذاك. ورجل يعدو خلفهم يسب ويشتم ويهذي بكلام بذيء، ولكن لم يلتفت أحد من ذلك الركب المغادر أبداً ولم يتوقفوا ليردوا على الرجل الذي كان ينادي في سخرية، ويتحرش بموكبهم.

ومضى الموكب في طريقه يطوي الأرض طياً.

هل أخبرتك أن «سدوم» و«عمورة» و«صبييم» و«أدومة» في غور الأردن هي كأشد ما تكون المدن جموحاً؟ هي مدن الشهوة المنطلقة والشذوذ المستباح الذي لا تحده حدود. وكانت في ذلك الزمان مليئة بالأطياف من بني النار حتى إنك لتظن أن أطياف الكون جميعهم قد اجتمعوا فيها. ورغم وجود ذلك الرجل الصالح «لوط» فيها فترة من الزمان إلا أن أهلها قد سنوا قوانين خاصة بهم تخالف كل قانون عرفته الأرض قبلهم. فقانونهم ينص على التخلي عن كل ما له علاقة بالطهر والبراءة وإنكار كل ما يتعلق بالأخلاق، بل وتوقيع أشد العقوبات على من يخالف هذا القانون، وأقل هذه العقوبات هو نفي المخالفين وإخراجهم بالقوة من تلك المدن. كان الرجال يتزوجون الرجال وكانت النساء يتزوجن النساء. وكان الجميع يسيرون عراة. الرجال والنساء في الأسواق والطرقات والمجالس والأندية والبيوت. وكان القوم لا يتورعون عن فعل أي شيء في أنديتهم بل وينكرون على من يشنع عليهم صنيعهم هذا رغم تحذيرات الرجل الصالح لهم، فقد آذوه حتى أنهم استخفوا بضيوفه وحاولوا الاعتداء عليهم وواضح أنهم أخرجوه وطردوه من قراهم جميعها فقد كانوا يرفضونه ويستهزئون به ويهينونه ويهينون ضيوفه ولم أعجب حين رأيته يغادر مسرعاً حزيناً مهموماً.

ما رأيته فوق غور نهر الأردن في ذلك اليوم هو من أشد المناظر

التي أصابتني بالهلع طوال سنوات عمري كلها، ولم أر منظراً مماثلاً له على أي كوكب من الكواكب ولا في أي عصر من العصور. فقد نبهتني الأصوات الفزعة المرعبة التي أطلقتها الطيور قبيل الفجر على غير عادتها وقد بلغت الملايين وغطت أجواء السماء وأصابتني بالذعر فطرت معها حتى حلقت فوق غور الأردن. رأيت الطيور قد طارت حتى بلغت ارتفاعات شاهقة لم تبلغها من قبل وهي تصيح صيحات فزعة وتصدر أصواتاً غريبة، والحيوانات تهرب من المكان بأقصى سرعة بلغتها.

وفجأة رأيت كل شيء بوضوح لحظة انبلاج الصباح وكأن الصبح قد انتظر حتى أتمكن من المشاهدة. الوادي كله يهتز تحت «سدوم» و«عمورة» عند انبلاج الصبح وينشق شقاً عظيماً خلال لحظات ثم يغوص إلى أعماق سحيقة، وتغوص معه المدينتان إلى جوف الأرض ويهتز الوادي كله من أقصاه إلى أقصاه كأعنف ما يكون الاهتزاز والأرض ترجف والحمم والبراكين تنفجر من طرفي الوادي، وترتفع الغازات الخانقة والدخان من جوف الأرض فتبلغ عنان السماء، وتشتعل الحرائق في كل مكان.

على مدار ثلاثمائة كيلومتر كانت الأرض تهتز وترتج وتتصدع وقد انفتحت فوهات البراكين على طول ذلك الصدع وتطايرت الحمم وثارت في الأجواء فأضاءت المكان كله بنيران سوداء مظلمة وانطلقت أصواتها كأشد ما تكون الأصوات رعباً. فعلى الأرض الزلازل والدمار والشقوق التي يبلغ عرض

الواحد منها خمسين كيلومتراً أو أكثر وكأن الأرض قد انقلبت إلى وحش عملاق جائع هائج يبتلع كل ما حوله. وفي الأجواء من فوقه حمم البراكين المتفجرة التي هي مثل الجبال المضيئة الطائرة في الفضاء.

وفجأة انخفض سطح الأرض أكثر من خمسمائة متر في تلك المنطقة وغاص ثم تساقطت حمم البراكين مختلطة بماء المطر النازل من السماء والذي كونته السحب السوداء والدخان والغازات والأبخرة فيستمر في السقوط بعد ذلك أياماً وليالي حتى تكونت بحيرة عظيمة في تلك الأرض المظلمة. وظل المكان بلا حياة.. لا حيوان ولا نبات ولا أسماك ولا حشرات ولا طحالب ولا هواء ولا شيء على الإطلاق. فقط السكون المهيب والصمت المطبق الكئيب. كان كل شيء في المكان ميتاً. البحر ميت والأرض حوله ميتة هامدة صامتة مظلمة داكنة كئيبة. والدخان الأسود يلف المكان ويغطي الأجواء.

فجأة أصبحت أكثر المناطق سكاناً وعمراناً هي أكثر مكان موحش وكل شيء كان فوق سطح الأرض أصبح في لحظات تحت سطح البحيرة الميتة الهامدة. الغابات والأغصان وجذورها الممتدة أصبحت تحت المياه السوداء الخامدة. «وادي سديم» الذي كان أجمل أماكن غور الأردن والذي كانت تملؤه الأشجار الخضراء اليانعة والورود المتفتحة... بقي تحت الماء الأسود... ميتاً محنطاً..

كلما ذكرت ذلك المنظر أو تذكرته ارتعشت روحي خوفاً وهلعاً.. فخلال لحظات اختفى مئات الالاف من «الكنعانيين» و«الفرزيين» الذين كانوا في سهول نهر الأردن الريانة بين «سدوم» و«عمورة»، ابتلعتهم الأرض وغطتهم البحيرة.

علمت بعد ذلك أن «إبرام» حين علم بحادثة «سدوم» غادر تلك الأرض الملعونة وذهب إلى مصر هو و«ساراى» وخادمهما «أليعازر الدمشقي». لا سيما وأن المنطقة التي كان فيها قد وقعت فيها مجاعة قضت على كثير من الناس. ونظرت فرأيت أن كثيرين يمموا وجوههم شطر مصر. الناس دائماً حين تحدث المجاعات والأزمات في أغوار الأردن يهبطون إلى مصر. وكان الناس في تلك الأيام يهاجرون إليها بالمئات أو بالآلاف وحين يدخلونها يبقون في مدن الشرق ويسافر البعض منهم غرباً حتى يصل نيل مصر. وهذا هو ما فعلته تماماً فقد قررت أن أتبع إبرام وأتوجه إلى مصر فربما أقابله هناك.

(8)
برابي مصر

كم أرهب مصر وأخشاها.. مجرد ذكر اسمها يشعل في نفسي اختلاجة لا تتلاشى.. كنت ساذجاً حين استخففت بها وبأهلها. لم أكن أعلم أنها أصل الحضارات القديمة لبني الصلصال وأنها ملتقى الحضارات التي قامت حولها وأخذت منها. حين نظرت إليها لأول وهلة وقفت طويلاً بين يدي صحرائها الممتدة، والنيل يشقها في شموخ ورغم ذلك الوقوف الطويل والتأمل إلا أنني لم أصدق ما رأيت.

مصر تخطف أنفاسك في كل شيء. هي بلاد الدهشة الحقيقية. شعبها طيب مسالم، ولكن لا تنخدع ففي جوف تلك الطيبة والسلام براكين تغلي، يفجرها الاستخفاف بذلك الشعب، فتلك الطيبة تبقى مطمورة تحت الأرض حتى تستعديها عليك وحين تفعل أيها المسكين وتتفجر براكين الحمم لا تعرف من أين يأتيك الموت ولن تفلت منها مهما أوتيت من قوة. مصر ظل يتداول على حكمها معظم الجبابرة، وفي كل مرة كانوا يفنون ومثل الدخان يتلاشون، وتبقى آثارهم شاهدة عليهم. وتبقى مصر ترضع من ثدي النيل وتأكل من خيرات أرضه وثمار زرعه وتتدثر بغبار الصحراء من حوله. فلا النيل يتوقف عن السريان ولا المصريون يتوقفون عن فلاحة الأرض بالجواميس والثيران.

النظرة الأولى لا تخبرك بكل شيء عن مصر. الفلاحون منتشرون في كل مكان يفلحون الأرض ويسقون الزرع وقد ربطوا رؤوسهم بمناديل بيضاء وشدوا أوساطهم بأزر منسوجة من قماش الكتان المصبوغ باللون الأبيض، وهواء النيل يملأ رئتيك بالانتعاش وماؤه العذب البارد يغريك بأن تعب منه، والمراكب الشراعية المصنوعة من ورق البردي تمخر عبابه في شموخ. في كل شارع من شوارع مصر منظر مختلف وحركة غير التي في الشارع الآخر. وكل حارة من حاراتها وزقاق من أزقتها مليء بالحياة والحركة. وكل مدينة في مصر هي نسيج وحدها ولا تشبه أختها.

●●●●

حين دخلت مصر توقفت قليلاً في مدينة «بيت أتوم» في الشرق قريباً من منطقة السويس الحالية، وذلك قبل أن أطير إلى صعيد مصر حيث مدينة «أبيدوس» غرب «البلينا». تلك المدينة القديمة المقدسة في مصر العليا والتي كانت عاصمة مصر الأولى. لاحظت وجود عدد من المعابد المتناثرة هنا وهناك مثل معبد «سيتي الأول»، ومعبد «رمسيس الثاني». وشدت انتباهي تلك النقوش البارزة الجميلة. وفي أطراف السوق رأيت رجلاً طاعناً في السن بهي الطلعة سمح الوجه فرأيت أن أتجاذب معه أطراف الحديث، فكبار السن هم دائماً ثروة غنية بالمعلومات والمعارف. ودنوت منه فحييته وعلى الفور عرف من لكنتي المصرية المتكلفة أنني غريب على هذه البلاد،

فأجلسني وقدم لي شراباً. ثم قال:

- أكيد أنت من الحجاج!

- حجاج؟؟ آآآ .. حجاج ماذا؟

- حجاج الإله (أوزوريس)!

- ومن هو الإله (أوزوريس) هذا؟

قرأت الدهشة الخضراء مكتوبة بأحرف كبيرة واضحة على وجه هذا العجوز الذي بدا وكأنما ضربته صاعقة فوق هامة رأسه الأصلع ذي الشعيرات القليلة المليئة بالشيب والمتناثرة على صدغيه وأطراف رأسه. ولكنه حاول إخفاء دهشته تلك بابتسامة عريضة مرحة، فقد وجد شخصاً يجهل الإله (أوزوريس). ولابد أن هذه فرصة كبيرة لحوار سيطول واحتساء بضعة أقداح ومراجعة المعلومات التي يبدو أنه قد طالت المدة على آخر مرة يستمع إليه فيها الغرباء وهو يقصها ويعيد حكايتها في اعتداد وزهو، وهو في كل مرة يغير قليلاً من ألفاظ الحكاية، أو ترتيب الأحداث، حتى لا يمل منه من سمعها من قبل، وحتى يستمتع هو نفسه بالحكاية فلا يحس أنه يكرر نفسه:

- عفوا يا بني، حين رأيتك ظننت أنك من الحجاج فالناس يأتون إلى هنا من أماكن بعيدة ليبكوا الإله (أوزوريس).

وسكت العجوز قليلاً ليستجمع أنفاسه وأفكاره ثم تابع الحوار:

- ما اسمك يا بنى؟

- آآآ.. حور!

- حور.. من؟

- (حور عحا)..

اللعنة!!!. يبدو أنني سوف أستمر في الكذب على بني الصلصال بقية عمري. فقد اخترعت الاسم بسرعة فصدقه العجوز دون تردد. ولم أندم على اختراع الاسم رغم أن معلوماتي عنه كانت قليلة. ورأيت علامة الرضى ترتسم على جبينه وفي محياه. وتبرع فزودني بالمعلومات عن (حور عحا) على الفور..

- أهاا.. جميل جميل.. (حور عحا) ابن الملك (مينا).. أنت هو الملك المحارب إذاً!! كان ملكاً عظيماً وهو الذي أنشأ جيش مصر وهزم النوبيين الذين حاولوا احتلال مصر وهزم الليبيين أيضاً..

- نعم نعم.

أحسست بالزهو لأنني وفقت في اختيار الاسم رغم أنني اخترعته في تلك اللحظة فقط.

- ولكن يبدو من هيئتك أنك لست مصرياً رغم أنك تلبس لباس المصريين وتتقن لهجتنا.. !!

- لا أكتمك فأنا لست مصرياً ولكنني أحب المصريين، ولهذا فأنا أتشبه بهم.

- كان هذا واضحاً يا بني من النظرة الأولى فمن من المصريين لا يعرف الإله (أوزوريس)؟.. هذه المدينة يابني هي مركز عبادة الإله (أوزوريس).

يحج إليها جميع المصريين فيذهبون إلى قبر (الأوزيريون) ليبكوا الإله (أوزوريس) حارس الحياة الأبدية.

- نعم نعم. وما اسمك أيها الشيخ الوقور عفواً..؟

- (تحوت) اسمي (تحوت) !!! هل تعرف معنى اسمي؟

- لا يا أيها الشيخ. أخبرني..

- (تحوت) هو ابن الآلهة فقد ولد من جمجمة الإله (ست)، ثم أصبح هو قلب الإله (رع) ولسانه، فهو ينقل إرادة الإله (رع) للبشر.

رغم أنني عجبت من انتشار الأساطير عن الآلهة والملوك في مصر وقبلها في «بابل» وما حولها إلا أنني بقيت أستمع للعجوز في شغف كبير وكان لا يتردد في الكلام ولا يتلعثم بل ولا يبحث عن المعلومات في ذهنه أو يستدعيها فهي تجري على لسانه بسرعة مدهشة.

- الإله (تحوت) والإلهة (ماعت) يقفان دائماً على جانبي مركب (رع). ولأن تحوت هو إله السحر والكتابة والأدب والعلم فهو الذي علم المصريين كل هذا، وهو الذي يشترك في حساب الموتى ويمتلك قدرات سحرية فائقة.

حين وردت كلمة السحر على لسان هذا الشيخ العجوز تذكرت كلام «أشتوت» عن المصريين وعن رحلته لمصر والتي ألف فيها «كتاب تحوت» الذي يحول قارئه إلى أعظم ساحر متمكن في العالم. كنت قد نسيت هذا الكلام حتى ذكرني إياه الشيخ العجوز الذي يجلس القرفصاء ويشرب من كأس مصري جميل ويقص عليَّ الحكايات والأساطير في مدينة «أبيدوس»

المليئة بالحركة والحياة.

- (تحوت) هو أصل التقويم في مصر فالتقويم عندنا اسمه التقويم التوتي أو التحوتي. وطبعاً أنت تعرف أن أول شهور السنة المصرية هو شهر «توت».

- آه نعم أعرف!!

وفي الواقع لم أكن أعرف.! ولكن الكذب أصبح يجري على لساني دون أي إحساس بالحرج منذ أن خالطت بني الصلصال بعد أن كان شيئاً غريباً في باديء الأمر.!!

- و(تحوت) هو أحد شهود محكمة الموتى فبعد الموت يمثل الميت أمام محكمة مكونة من اثنين وأربعين قاضياً للاعتراف بما كان يفعله في حياته، وفي مقدمة هؤلاء القضاة (رع) - حوراختي ويكون الإله أوزوريس جالساً على العرش وتقف خلفه أختاه (إيزيس) و (نيفتيس) ويقف أمامه الأبناء الأربعة لحورس يأتون فيقفون على زهرة البردي وهم الذين يحافظون على جثة الميت في القبر.

- وكيف تجري المحاكمة يا تحوت؟

- يأتي (حورس) بالميت لابساً ثوباً جميلاً ليمثل أمام (أوزوريس) وأثناء المحاكمة يأتي (أنوبيس) فيصاحب الميت لإجراء عملية وزن قلبه حيث يقوم (أنوبيس) بوزن قلب الميت ويقارنه بريشة الحق (ماعت) ، بينما يقف الوحش (عمعموت) منتظراً إلتهام القلب إذا كان الميت خطاءً أو عاصياً، ويقوم (تحوت) (إله الكتابة) بتسجيل نتيجة الميزان بالقلم في

سجله.

- أنت هو (تحوت) إذن الذي يكتب ويسجل النتائج؟!

- نعم ياحور! أنا هو.

- ولكن من هم هؤلاء الآخرون؟ وكيف أصبح الإله (أوزوريس) هو الذي يمثل أمامه الجميع؟

- كان الإله (أوزوريس) ملكاً عادلاً محباً للخير يحكم مصر من مقره بالوجه البحري، وهو الذي علم المصريين الزراعة وحب الوطن ونشر العدل في فترة حكمه لذلك أحبه الشعب، و لكن أخاه (ست) حقد عليه بسبب حب الشعب له ولذلك فقد فكر في مؤامرة يقتله ويتخلص منه بها ، وكان (ست) يطمع في عرش مصر، فأعد وليمة كبيرة دعا إليها أخاه الملك وجاء بتابوت مرصع بالذهب والجواهر وأخبر الحاضرين أن هذا التابوت سوف يكون من حق من يكون التابوت على مقاسه. ومعلوم أن (ست) قد حرص على أن يصنع التابوت بحيث يتطابق مع مقاس (أوزوريس) فقط. وبالفعل بدأ الجميع في تجربة التابوت ولكن التابوت لم يكن على مقاس أي واحد منهم. ولما جاء دور) أوزوريس) دخل في التابوت واستلقى فكان التابوت على مقاسه تماماً. وفي الحال أغلق (ست) وأعوانه التابوت عليه ورموه في النيل فمات (أوزوريس) غرقاً وتخلصوا منه بتلك الطريقة الماكرة.

- ياللهول يا تحوت معلوماتك رائعة!!

يبدو أن الشيخ الوقور (تحوت) قد أثاره اندهاشي لغزارة معلوماته فتحمس لإكمال الرواية وبرقت عيناه وقال:

- هل أعجبتك القصة يا (حور)؟ دعني أكملها لك إذن. قلنا إن (أوزوريس) مات غرقاً ولكن (إيزيس) لم تقف مكتوفة الأيدي وإنما بدأت البحث عن جثه زوجها حتى عثرت عليها عند شواطيء جبل (بيبلوس) ولكن (ست) أفلح في سرقة الجثة وقطعها إلى أربعة عشر جزءاً ثم فرقها في أماكن مختلفة في مصر ولكن (إيزيس) و (نفتيس) تمكنتا من استعادة تلك الأشلاء، واستعانتا بسحرهما لإعادة الروح إليه لفترة من الوقت وولدت) إيزيس) منه ولداً هو (حورس) عن طريق السحر. وقد كان من الصعب أن يحيا (أوزوريس) مثل حياته الأولى فلزم عليه أن يحيا في مملكة الموتى و يكون ملكاً.

- آه الآن فهمت لماذا هو هناك.

- و اختفت (إيزيس) عن عيون (ست) حتي وضعت طفلها (حورس) وقامت بتربيته في أحراش الدلتا سراً وتعاونت معها الآلهة في تربيته حتي شب وصار رجلاً، وعندها عادت به (إيزيس) إلى الوادي لتطالب (ست) بعرش زوجها (أوزوريس) فقد أصبح من حق ولده (حورس). ولكن (ست) لم يقتنع بأن (حورس) هو ابن (أوزوريس) فدارت المعارك بين (حورس) و(ست) وقفت فيها الآلهة الي جوار (حورس) حتي انتصر في النهاية علي (ست).

- أكمل أيها الشيخ الوقور أكمل..

- عند ذلك عقدت الآلهة محاكمة لـ(ست) وأدانته على ما فعل ومنحت حكم البلاد لـ(حورس) بينما أصبح (ست) حاكماً على الصحراء.

وأعادت الآلهة الحياة لـ(أوزوريس) ولكنه رفض أن يكون ملكاً على الأرض وفضل أن يكون حاكماً للعالم السفلي بعيداً عن الشر الذي يكتنف الأرض ويملأها.

- جميل جميل جداً.. أشكرك يا (تحوت)..

ضحكت في سري عجباً من هذه الأسطورة وعجبت كيف يؤمن الناس بهذه الأحاجي والحكايات وهم الذين ينسجونها من محض خيالهم ثم يصدقونها بعد أن يكونوا قد زادوا فيها ونقصوا منها بتعدد الرواة ومر الأزمان. وكلنا يعلم أن (أوزوريس) لم يكن أسطورة وإنما كان ملكاً حقيقياً عاش في العصور السحيقة على أرض مصر وكانت عاصمته هي «بوزيريس» شرق الدلتا. وقد مات غرقاً على يد (ست) الذي قاد ثورة ضده انطلقت من مدينة «أتبوس» التي أصبحت بعد ذلك مقر عبادة الإله (ست) ومنذ ذلك الوقت انقسمت مصر إلى مملكتين إحداهما في الدلتا والأخرى في الصعيد قبل أن يتم توحيدهما بعد ذلك كما هو معروف في التاريخ وكما سمعته من بني الشيصبان.

ولكن كل هذا لم يكن يهمني فقد كان يهمني أن أعرف أين هو «إبرام»، لقد قطعت كل هذه المسافات وطرت في الهواء وتجشمت المصاعب وتشكلت في شخوص عديدة وأنا أبحث عنه. «إبرام» الذي يرعبني ذكر اسمه رغم أن «ماوية» قد زادت شغفي لمعرفته بكلامها عنه وإيمانها العميق بما

جاء به. كنت أتأرجح بين الخوف وحب الاستطلاع ولكن شغفي للمعرفة واجترائي لرؤيته كان أكبر من خوفي منه. وكان هناك شيء ما يدفعني دفعاً للبحث عنه ورؤيته أو الحديث معه بأي ثمن.

وبعد بحث طويل علمت أن «إبرام» موجود في مصر. في ضيافة «أبيمالك» الذي استقبله واستقبل زوجته «ساراى» أيضاً.

ذهبت باكراً إلى القصر متنكراً في زي كاهن مصري مهاب ففتح لي الحارس باب القصر دونما أي تردد وأدخلني. الكهنة لهم مكانة كبيرة ويستطيعون الدخول إلى أي مكان، والمصريون يحترمونهم ويكادون يقدسونهم.

حين ولجت القصر نظرت حولي فرأيت أحد الطهاة جالساً على دكة خشبية خارج المطبخ الملوكي يتنفس هواء الصباح العليل فتقدمت نحوه وحينما رآني وقف احتراماً وحياني فرددت عليه التحية ثم دعاني للجلوس فقبلت الدعوة على الفور وبادرته بالسؤال:

- ما اسمك؟

- «حوران» يا سيدي الكاهن المبجل.

«حوران» رجل عظيم البطن وكأنه امرأة حبلى في شهرها الأخير ولكن وجهه ضاحك بشوش وهو سريع الحركة رغم كرشه الممتد أمامه. ورأيت أن أبدأ حديثي معه بما يجعله يفخر بنفسه قليلاً فبادرته بالسؤال:

- ماذا طبخت اليوم يا «حوران»؟

رأيت البشر في عينيه وهو يرى أحد الكهنة يسأله عن شئونه وأحواله وعمله، فهو لم يعتد مثل هذا الأمر من قبل أبداً. وسرعان ما انطلق يتحدث بسرعة كبيرة وكأنه غير مصدق أنه يتحدث إلى كاهن، فأراد أن يقول كل شيء بسرعة قبل أن يخرسه هذا الكاهن الغريب:

- أنت تعلم يا حضرة الكاهن المبجل أن هناك ثلاث وجبات يومية وثلاثة مستويات من الوجبات أطبخها كل يوم أولها لسيدي «أبيمالك» وضيوفه. ووجبته اليوم هي عجل مشوي وأوز محشي متبل باليانسون والكمون والقرفة والشمار والحلبة والزعتر والخردل. أقدم كل ذلك مع الخبز بالزبد والبيض مع الفاكهة والجعة بالطبع. وهناك وجبة لسكان القصر مكونة من اللحوم والطيور والأسماك والخضر والفاكهة. أما الخدم فيأكلون الخبز مع الجعة و بعض ثمار البصل والثوم والعدس والكرات والفجل والخس والخيار وأحياناً تكون لدينا الفواكه مثل التين والجميز والنبق والعنب والرمان والبطيخ والبرقوق. وفي أحيان كثيرة أصنع الحساء من مرقة الحمام.

- عجباً وهل تطبخ كل هذا وحدك؟

ضحك كبير الطهاة حتى رأيت أسنانه الصفراء التي تشرمت بفعل الزمن، ولم أعلم هل ضحك سخرية من معلوماتي القليلة عنه، أم أنه ضحك فرحاً باستمرار الحوار بينه وبيني، وقد قدرت أن فرحه بالحوار هو الذي دفعه للضحك، بدليل أنه لم يحاول مداراة ضحكته التي أظهرت تلك الأسنان

الصفراء. قال «حوران»:

- لا ياسيدي بل أنا كبير الطهاة ويعمل تحت إمرتي جيش من الطهاة والعمال والخدم، ومعظمهم جيء بهم من بلاد الزنج.

- من هم ضيوفكم اليوم؟

- لا يوجد لدينا ضيوف اليوم يا سيدي ولكن قبل بضعة أيام غادرنا ضيف مهاب كنت أطبخ له العجول المشوية هو وزوجته.

- عجباً وما اسم هذا الضيف يا «حوران»؟

- كان اسمه «إبرام» وزوجته اسمها «ساراى»..

- وما حكاية هذا الضيف وما شأنه؟

سرعان ما حكى لي كبير الطهاة كل شيء، فقد انطلق يحدثني بقصة «إبرام» مع «أبيمالك». المصريون يحبون أن يحكوا الحكايات. فما إن تسأل أحدهم عن أمر ما حتى ينطلق يحدثك عن كل شيء حتى وإن لم تطلب منه ذلك.

قال «حوران»:

- لقد رأيت «إبرام» وزوجته الجميلة «ساراى».. وكنت أطبخ لهم العجول المشوية كل يوم وأصناف الطعام المختلفة بأمر من سيدنا «أبيمالك». لقد كانت ساراى زوجة «إبرام» فائقة الجمال وكان واضحاً أن «إبرام» قلق على «ساراى» من المصريين لجمالها، لذلك قال إنها أخته لكي يحافظ على سلامتهما. ولكن كلام «إبرام» هذا لم يخلصهما من «أبيمالك»، الذي أمرني بأن أطعمهم العجول المشوية كل يوم، وكان جميع الخدم تحت

أمرهما. فعل الفرعون ذلك لأنه كان يريد أن يتزوج «ساراى» زوجة «إبرام». ولكن الفرعون أصابه بلاء عظيم فتخلى عن «ساراى» وترك «إبرام» وساراي ليغادرا أرض مصر. ولم يكن «إبرام» يكذب حين قال إن «ساراى» أخته فهي حقاً أخته ولكنها ليست الشقيقة ومعلوم أن الزوجة منذ القدم وحسب الشرائع القديمة، كانت تعتبر أختاً أو أنه كان يجوز الزواج من الأخت غير الشقيقة

- عجباً ولكن كيف عرفت هذا كله يا «حوران»؟

- أخبرني بذلك «أليعازر الدمشقي» الذي كان يرافق «إبرام» ويبدو أنه كان خادمه أومدير شئونه أو نحواً من ذلك . ولكن من أين أتيت أيها الكاهن المبجل؟ فأنا لم أرك في هذه الأنحاء.

- نعم بالفعل أنا من «بيت أتوم» في الشرق. جئت لأرى النيل العظيم فلم يسبق لي أن شاهدته من قبل.

- جميل. إذن هل تأذن لي أيها الكاهن المبجل أن أصطحبك في جولة على النيل غداً؟

ووافقت على الفور فقد كنت تواقاً لرؤية نيل مصر.

●●●●

وفي صباح اليوم التالي أخذني حوران في قارب شراعي مخرنا به عباب النيل وظل يحكي لي أسطورة عروس النيل:

- أنت تعلم أن هذا النيل هو أحد آلهة مصر الكثيرة، النيل هو الإله «حابي»، فهو إله الخير والنماء والخصب.. وهو شريان مصر وقلبها النابض. وفي سنة من السنين امتنع النيل عن الفيضان وحل الجدب والقحط على أرض مصر وتعذب المصريون فأشار الكاهن على الملك بأن النيل غير راض وغير سعيد لأنه يريد الزواج ويرغب أن تكون له ذرية!!.

قال «حوران» هذا الكلام ورمقني بنظرة من طرف عينه ليرى ردة فعلي تجاه هذا الكلام غير المنطقي ودون أن يلتفت ناحيتي. وكنت أعلم أنه في قرارة نفسه غير مقتنع بما يقول ولكنه رمقني بتلك النظرة ليرى هل كنت مقتنعاً بما يقول أم أنني مثله لا أؤمن بهذه الأساطير. وكنت أعلم شدة ولع المصريين بتلك الحكايات والأساطير فسمحت له أن يحكي وأوهمته أنني مهتم. ولما رأى أنني مهتم لكلامه عن ذلك الكاهن تشجع وواصل الحديث:

- ومنذ ذلك اليوم الذي أعلن فيه الكاهن رغبة النيل في الزواج انهالت الفتيات الراغبات في الاقتران بإله الخير، فكانت مصر تقيم المراسم والاحتفالات ويقوم الكاهن باختيار أجمل فتاة وفي نهاية المراسم تكون العروس قد زينت بأبهى الحلل فتلقي بنفسها فى النيل وهى سعيدة راضية لانها ستلتقى بحبيبها إله الخير فى العالم الآخر. واستمر هذا الاحتفال سنوات وسنوات حتى إنه لم تبق فتيات يتقدمن لهذا الأمر، ولكن الكاهن أصر على استمرار الاحتفال.. وبحثوا عن عروس فلم يجدوا إلا بنت الملك وكانت جميلة وفاتنة ولها خادمة تقوم على رعايتها وتحبها حباً لا يوصف، فحزنت

الخادمة وأرادت أن تحتفظ ببنت الملك حتى لو انتهى الامر بعدم فيضان النيل، فأخذت تفكر حتى هداها تفكيرها إلى أن تصنع دمية شبيهة ببنت الملك فتكون تمثالاً طبق الأصل لا ينقصها الا وجود الروح فيها. وقالت للملك إن الاحتفالات ستقام في موعدها رغم أننى حزينة على فراق ابنتك الغالية. ثم قامت بتزيين العروس وأصرت أن تلقيها هي بيدها فى النيل لتزفها إلى حبيبها.

وبالفعل تمت المراسم وانتهى الحفل ولكن الملك أصابته كآبة وحزن شديد على فراق ابنته الغالية حتى أصبح طريح الفراش وهو لايدرى أن الخادمة قد أخفت البنت فى بيتها وبين أولادها ولما رأت حزن الملك وازدياد مرضه يوماً بعد يوم أشفقت عليه بعد أن كانت ستأخذ البنت لنفسها وتربيها على أنها ابنتها لأنها فى الواقع أصبحت فى نظر الجميع «عروسة للنيل». وفى صباح أحد الأيام أخذت الخادمة البنت وقالت للملك : هذه ابنتك سليمة معافاة لم يصبها أذى ولم تمس بسوء وكانت عندى مصونة مكرمة.

لم يتمالك الملك نفسه فأخذ ابنته بين ذراعيه وكان مثل المجنون غير مصدق وشكر الخادمة وقربها إليه ومنحها الكثير من الهدايا ثم أمر بأن تتولى الخادمة إلقاء عروس النيل بيدها كل سنة فكانت الخادمة تصنع دمية جميلة في كل عام وتقام الإحتفالات ثم تقوم الخادمة بإلقاء تلك الدمية في الماء لتصير عروساً للنيل.

قلت لحوران دون أن أشعر:

- لماذا تنسجون أساطيركم كلها حول المرأة وتقدسونها وتعظمونها فهي دائماً بطلة الأساطير والحكايات؟ هي عندكم إله العدل «أمهوت»، وهي «إيزيس»، هى إلهة الجمال، وهي... وهي.

بهت «حوران» من طريقة ردي عليه فلم يكن يتوقعها من كاهن مصري محترم، فصمت بقية الرحلة ولم يتكلم. وكنت أعلم أنه في قرارة نفسه يتساءل من هذا الذي برفقته، فكلامه لا يدل على أنه مصري أصلاً ناهيك أن يكون كاهناً.. ولكنني لم أكترث.

كنت أعلم أن أسطورة عروس النيل لا أصل لها ولكنني أردت أن أعرف كيف يحكي المصريون تلك الأساطير الشائعة ويتناقلونها بينهم..

كان كل همي هو «إبرام» ولذلك فقد تتبعت آثاره حتى رأيته وقد استقر به المقام في «بكة» ببلاد الحجاز وسرعان ما انتقلت إليها فاختبأت في بئر «ميمون» على الطريق إلى «منى».

(9)
غمام السديم

هل تذكر أنني حين قابلتك أول مرة ذكرت لك أنه لا أبناء لي ولا أحفاد، وأنني عشت حياتي كلها منفرداً وحيداً وغريباً. وأنه قد طاردتني جنود أبي معظم أيام حياتي، وحبسني النبي «سليمان» مدة من الدهر، وطاردتني أعمالي بقية الأيام؟ حسناً إن كنت قد نسيت هذا فدعني أقص عليك ما حدث لي في أيام عمري منذ أيام «إبرام» وحتى عهد «سليمان» وهي تزيد عن ألف عام. أنا أعلم أنك ستفتح فمك وعينيك من الدهشة وتقول لي ألف عام؟ فأقول لك وهل نسيت أننا طوال الأعمار جداً وأن البعض منا يعيش ملايين الأعوام؟ ولكن الألف عام لم تكن في عمري إلا مثل بضعة ساعات أو أيام. لم أحس بمضيها وانقضائها. وسوف أحكي لك كيف حدث هذا. ولكن لا تقلق فلن يكون كلامي عنها كثيراً.. كما أعدك بأنه سيكون ممتعاً ولن تمل من حديثي عنها حتى لو طال.

حين تتبعت خطى «إبرام» لاحظت أن أبي كان مهتماً به كثيراً، وكان يتنقل خلفه متخفياً وكان يدبر له المكائد والمؤامرات ويحيك الدسائس مثلما حدث في مصر وقبل ذلك ما حدث في بلاد الشام وغور الأردن، ولم يكن يدور في خلدي يومها أن أبي قد فطن إلى أن هناك طيفاً يفسد عليه أعماله، وهو قد لاحظ طيف أمي يحوم حولي كثيراً كما رأى بعينه الواحدة

بعض جنوده وبعض الأطياف يفرون من كل مكان أتوجه إليه. ولم يغب عني أن قدرات أبي على الشر والضرر والخبث والمكر هي فوق ما يمكن أن يخطر لخيال الكثيرين منكم ولكنني كنت أعتمد على أن أبي لا يمكنه أن يتعرف عليَّ فقد أخفت أمي رائحتي عنه فجعلت رائحتي تشبه رائحته جداً. ولكن أبي وبطريقة ما ربط العلاقة بيني وبين طيف أمي الذي كان يراوده كثيراً ويؤرقه. ورصدني وعرف حقيقتي في حين لم أنتبه لما كان يدبره في الخفاء. وغني عن القول أن أبي يتمتع بذكاء خارق وملاحظة قوية وذاكرة جبارة وأن ذكاءه هذا قاده إلى الجمع بين المعلومات وربط العلاقات بعضها ببعض فتوصل إلى اكتشاف علاقتي بأمي وربما عرف أنني ابنه..

أقمت في منطقة (مِنَى) قرب (بكة) ببلاد الحجاز حيث بقيت أذهب صباح كل يوم أراقب «إبرام» وابنه الصبي الوحيد «إسماعيل» وهما ينقلان الحجارة ويبنيان ذلك البيت الذي في أسفل بكة ثم أعود آخر الليل لأبيت في بئر ميمون على الطريق إلى منى.

في ذلك اليوم كنت أراقب «إبرام» وولده. كانا منشغلين في رفع القواعد وإذا بي أرى ظلمة تحوط المكان. أدركت على الفور أن هؤلاء هم جنود أبي وأنه قد أحيط بي. أبي يريد القبض عليَّ بأي ثمن ولو أدى ذلك إلى دمار الأرض كلها فقد كان الغضب يملأ جوانحه، كيف وهو سيد الظلام يغيب عنه أن أحداً ما من بني جنسه يفسد تدابيره ويشوش عليه أعماله ويساند أعداءه؟ ومن هو هذا الذي يجترىء على «عزازيل»؟ ومن هذا الذي

يخون قومه بني النار ويناصر بني الصلصال الذين تسبب أبوهم في لعنة أبي وطرده من السموات؟

●●●●

جنود أبي يتوافدون من كل مكان. رأيتهم هناك وعددهم يفوق المليون جندي. استدعى أبي جنوده وسفهاءه من كثير من الأقطار فجاءوا من وادي «برهوت» ومن أودية «عمان» وكهوفها، ومن سواحل «دلمون» وخرائب غور الأردن وصحراء الربع الخالي وبرابي «مروي» بشمال السودان وغابات أفريقيا. جاء أبي بجنود من الهند والصين وأبطال بني الشيصبان وبنى القماقم، وبنى النعمان، وبنى قيعان، وبنى دهمان، وبنى غيلان والشماشقة، والطماطمة الأبالسة والدناهشة وبنى الأحمر والميامين، فحضر معهم الملك ميمون أبانوخ وميمون السحابي، وميمون السياف، وميمون الغواص، وميمون الغمامي، وميمون الطراق، وميمون الأسود، وميمون بن سليط، وميمون الخطاف، وميامين كثيرون جداً. وتوافد أهل الزوابع وعلى رأسهم الملك الأبيض زوبعة. واستدعى إخواني الذين لم أرهم ولم أعش معهم يوماً واحداً وإنما سمعت عنهم من «أشتوت». استدعى عزازير، وساروخ، ودنهش، وناصور، وميمون، وزعزوع، وشمهورش، وبختيموس فجاءوا كلهم على الفور.

امتلأت أجواء المكان دمدمة وزمزمة وهزيماً كهزيم الرعد، زفيف الأرياش وحفيف الأجنحة يصم الأسماع، حتى لم يبق في أديم السماء مكان لم يملأوه. كانوا منتفخين غضباً وممتلئين حنقاً. سمعت صوت أبي الغاضب يأمرهم بإبعاد الأطياف والأرواح الأخرى من غير الجنود والتي جذبها الفضول لتشاهد ما يجري، فأمر أبي بإبعادهم وطردهم حتى لا يفسدوا عليه خطته. كان يريد القبض عليَّ بأي ثمن.

نظرت حولي فلم أجد مهرباً من هذا الحصار الكبير. أيقنت أنها لحظة الهلاك قد حانت. لو تمكن «عزازيل» من القبض على فلا شيء يمنعه من إرسالي للهلاك. أنا لا أخشى الهلاك فهو على الأقل سيخلصني من أبي ولكنني أخشى العذاب الذي سأعيشه لو قبض عليَّ لأنني أعلم أن «عزازيل» يملك مفاتيح العذاب التي لا تخطر على بال أحد منكم، وأن لديه سجوناً وأنكالاً في كل مكان وأنني سأعيش ما تبقى من عمر العالم في أتون تلك الظلمات وغياهب السجون.

كانت لحظة من لحظات عمري لن أنساها أبداً، ليس لأنني كنت خائفاً فقد كدت أموت من الرعب حينها، ولكن لأن ما حدث بعد ذلك غير مجرى حياتي كلها..

فجأة، ووسط كل هذه الملايين من جنود أبي الغاضبين ووسط الحشود الثائرة رأيت طيف أمي. كان كأشد ما تكون الأطياف هدوءاً. كانت مطمئنة.. ولم تكن مهتمة لهذه الحشود ولا لغضب «عزازيل» ولا حضور ملوك بني النار وحشد تلك القبائل في صعيد واحد.

كانت نظراتها تقول لي لا تخف ولا تخش شيئاً فلن يتمكنوا منك! ولم يستغرق ظهور طيف أمي أكثر من ثوان معدودات ولكنها كانت كافية لأن تقلب الموازين على «عزازيل» وجنوده، فقد بسط طيف أمي مفاتيح أسرار قوة «عزازيل» وعلومه ومعارفه أمامي لأختار منها ما أشاء حتى أتمكن من النجاة، ولم أضيع وقتي فعلمت ماذا سأفعل خلال الثواني القادمة.

أدركت أنني - بعد أمي - أملك مواهب كثيرة أهمها أنني أسرع طيف طيار في العوالم كلها. ولم يكن أبي يقدر أن يراني أصلاً فقد نجحت أمي في إخفاء طيفي لدرجة أن أبي لما لم يتمكن من رؤيتي حشد كل هذه الجموع لعل أحداً منهم يراني فيقبض علي. وكان كثيرون منهم يقدرون على رؤيتي إلا أبي الذي منعه طيف أمي من رؤيتي.

تذكرت في تلك اللحظة الحاسمة أن طي المسافات بالنسبة لي هو أمر نسبي لا تحكمني فيه قوانين الطبيعة الأرضية إلا إن تشكلت في جسم مرئي، وتذكرت أنني أستطيع أن أطوي ملايين الأميال في مدة زمنية لا تستطيع مقاييس بني الصلصال أن تحسبها لدقتها وتناهيها في القصر.

دلني طيف أمي على كيفية الانتقال بين النجوم والمجرات التي تبعد ملايين السنين الضوئية، خلال مدة قصيرة، وذلك عبر إرشادي إلى معرفة طيات دروب الكون المختصرة التي تختصر المسافات. أمي تفهم دروب الأكوان وأسرارها وطبيعة تكوينها وفيزياء المسافة، وتعرف الممرات وطرق العروج ومهابط النزول وبوابات الانتقال. علمني طيفها ألا أتجاوز تلك الدورب حتى لا أحترق بأتون الشهب والنيازك المدمرة أو أتوه في سدم الغيوم أو يجذبني إلى نواته كوكب في طور الفناء. ليس كل واحد من بني النار يملك القدرة على تجاوز المجرات إلى مجرات أخرى مجهولة فسيكون حتماً من الهالكين. لم أكن قد جربت في حياتي كلها شيئاً مثل هذا. كنت أعرفه فقط ولكنني لم أقم بفعله على الحقيقة فلم أكن مضطراً إليه قبل ذلك اليوم الرهيب في تاريخ حياتي.

أخطر مرحلة في العملية كلها هي لحظة الطيران من الأرض وحتى تتجاوز الطبقات الست المحيطة بالغلاف الأرضي، فحين تكون في الأرض تصير محكوماً بقوانينها الطبيعية فتشدك الجاذبية ويمنعك ضغط الهواء من الطيران السريع وحينها يتمكن جنود أبي من اللحاق بك والقبض عليك ولكن ما إن تتجاوز ذلك وتصبح في الفضاء الحر فحينئذ لا يقف أمامك شيء! كثير من جنود أبي الطيارين يعلمون هذه الحقائق البسيطة ولكنهم لا يعلمون كنه هذا الذي جاءوا يطاردونه ليقبضوا عليه وبذلك فلم يحسبوا للأمر حسابه ولم يعدوا له عدته.

فجأة رأت هذه الحشود شيئاً مثل الشهاب منطلقاً من فتحة بئر ميمون من حيث لم يكونوا يتوقعون. كان البئر قبل ذلك مليئاً بجنود أبي، وكانوا جميعهم يشمون رائحتي معهم ويحسبونها رائحة أبي «عزازيل» وكانوا يظنون أن الذي معهم في ذلك البئر هو «عزازيل» عينه، ولو كانوا يدركون أنني هو المطلوب وأن تلك الرائحة ليست هي رائحة «عزازيل» لسدوا باب البئر وحينها ما كنت لأتمكن من الخروج ولأصبحت سجين «عزازيل» بقية عمري.

تردد الجنود الطيارون وهم يرون شهاباً يطير ورائحة أبي تنبعث منه فقد ظنوا أن «عزازيل» هو الذي خرج من البئر، وكانوا يظنونني «عزازيل» بالفعل حين كنت معهم في ذلك البئر. وحين رأى «عزازيل» الشهاب المنطلق من فتحة البئر نحو السماء أطلق جنونه وجنوده وصاح فيهم من مكان آخر ليقبضوا علي.

كان الجنود حائرين بين ذلك الطيف الذي يحمل رائحة «عزازيل» والذي خرج من البئر تواً وبين صوت «عزازيل» الغاضب والمنبعث من مكان آخر مغاير تماماً والذي يأمرهم بالقبض عليَّ.

لحظة التردد والحيرة التي اجتاحت أولئك الجنود كانت كافية لأن أقطع خمس طبقات من الفضاء المحيط بالأرض وأصبح على مشارف الخروج من الكوكب والطيران الحر والتنقل بين العوالم. وفجأة وجدت الطيارين من جنود أبي من ذوي الأجنحة الأربعة يتوافدون خلفي مثل الشهب الثواقب. ولم أكن في مأمن فقد كانوا يستطيعون اللحاق بي لو ترددت ثانية واحدة، خاصة وأن منهم مردة عتاة أقوياء تفوق سرعاتهم سرعة الضوء بأضعاف مضاعفة.

ظننت في تلك اللحظة أنه قد سقط في يدي وأنني لا بد مأخوذ ومقبوض على، ولكن العناد الذي ورثته عن أمي جعلني أصر على مواصلة الطيران رغم أنني كنت أدرك أنه لا فائدة من المواصلة. وطرت بأقصى ما استطعت من قوة ولم ألتفت ورائي. وبالفعل فقد تجاوزت الطبقة السادسة من غلاف الأرض وخرجت منها وأنا غير مصدق لما حدث، وكنت أتساءل ما الذي منع هؤلاء المردة من اللحاق بي والقبض على. وبعد أن تأكدت من نجاتي ونظرت خلفي رأيت أن المسافة بعيدة بيني وبينهم فما الذي حدث ياترى ولماذا لم يلحقوا بي؟

كانت أمي تعلم أن هؤلاء المردة لا يمكنهم الطيران إلا إن سمح لهم أبي بذلك وكان يملك مفاتيح التحكم فيهم فلا يطيرون إلا بإذنه، وتمكن طيفها الذي يعلم تلك الأسرار من تعطيل هؤلاء المردة عن الطيران لثانية واحدة

كانت كافية لأن تضع مسافة بيني وبينهم تكفي للفرار والنجاة. وبالطبع لم يكونوا يعلمون أن هناك من يملك هذه الأسرار غير «عزازيل». كانوا مذهولين ومندهشين مما حدث فهناك قوة أخرى غير «عزازيل» تحكمت بهم. كانت هناك قوتان خفيتان تتصارعان، قوة «عزازيل» لإطلاق هؤلاء المردة خلفي وقوة أخرى خفية تمنعهم من هذا العمل في الوقت نفسه هي قوة طيف أمي «فريجا». ولأول مرة أجد أن طيف أمي يملك القدرة على القيام بهذه الأمور حتى بعد موتها بمدة طويلة، وأنا الذي كنت أظن أن طيفها عاجز عن فعل أي شيء حقيقي وأنه يكتفي فقط بالإيحاء والظهور والإشارة. واشتعل غيظ «عزازيل» وزاد حنقه وكنت أسمع صوته وهو يطير في الفضاء يبحث عني وهو يسب ويلعن ولكن على غير هدى فلم يكن يقدر أن يراني فأنا بالنسبة له مثل الشبح لبني الصلصال. وكان الجنود الغاضبون يطيرون في الفضاءات في كل اتجاه ولا يقدرون على اللحاق بي حتى غبت عن أنظارهم. وتساءلت كيف تمكن طيف أمي من فعل هذا وهي ميتة والأطياف الميتة لا تقدر على التحكم في الأشياء أو تحريكها.. ولكنني علمت السر وراء ذلك فيما بعد..

الذي أذكره بعد ذلك أنني طرت بأقصى ما استطعت من قوة واستخدمت كل مهاراتي في الطيران، فقد واتتني قوة خارقة لم أدر من أين جاءت ولا كيف انبعثت في جوانبي. الذي أعرفه أن لحظة الخوف حين تنتابكم يا بني الصلصال تبعث في جوانحكم قوة جبارة لا تتوقعون أنكم

تملكونها ولا تدرون من أين أتت، وهي قوة كافية لأن تجعل الواحد منكم يسابق أسرع العدائين ويتفوق عليه ولا يعلم كيف فعل ذلك ولكن لو طلبت منه أن يعيدها في الأحوال العادية فلن يقدر أبداً مهما حاول!! جميع ما ذكرته لك آنفاً شعرت به وأنا أطير في الفضاءات هارباً من جنود أبي.

كانت أمي طيفاً ليس لـ«عزازيل» وجنوده سلطان عليه، وكانت تملك تجاه «عزازيل» من الحقد ما كان كافياً لتدمير عوالمه جميعها، ولكنها كرست كل قواها لمساعدتي في التغلب على «عزازيل» وإثارة حنقه وغضبه. كانت تملك قوة الانتقام الرهيب فوجهتها ضد «عزازيل» الذي كان سبباً في موتها.

●●●●

بعد أن هربت من جنود أبي طرت على غير هدى وبلا هوادة حتى وصلت سديم الجبار، وهو سديم منتشر ومتناثر جنوب حزام الجبار. تكونت نجومه ومجموعاته الكوكبية من سحب الغاز والغبار. ولذا فهو مليء بالعواصف الغازية، ولذلك فإن المواد التي حول النجوم في وسط ذلك السديم هي في انزياح مستمر بسبب ما تصدره من ضوء وجسيمات، فتنزاح الغازات والغبار نحو خارج السديم مما يجعلك تستطيع رؤية قلب السديم والنجوم التي فيه. وتظن أنك ستصله ولكنك سرعان ما تضيع بين

تلك النجوم نحو الهلاك المحتم إن لم تكن تعلم دروب النجاة، وقد كنت أعلم دروب النجاة فقد تعلمتها من طيف أمي التي فعلت نفس الشيء حين طاردها جنود أبي وهى حبلى بي. وهذا هو عين السبب الذي جعلني أقصده دون غيره من السدم دون تفكير، فقد كنت أعرف تلك الدروب وأنا بعد في رحم أمي قبل أن أولد.

كان جنود أبي من المردة العتاة يعلمون أنهم إن دخلوا هذا السديم فقد لا يتمكنون من الخروج منه أبداً، ولذلك فقد توقفوا عن مطاردتي ورجعوا خائبين، وظنوا أنني لابد من الهالكين. وهم لم يكونوا يعلمون أنني أعرف طرقه ودروبه أكثر من معرفتي بطرق الأرض ودروبها. ورغم أنني لم أخرج عن مجرة درب التبانة إلا أنني حين بلغته باتباع الدرب المختصر الذي تعلمته من طيف أمي اختزل ذلك الدرب مسافة تبلغ ألفاً وثلاثمائة وخمسين سنة ضوئية تقطعها لو قصدته من الأرض مباشرة. وحتى لا تصاب بالصداع فسوف أقرب لك فهم هذه المسافة بأن أخبرك أن السنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة كاملة وتعادل حوالي تسعة ملايين ونصف المليون كيلومتر. فتخيل معي هذا الرقم مضروباً في ألف وثلاثمائة وخمسين. وبالمناسبة فإن سديم الجبار يبلغ عرضه نحو أربع وعشرين سنة ضوئية قطعتها كلها متعرفاً على هذا السديم.

فحين وصلت إلى هناك طفت حزام برج الجبار حتى وصلت منكب

الجوزاء في الجزء الأيسر من برج الجبار ثم وصلت سديم رأس الحصان، وهي سحابة من الغبار المظلم حيث بقيت زمناً قدرته ببضعة أيام إذ لا توجد شموس ولا زمن شمسي فنعتمد على حواسنا في تقدير الزمان..

شغلت نفسي برؤية التجمعات النجمية والسدم والنجوم المزدوجة في برج الجبار: منكب الجوزاء، ورجل الجبار، ونجم الناجذ، ونجم المنطقة، ونجم النظام، و نجم النطاق، ونجم نير السيف.

●●●●

لم أدر كم بقيت هناك لأنك حين تنتقل يغيب عنك إدراك الزمان فأنت لم تعد على الأرض.. وحين اطمأن قلبي وسكن فؤادي وقدرت أن أبي لابد قد نسيني وصرف النظر عن مطاردتي حيث لم يتمكن مردته وجنوده من القبض على رجعت إلى الأرض متلصصاً متحسساً وأنا في أشد حالات الحذر والحيطة.

وحين دخلت الغلاف الجوي للأرض واقتربت من بحر الجار (البحر الأحمر) غير بعيد من بكة ومنى لأتفقد «إبرام» ولأرى هل مازال «عزازيل» هناك رأيت وجوهاً كثيرة لجنود أبي لم أرها من قبل، ورأيت حركة غير مألوفة على الشاطيء الغربي من البحر وأطيافاً وقبائل جديدة، ورأيت أنهم

لم يكونوا مهتمين بي فقد كان كثيرون منهم منشغلين بالغوص تحت الماء واستخراج الكنوز، وآخرون يقومون بأعمال البناء في البر الغربي. وأحسست أن في الأجواء أمراً غير اعتيادي. وحين اقتربت من بعضهم رأيتهم مربوطين بالسلاسل ومقرنين بالأصفاد ورأيت أن الكثيرين منهم مسخرون لتلك الأعمال فمكثت أراقب عن كثب لأعرف ما الذي يجري في ذلك المكان.

●●●●

عاد أحد الجنود من العمل وكان منهكاً خائر القوى يجر سلاسله وراءه. اقتربت منه بلطف لأستطلع الأمر، وحين وصلت إليه رأيته ملطخاً بالطين الذي يصنع منه الطوب والآجر الذي يستخدم في صناعة القلال والأزيار، ولكنه فور أن اشتم رائحتي التي تشبه رائحة أبي رأيته مقسماً بين الحيرة والارتباك والخوف مني أو الطمأنينة والأنس بي. وكان لا يقدر على الهرب فهو مربوط بالسلاسل ولكنه حين اشتم تلك الرائحة بقى هناك متخشباً متصلباً يحدق بعينين مذعورتين. وحتى لا ينفر مني فقد سألته بلطف:

- ماذا تفعل هنا؟

وازدادت حيرته أكثر فقد كان يظنني «عزازيل» ولم يكن يخطر على باله أن يغيب ما يفعله عن «عزازيل» كما أن «عزازيل» ليس لطيفاً أبداً. فقال لي:

- أنا مسخر بواسطة «سليمان» يا سيدي كما ترى ومهمتي هي صناعة الجفان الكبيرة. هل تستطيع تخليصي يا سيدي؟

قال هذا في ذل ومسكنة وهو ينظر إلى الأرض ويلمس تلك السلاسل التي كانت تَصِلُّ كلما حرك قدمية النحيلتين ذواتى الأظافر الطويلة والأصابع المقوسة.

- بالطبع بالطبع ولكن قل لي. في أي عصر نحن؟

ازدادت حيرته أكثر ورأيت الدهشة على وجهه وهو يسمع هذا السؤال.

- هل تسخر مني يا سيدي؟ الجميع يعلم أننا في نهاية الألفية الثانية من عصر «إبرام» النبي وأننا في زمان النبي «سليمان» مالك الرياح المسخرات ومكلم الطيور المغردات والعارف بجميع اللغات وهو قد أصبح يملكنا فنحن نعمل له وبأمره.

أدرت ظهري لذلك الطيف المسكين الأسير وصرت أعدو في تلك الأرض الغريبة كالمخبول وأنا أصيح بصوت عال:

- ياللهول.. ألف عام؟ لا أصدق لا أصدق. ألف عام مضى وأنا في سديم الجبار؟ ياللهول ياللهول.

- ولكن يا سيدي أنت وعدتني أن تخلصني من أسر «سليمان». يا سيدي.. ياسيدي!!.

كان صوته يتلاشى في أذني وأنا أطير مبتعداً عن ذلك المكان ثم أحط على صخرة عالية مشرفة على ساحل بحر الجار غير مصدق لما حدث. ألف

عام مضت من عمري وأنا هارب من «عزازيل». كيف لم أحس بمضي الزمان هناك فقد كنت في مكان آخر من الكون والزمان يمضي على كوكب الأرض مثل لمح البرق.. ألف عام محسوبة من عمري ولم أفعل فيها شيئاً قط غير السفر عبر الكواكب. وكنت أظن أنها بضعة ساعات أو أيام. سرعان ما أكلني الندم وقررت ألا أطير إلى الكواكب مرة أخرى مهما حدث حتى وإن تخطفتني جنود «عزازيل» ومزقتني أنيابهم وأظافرهم وألقوا بي في أتون الجحيم المستعر، فالطيران عبر الكواكب ضيع عمري بلا فائدة، إضافة إلى أن الإحساس بالوحدة والغربة في الفضاءات شيء لا يمكن وصفه بالكلمات. ولو تمكنت من وصفه لك فلن تصدقني أبداً.

●●●●

فجأة افتقدت تلك الأيام الخوالي، أيامي في «أوروك» وأنا أراقب «شين أيقي أونيني»، وأيام «ماوية» و«مايا» و«ميسون»!! اشتقت لـ«ميسون»، تلك الفتاة المثيرة الجذابة، اشتقت لضحكتها وابتسامتها العذبة وتعلقها بي. اشتقت لهمسها في أذني والذي كان شيئاً لا تشبهه أية متعة في هذا الكون. لابد أنه قد انقضى ألف عام على موتها وأنها صمتت إلى الأبد وارتاحت من ذكراى الأليمة. لا بد أنها قد سكنت وهدأت روحها في الأبدية. ولكن ياترى كيف ماتت؟ وأين هو قبرها الآن؟ لو أعلم مكانه لزرته. و«ماوية».. ما زال صدى كلام «ماوية» في أذني حتى اليوم. تلكم المرأة الإبرامية المؤمنة الواثقة

من نفسها.

يا للأسى.. ويااللأسف فقد كنت بالفعل نذلاً .. تخليت عن أولئك النسوة في أشد لحظات حاجتهن لمساعدتي وعوني. تركتهن في طريق مقفر موحش مليء بالمخاطر ومشبع برائحة الموت، ولم أبال حينها بما كان سيقع لهن، ولابد أنهن عانين صنوف العذاب في ذلك السفر المخيف، أرجو ألا تكون السباع قد أكلتهن وتخطفت الطير ما بقي من أجسادهن الغضة الناعمة، يااللمسكينات. لو كن يعلمن مع من كن يسافرن لما حدث كل هذا. أظن أن «ماوية» كانت تعلم. ولم تصدق كذبتي. الكذب يفعل بالناس الأفاعيل، ولابد أن ما لقيته بعد ذلك من حرمان وعذاب وضياع في الفضاءات هو بعض ما نالني من انتقام وعقاب مقابل أفعالي وأعمالي السابقة، وظلمي لهؤلاء النسوة وكذبي عليهن. ولكن أنا طيف من بني النار فما الذي يهمني من بني الصلصال؟ وهل يعقل أن أحس بمثل ما يحسون به من عاطفة وحنين وشوق وندم ومشاعر إنسانية؟ إذاً ماذا تسمي كل هذا الفيض الموار الذي أحس به الآن يغلي في عروق طيفي ويعضني في قلب كياني ويتدفق في جوانح طيفي الأفاق ويسري في جلدي الأثيري؟

لا أكتمك أن هذه المشاعر (الإنسانية)! هي أجمل ما حدث لي طيلة سنوات عمري السابقة، الضائع منها والذي عشته. حين تكتنفك هذه المشاعر تعيش في عالم حقيقي من السعادة والبهجة الغامرة، وتحس بقيمة

الحياة الحقيقية وطعمها. المشاعر والأحاسيس هي لحظات ضعف صلصالي ولكنه أجمل ضعف عرفته الحياة، هو الذي يجعل لحياتك معنى وطعماً بل وهدفاً وغاية. جربت العنف واللطف فرأيت أن اللطف لا يكون مثله شيء فأنت تستطيع أن تأسر القلوب بلطفك هذا ورقة معاملتك، في حين أنك لن تستطيع أن تهزم أضعف المخلوقات لو لجأت إلى العنف، وحتى لو قهرته بقوتك فإن ابتسامة ساخرة منه تكفي لأن تهزم في جوانحك كل ادعاءات العظمة والتفوق وتجعلك ذليلاً صاغراً في أعماقك. القوة والضعف، والنصر والهزيمة أشياء متعلقة بما تؤمن به أنت وليس ما يؤمن به الآخرون. هي معانٍ تعبر عن مدى اقترابك من غاياتك أو بعدك عنها حتى لو فهم الآخرون غير ما تفهمه. حين تكون متعلقاً بالقوة الكبرى في هذا الكون يصبح لحياتك معنى حقيقي لأنك حينها سوف تكتسب القوة التي لا تقهر، ولكنك حين تظن أن قوتك نابعة من ذاتك الفانية الضعيفة، فإنك تكون حينها مدعاة للسخرية. ويالبؤسك حينها، أيها الضعيف المسكين العاجز.

ولكن ألف عام؟ ضاعت مني والملوم فيها هو «عزازيل»؟ لن أسامح في هذه أبداً. ألف عام ضاعت من عمري بلا فائدة. ألف عام لا تساوي في عمر الأكوان ولا الأطياف شيئاً ولكنها تعني لي الكثير فأنا لم أر في الحياة شيئاً كثيراً بعد.. فمازلت صغيراً..

●●●●

بقيت جالساً على تلك الصخرة المشؤومة أفكر وألوم «عزازيل» وبحثت عن طيف أمي فلم أجده، ولابد أنه قد ذهب إلى غير رجعة. طيف أمي الذي فعل المستحيل من أجل حمايتي وتعليمي. طيف أمي الذي كان يدلني على الطريق ويقودني في حياتي، تخلى عني ومضى إلى الأبد وبقيت وحيداً في هذا العالم بلا أنيس. لا أحد معي، في وقت أصبح الجميع أعداء لي. بحثت عن «أشتوت» فعلمت أن النبي «سليمان» قد أمر بالقبض عليه حين كان عائداً من «سبأ» ووجد «أشتوت» يعلم الناس السحر فأمر بالقبض عليه وسجنه في قمقم وإلقائه في بحر الجار. وبقدر ما كنت أتجنب «أشتوت» إلا أنه كان يؤنس وحشتي حين أحتاج إليه. تذكرت تلك الأيام الخوالي حين كنت أصحبه وهو يعمد السحرة ويسخر منهم.

●●●●

أحسست بغضب موار يفيض من قلبي ويتدفق على كل ما حولي. لم أكن أعي حينها ما فعلته، ولكنني دفعت الثمن بعد ذلك غالياً. قررت أن أجرب التمرد على كل شيء، مثلما كنا نفعل ونحن صغار. التمرد على الطبيعة والفطرة، وعلى بني الصلصال وبني النار، وعلى الأرض والفضاءات. قررت أن أكون مؤذياً. قررت ألا ينجو أحد يمر بالقرب مني أو يلقيه حظه العاثر في طريقي. قررت أن أجرب الدمار والهلاك، قررت أن أشعل الحروب والفتن وأن أثير الأحقاد في النفوس وأملأ العالم بالكراهية العمياء والحقد

المواار. قررت أن أفجر الصراعات وأخرب مجاري الأنهار وأشعل الحرائق في الغابات وأهدم السدود لتغرق السكان من حولها.

صرت أتنقل ما بين بلاد الحجاز واليمن والشام وأطير حتى آتي بلاد مصر والسودان. علمت الناس ما كان «أشتوت» يعلمهم إياه. وخلال فترة وجيزة نشرت السحر في مصر والسودان والشام واليمن ونشرت الرعب في كثير من البلاد وأشعلت الحروب وكنت أجد متعة كبيرة فيما كنت أنكره على «أشتوت» حين كان يفعله. ولكنني فجأة وجدتني أدفع ثمن كل هذا. ودفعته غالياً .. دفعت ثمنه من عمري. ولكن في هذه المرة لم يكن الثمن ألف عام بل كان أضعافاً مضاعفة أمضيتها حبيساً في بلاد السودان.

●●●●

(10)
سواجن

هل سبق لك أن زرت السودان؟ تلك الأرض المنبسطة الممتدة والتي يربض النيل في شمالها وتجري الأنهار في شرقها وجنوبها ووسطها؟ تلك الأرض الجرداء المخوفة، يحق لي ولك أن تخشاها. هي أرض البسطاء الطيبين الساذجين الذين يمشون على الأرض دون أن يتركوا آثاراَ لأقدامهم ولا تسمع وقع نعالهم. خفاف الحركة سريعو التنقل. كلامهم يترادف فوق بعضه البعض، لا تكاد تفهم منه شيئاً إلا أن كنت بارعاً في سرعة المتابعة. نحاف الأجسام، وأعينهم براقة، بلغوا في درجات الذكاء أنهم يتخاطبون دون أن يتكلموا، ويفهم بعضهم بعضاً قبل أن تتحرك أيديهم بالإشارة. يحترمون النساء جداً. تتمايز أجناسهم وقبائلهم بوسم يسم القبيلة فيتعارفون بينهم من النظرة الأولى. وهم مقاتلون من الطراز الأول، وفيهم جسارة وإقدام، لدرجة أنهم يستبشرون حين يقع القتال. وهم كرماء رغم أنهم لا يملكون إلا القليل ولكنهم يجودون به حتى أنك لتظن أن الواحد منهم لو بقيت معه قليلاً فسوف يخلع ثيابه ليمنحك إياها بعد أن يكون قد وهبك كل ما يملك عن رضى نفس وأريحية كاملة. وهم قبائل شتى وأجناس وأعراق وسحنات وألوان مختلفة ولكن تجمع بينها هذه الخصال وتميزها تلك الخصائص.

طفت كثيراً من الأماكن في بلاد السودان. ولكن هل أخبرتك أنني

أمضيت آلاف السنين في الجزء الشرقي منه؟ نعم كنت مسجوناً في قمقم تحت الماء في مكان يقال له «سواجن». وحين انكسر ذلك القمقم وخرجت بعد ثلاثة آلاف عام، وجدت أن اسم المكان هو هو لم يتغير. العجيب أنك تجد أن الناس يدورون حول الاسم ويخترعون أسباباً ومبررات للاسم، وقد يكون بعضها صحيحاً أو يقترب من الاسم الحقيقي، ولكن نحن لدينا ميزة العمر الطويل وهي تجعلنا نعرف الكثير ونستطيع أن نكشف التلاعب الذي يحدث في التاريخ كما نعرف التزوير والتحوير. وأنا بقيت شاهداً على حقيقة الاسم فـ«سواجن» هي «سجن» كبير صنعه جنود «سليمان» الذين قبضوا علينا وأودعونا تلك القماقم وألقوا بها في قاع البحر. «سواكن» تقع في منتصف الطريق ما بين مملكة «سبأ» - حيث كانت الملكة «بلقيس» - والشام حيث عاصمة ملك النبي «سليمان». وبحر الجار هو البحر الأحمر وهو من الأماكن التي كان النبي «سليمان» يستخدمها كثيراً. «سواجن» كانت سجناً للخارجين عن القانون والمجرمين وكنا بالفعل خارجين عن القانون في عهد الملك «سليمان»، الذي كان يرسل إلى ذلك السجن كل عاص متمرد. وهل أخبرتك أن «أشتوت» قد انتهى به الحال سجيناً مثلي؟ وأظن أنه مات داخل القمقم حسرة وندماً.

●●●●

بقيت في ذلك القمقم سجيناً تحت الماء ومحنطاً وقد تجمدت جميع

حواسي إلا حاستا اللمس والبصر. كان جنود النبي «سليمان» من بني النار هم الذين ألقوا القبض عليَّ وعلى أمثالي من المتمردين الخارجين وكان صديقي «أشتوت» ضمن المقبوض عليهم أيضاً. فالنبي «سليمان» علمهم كيف يقبضون علينا وكيف يضعوننا في تلك القماقم.

ما صنعه أولئك الجنود بي كان شيئاً عجيباً فقد قرأوا كلمات علمهم إياها النبي «سليمان» فأصابتني فوراً بالشلل التام، فكنت لا أقدر أن أحرك أطرافي ولم أقدر على الطيران أو المقاومة أو الصراخ. النبي «سليمان» أوتي قدرة كبيرة على التحكم في جميع الأطياف. رأيت جنوده وهم يضعونني داخل القمقم ويغلقونه بالرصاص المذاب ويقرأون عليه صلوات وكلمات أخرى لم أسمعها وإن كنت أرى شفاههم تتحرك بها عبر جدران ذلك القمقم الزجاجي. ولابد أنها كانت لتحفظني من الهلاك وتبقيني ساكناً في ذلك القمقم الذي حشروني داخله حشراً. ثم حملوا ذلك القمقم وركبوا مركباً سارت بهم في البحر مسافة قدرتها بنحو خمسة كيلومترات أو تزيد حتى تأكدوا من عمق المياه ثم ألقوا بالقمقم الذي غاص عميقاً في الماء وغاص قلبي معه إلى عمق هاوية من اليأس سحيقة لا قرار لها. وكنت وأنا في ذلك القمقم الزجاجي أرى ما حولي ولا أستطيع الحركة. رأيت قماقم كثيرة من حولي وأطيافاً محبوسين. ورأيت الشعب المرجانية والأسماك الملونة تسبح في حرية وهي تحاول الاقتراب من تلك القماقم ولكنها لا تقدر أن تلمسها فقد كانت محروسة بتعاويذ أولئك الجنود. وكنت أدرك أنه لا فكاك من هذا القمقم إلا بإحدى طرق ثلاث: أن يعفو عني النبي «سليمان» فيأمرهم

بإخراجي، ولكن ذلك أمر مستبعد فقد فعلت أشياء تشيب لها الولدان وكنت أستحق القتل عن جدارة لقاء ما فعلت، أو أن تنقضي الفترة التي قدر فيها عقابي ولم أكن أعلم كم هي تلك الفترة، فقد تكون سنة واحدة أو عشرة آلاف، أو أن يموت النبي «سليمان» فيبطل الختم الذي تم وضعه على فوهة ذلك القمقم. وبقيت أنظر وأنتظر وأتأمل أن يحدث أحد تلك الأمور. وانقضى اليوم الأول كئيباً وكأنه ألف عام، وكأن تلك الشمس قد تسمرت في أفق السماء تأبى أن تتحرك نحو المغيب، وكأنها وقفت لتراقبني وتراني في قاع البحر فتشمت بي وتهزأ مني. وبعد أن شارفت نفسي على الهلاك رضيت تلك الشمس أن تتوارى وراء الأفق بعد أن شفت غليلها مني فغاب ضوؤها وحل الليل، وغاب معها أملي في أن يعفو عني النبي «سليمان» في تلك الليلة. وقبل أن أدرك مجيء الظلام أشرقت الشمس مرة أخرى في اليوم التالي وعادت بإطلالتها الساخرة وبقيت في كبد السماء، ثم غابت ثم أشرقت ثم غابت. وتكرر المشهد حتى أصبح رتيباً مثل انهيار المضارب من أيدي الموقعين فوق الطبول النحاسية. ما إن يرتفع مضرب حتى يقع الآخر ويظل النحاس يرزم بالأصوات المتكررة الرتيبة التي لا تنقطع ولا تتوقف ليل نهار. واستسلمت لهذه الحال وتوقفت عن المقاومة في انتظار ما تأتي به الأيام. ومع مرور الزمن غاب ذلك الترقب والأمل في نفسي، وخبا ذلك الغضب في قلبي، وانحسرت تيارات العداء، وحل محلها لوم وتأنيب ضمير ومراجعة نفس وتفكير طويل فيما فعلته ثم تأمل ونظر فيما حولي. البحر يعينك على هذا فهو هناك مهما مرت الأزمان وتعاقبت الدهور. الماء من

حولك ومن فوقك ومن أسفل منك، والأسماك تذهب وتجيء، وقد يذهب البعض منها ثم لا يجيء أبداً بل يجيء غيرها. القمقم الذي سجنت بداخله شهد أحداثاً كثيرة حوله. فقد سكن تحته الأخطبوط وحامت حوله وفوقه الأسماك والقروش، واتخذته كثير من مخلوقات البحر مأوى لها تربض تحته، وحملته تيارات الماء في أحيان أخرى فلعبت به كثيراً وانتقل معها جيئة وذهاباً. وكانت الرمال تغمره وتغطيه فلا أرى شيئاً تحت ذلك الركام ثم لا تلبث المياه أن تنحت تلك الرمال فيخرج القمقم وأتمكن من الرؤية مجدداً. وشهدت حطام السفن الغارقة وجيف الموتى الذين ألقى بهم قتلتهم في المياه، وتسابق الأسماك لتفتك بتلك الأجساد الميتة قبل أن تتركها عظاماً ورأيت جيف الحيوانات الغارقة واجتماع جيوش الأسماك حولها تنهش من تلك الولائم السهلة. ثم بمضي الزمان وتتالي الأيام وتوالي العقود والعهود ساد المكان سكون أبدي وساد قلبي سلام داخلي واستسلام كامل ولامبالاة بما يحدث من حولي، وشهدت أجيالاً متعاقبة من الأسماك وحيوانات البحر، تولد وتموت وتجيء أجيال بعدها ثم ما تلبث تلك الأجيال أن تنقرض وتستمر دورات الحياة.. لم أتمكن من حساب الأيام لأن وسيلة الحساب عندي كانت طلوع الشمس وغروبها، وحين غاص ذلك القمقم عميقاً وطمرته نباتات البحر ورمالها غاب ضوء الشمس وما عدت أميز مجيء الليل ولا طلوع النهار، وتساوت عندي الساعات والأيام والشهور والسنين حين تساوى الليل والنهار. وكنت أقدر الزمان بساعتي الداخلية بين جوانحي تقديراً.. الحاسة الوحيدة التي توهمت أنها بقيت عندي هي حاسة السمع،

رغم أنني ماكنت أقدر أن أسمع شيئاً خارج جدران القمقم. ولكن حين تتعطل جميع حواسك تصبح أنت والأموات سواء. كنت أتوهم أنني أسمع همهمات الأمواج وهي تلثم جدران القمقم الخارجية، وحركة الأسماك التي تلامسه، ودبيب الكائنات الدقيقة على الرمل وحركة حبيبات الرمل تحت تلك الأقدام الصغيرة في القاع هي سلوتي الوحيدة وعزائي لأتشبث بالحياة. كنت أعد حبات الرمل فأحسب كم حبة رمل تحركت اليوم أو أتوهم ذلك، وكم من الكائنات الدقيقة تسلق جدران ذلك القمقم من الخارج. وبقيت الأحلام هي متعتي الوحيدة في ظلمات البحر وتحت الرمل. وصنعت لنفسي عوالم كثيرة من الوهم الجامح والخيالات العجيبة والأحلام الغريبة، وكنت أنتقل لأعيش فيها كيفما يحلو لي، وصنعت لنفسي أصدقاء من الوهم والخيال فكنت ألعب معهم أحياناً وأتشاجر معهم كثيراً وأتنقل معهم بين الأزمنة والأماكن. أصنع القصور الوهمية ثم أغضب لأشن عليها الحروب وأهدمها. وأحياناً أتمثل نفسي أميراً ساحراً وأحياناً ملكاً جباراً، أو أتحول لأصير فتاة جميلة أو ساحرة عجوزاً مشئومة، أو أتخيل نفسي قندساً يسبح في الماء أو عصفوراً يطير حراً في الهواء ويحلق في أفق الفضاء.

●●●●

في أول أيامي في ذلك الحبس بقيت أحلم بطيف أمي كثيراً، فأراه غاضباً أحياناً، وعاتباً في أحيان أخرى، ثم أصبحت أراه بلا أي تعبير، ثم اختفى طيفها وغاب عن أحلامي، وبحثت عنه فلم أجده وحاولت استحضاره

واستذكاره فلم أفلح، واتهمت ذاكرتي بأنها تحتضر إن لم تكن قد ماتت في كياني المتجمد.

ثم في فترات أخرى أصبحت أرى طيف تلك المرأة التي رضعتُ من ثدييها وكانت بمثابة أمي، فكانت رؤيتها تعوضني عما فاتني من رؤية أمي الحقيقية. كنت أرى الحنان في وجه تلك المرأة والعاطفة والشفقة في عينيها، وهي لم تكن تعلم بوجودي أصلاً حين كنت طفلاً رضيعاً يتعلق بها ويرضع من ثدييها في غفلة منها، وبهذا فهي لم تكن تكلمني أبداً ولكنني كنت أطيل النظر في عينيها وكنت أجلس في حجرها وأراقبها وهي تطوف في البيوت وتدور بين أحياء الحلة في ذلك الموضع بالعراق تبحث عن كسرة خبز تسد رمقها أو جرعة ماء تروي ظمأها. وكنت أعلم أنها تحس بطيفي ولكنها لا تراه، ولم أفكر في أن أتمثل لها في شخص طفل من بني الصلصال لأنني كنت أعلم أن ذلك سيفطر كبدها حسرة على طفلها الذي مات. كانت امرأة مسكينة، عاشت وحيدة، وماتت وحيدة. لم يبك عليها أحد سواي، بل لم يعلم أحد بموتها أصلاً. وهي لم تعلم بوجودي رغم أنها أحست بطيفي ولكنها كانت تظن أن ما تحس به هو من قبيل الأوهام والخيالات، أو من أثر الحزن الذي فطر قلبها والشوق لوحيدها الذي قضى، وبذا فلم تحس بعاطفة الأمومة نحوي بعد أن فقدت طفلها وماتت وهي محرومة من ذلك الإحساس الجميل، رغم أنني أنا من كان قد اكتوى بفراقها حين ذقت عاطفة أمومتها بعد أن رضعت من ثديها. وكنت وأنا في ذلك القمقم أسأل

نفسي، ياترى كم من بني الصلصال مثل هذه المرأة. عاشت حياة قصيرة فقيرة بائسة بلا أمل و لا أنيس. لم يسأل عنها أحد ولم يفتقدها قريب. تخلى عنها زوجها وهما في ريعان الشباب وتركها حبلى بطفل مات فور ولادته فقد كان غير مكتمل النمو، وربما حدث ذلك لأرث قطرات الحليب التي بقيت في ثديي أمه المفجوعة ثم أذوق بعد ذلك مشاعر بني الصلصال وأكتوي بلوعتها.

ثم جاء وقت توقفت فيه عن التفكير، فقد تلاشت ذاكرتي وقدرتي على تخيل الأشياء. وبهتت اللوحات الخيالية التي كنت أرسمها، وذابت الخيالات الرمادية وفقدت الألوان خواصها في عقلي، وبحثت روحي عن عقلي فلم تهتد إليه، ثم اختفت معالم الخيال واقترب ثوب العدم من روحي يلفها بأنسجته ويغطيها بطبقات أثوابه، وجاء الهلاك يطارد روحي ليأخذها معه إلى مسالك اللاعودة فينتهي بها مطمورة في عالم النسيان المطلق. ولم أدر ماذا حدث بعد ذلك!! ولم يعد شيء يهمني. ولم أطمع في شيء. لا أريد شيئاً من الحياة ولا من أحد من بني النار ولا بني الصلصال.. فقد أسلمت نفسي لقدري!! واستسلمت.

وحين انكسر ذلك القمقم الذي حملته تيارات المياه إلى الصخور،في

يوم سعدي فاصطدم بها فجأة، وتدكدك وتفتت قفله الذي كان مختوماً بالرصاص لمنعنا من الخروج، وتطاير نثارات صغيرة هنا وهناك، أضاء عقلي فجأة وعادت حواسي لتعمل، وغمرتني برودة المياه فلم أصدق نفسي، وظننت أنها قشعريرة الموت قد احتوتني وأنني بسبيل الانتقال من هذا العالم إلى عالم الهلاك الأبدي. ولكنني حين فتحت عيني ملأهما الضوء، ودخلت فيهما ملوحة الماء، وتراكضت الأسماك من حولي، وطاردني أخطبوط كبير كان يسكن تحت ذلك القمقم فأفزعته التيارات الهائجة ثم انكسار القمقم وزفيف خروجي منه، ورغوة الفقاعات التي ثارت في المكان. ولكنه حين ترابط جأشه ورآني سرعان ما ارتد ليطاردني أملاً في فريسة سهلة.

تركت ذلك الأخطبوط المسكين يلعب بي قليلاً ويلف أذرعه الكثيرة من حولي ويحاول امتصاص شيء مني بمجساته التي تعلقت بي وكأنها الدسر التي تنغرس في أخشاب السفن ثم لا يكون منها فكاك. وحين أدرك أنه لا فائدة من محاولاته تركني محبطاً وكأني به حين تركني ومضى كان يسب ويلعن، ولكنني كنت مشغولاً عن الرد عليه بعودة الحرية والروح إلى جسدي المنهك الذي ظل حبيساً ثلاثة آلاف عام في قمقم طوله نصف متر وعرضه عشرون سنتيمتراً.

لم أتمكن من الطيران ولا التشكل ولا التحول في تلك اللحظات، فقد خرجت من القمقم منهكاً ضعيفاً ورغم ذلك فقد كنت مثل مولود صغير

رأى الدنيا وأبصر فصار يركل ويرفس بقدميه الصغيرتين، وامتلأت رئتاه بالهواء فعبر عن فرحته بالدنيا بصرخة وبكاء. ولكنني حاولت البكاء فلم أقدر وحاولت الصراخ فلم يسعفني صوتي. وجمعت ما تبقى لي من قوة وزحفت خارجاً من الماء غير مصدق لما يحدث، وارتميت على رمال ذلك الشاطيء وتمددت بين الرمل والماء الذي يلعب فوقه جيئة وذهاباً وتركت الأمواج تعبث بي حين تحملها الرياح فتدفعها لتلثم الرمال ثم تنكص على أعقابها وكأنها تخشى إن هي تمادت أن تبتلعها تلك الرمال، ثم لا ترعوي عن غيها فتعود كرة أخرى ثم تنكص ثم تعود.. ثم تنكص.. ثم تعود ولا تستسلم أبداً، وصوت انكسار الأمواج يزور أذني لحظات ثم يغيب في ترنيمته الرتيبة المتكررة التي لا تتوقف ولا تنقطع. كانت هي آخر ما سمعته أذناي قبل أن يغلق غطاء ذلك القمقم. والآن هي أول ما سمعته بعد أن انكسر ذلك القفل بعد ثلاثة آلاف عام أمضيتها في الأسر.

●●●●

لا أدري كم مكثت على هذه الحال. فقد كنت في نفس المكان ولكنني غبت عن الوعي والوجود والحضور والزمان في لحظة ذهول مدهشة. لم أعر حركة الأطياف المذعورة وفرارها من المكان خوفاً مني أي اهتمام. كانوا هناك بالآلاف فقد اشتموا رائحة أبي القوية المنبعثة في المكان، ورأوني أخرج من الماء، فلاذوا بالفرار. ولم يبق منهم أحد.

نبهني سلطعون شقي ملحاح ظل يطوف حولي بأقدامه العظمية السريعة، وفكيه القبيحين وعينيه الصغيرتين، وهو يرمقني بنظرات ساخرة، وكأنه يريد أن يستوثق لنفسه أنه رأى شيئاً حياً. حاول أن يطبق كماشتيه القويتين حول أي شيء في طيفي المتجسد فلم يفلح فتركني والحسرة تملأ عينيه، ولكنه عزى نفسه بأنه على الأقل قام بالمحاولة ولم يكتف بالطواف حولي والعبث بالرمل المتناثر فوقي. وبعد قليل جمع أهله وعشيرته فجاءوا يتراكضون وأطبقوا كماشاتهم جميعاً على أطرافي فلم يفلحوا فأيقن ذلك السلطعون أنه عبثاً يضيع وقته ووقت أقرانه، فتركني أسفاً وسحب عصابته وارتد خائباً.

لم أدر كم بقيت من الوقت وأنا مستلق على ظهري أضحك غير مصدق، ثم أعود فأبكي على حالي وأيامي التي انقضت من عمري في غير فائدة، ثم يجتاحني الرعب من قروني حتى أخمص ذيلي حين أذكر تلك السنين. كان أول شيء فعلته هو أنني تلفت حولي فلم أر جنود النبي «سليمان» ولا تلك السواجن، ولا الأبنية الشاهقة البيضاء، ولا السجن الكبير، ولا السفن الراسيات. كان المكان خاوياً كئيباً صامتاً لا تسمع فيه إلا صيحات النوارس هنا وهناك تحلق فوق الماء وهي تبحث عن صيد، وأصوات انكسار بقايا الأمواج الحزينة النائحة، وانحسارها من الرمل خائبة مندحرة. وفي الأفق غير البعيد بدت بعض معالم مدينة صغيرة لعلها هي مدينة «سواكن» بأبنيتها وبعض أهلها.

وأول شيء فعلته هو أنني بحثت عن أحد الأطياف الهائمة فاستدعيته، وسرعان ما لبى النداء فجاء مسرعاً وهو يظنني «عزازيل». ووقف على مرمى حجر مني خائفاً متردداً. كان يشم رائحة «عزازيل» غير أنه يرى في الواقع طيفاً آخر مغايراً لملامح «عزازيل». وحين اطمأن إلى أنني لا أنوي إيذاءه اقترب بدافع الفضول. وسألته عن السنة التي نحن فيها فأخبرني أنها سنة ألفين وأربعة عشر بعد ميلاد المسيح في الألفيـة الثالثـة من عصـر بني الصلصال ضمن الحقبة الخامسة من حقب الدهر القديم لكوكب الأرض. وحين سألته عن النبي «سليمان» قرأت الدهشة تسري في كل أوصاله، ولكنه ما لبث أن تمالك نفسه وأخبرني أن «سليمان» قد مات منذ عهد طويل، وجعل يخبرني عن الأنبياء الذين جاءوا من بعده، فسرد سلسلة طويلة منهم، وأن المسيح كان آخر الأنبياء من بني إسحاق ولكنه لم يكن ملكاً. وأن النبوة قد تحولت من بني إسحاق إلى بني «إسماعيل» الابن الأكبر لـ«إبرام».. وعلمت منه أن بيننا وبين النبي «سليمان» حوالى ثلاث ألفيات. وعجبت فسألته كيف أنه لم ينتبه أحد للأطياف المسجونة في قعر البحر بعد موت النبي «سليمان» وبذلك لم يحررنا أحد وبقينا في الأسر ثلاثة آلاف عام. أخبرني أن الأطياف فوجئوا بموت النبي «سليمان»، ولم يصدقوا أنه مات متكئاً على عصاه وهو يراقبهم، وأنهم ما صدقوا موته أول الأمر، فقد كانوا يظنون أنه خالد لا يموت. ثم لما تأكدوا من موته عاثوا في الأرض فساداً وبموت «سليمان» انهار كل شيء في عالم الأطياف واختلت الأمور وسادت الفوضى. ظل ذلك الطيف يحدثني وهو غير مصدق لروايتي وأنني بقيت في الأسر ثلاثة آلاف عام في

جوف قمقم تحت الماء. وظنها مزحة سمجة من طيف متشرد يرغب في تضييع الوقت في الحوارات الجوفاء أو السخرية من بني جنسه، وبعد حيرة وتردد طار مسرعاً وتركني، وساد المكان صمت مخيف.

ونظرت وتأملت ما حولي.. كرات ومرات.. وكنت ألمس كل ما أطاله. فقد كان كل شيء حولي غريباً وكأنني أراه لأول مرة. اشتقت للهواء والتراب والرمل والطين، اشتقت لرؤية السماء الزرقاء من فوقي، والنجوم المتلألئة، والسحب التي تحجبها وهي تمر في الفضاءات مسرعة. اشتقت للطيران في السموات ورؤية الطيور وهي فزعة من طيفي الذي تحس به ولا تراه.

اشتقت للعبث واللهو والتحول والطيران الحر. اشتقت لبني الصلصال وغفلتهم وعبث أبي بهم. اشتقت لرؤية جنود أبي وهم يفرون مني خوفاً ورعباً ولا يلوون على شيء. اشتقت حتى لجنود النبي «سليمان» وهم يقبضون على ويشدون وثاقي ويضعونني بين رفاقي في أتون العذاب أو يحشرونني داخل ذلك القمقم الذي خلت أنه نهاية المطاف ونهاية الدنيا بالنسبة لي حين يحملونه ويلقون به في البحر فتلتهمه الأمواج الغاضبة. ولكن ها أنا ذا أقهره بالصمود وأخرج منه بعد ثلاثة آلاف عام... ويالها من حياة طويلة ممتدة ولكن بلا قيمة ولا غاية ولا هدف.

لم يغب منظر «سدوم» و«عمورة» عن خيالي أبداً رغم مضي كل هذه السنين. كلما تذكرت تلك المدن وهي تغوص هابطة في جوف الأرض ثم حمم البراكين التي طمرتها والحجارة التي انهالت عليها وسحب الدخان التي غطت سماءها لأشهر طويلة غاص قلبي معها فزعاً واختلجت كل جانحة في جوانبي. ياالهول ذلك المنظر الرهيب المفزع ومنظر الحجارة والنيازك المتساقطة من السماء وهي ترجم ذلك المكان وتدكه دكاً. ومسكينة تلك المرأة الإبرامية «ماوية» والبنت الأخرى.. نسيت اسمها. مسكينة، آه اسمها «مايا».. أما «ميسون» فقد انطبع اسمها في قلبي وعقلي وذاكرتي وأحلامي حتى حين كنت سجين القمقم. لم أنسها أبداً ولم أنس عينيها الذاهلتين وهي تراني أتحول إلى حقيقتي فأعود طيفاً وأطير وأتركهن جميعاً في ذلك المكان القفر الموحش الكئيب.. نعم أنا نذل ولكن لو سألت نفسك من هو أبي ومن هي أمي فسوف تخرس لأن اللوم أو السباب يكون حينها بلا فائدة.

حين استجمعت ما تبقى لي من قوة ونهضت على قدمي أخيراً توجهت غرباً مبتعداً عن البحر قدر ما أستطيع، ولم تطاوعني رجلاي فبقيت أجرجرهما وأنا أحاول السير، وبالطبع لم أقدر على الطيران في تلك اللحظات.

●●●●

كنت وأنا أسير أستعرض كل الأحداث التي عشتها عبر القرون الماضية، وكنت أقرأ تاريخ حياتي السالفة فأرى أنني قد أمضيته كله بلا فائدة، لم أجن

من عمري هذا كله أي شيء ذا قيمة. بالفعل رأيت أنه لا قيمة لحياتي. كانت بلا هدف ولا غاية. حياة خاوية وخالية من القيم والمثل. كنت مثل ريشة في الهواء تحملها التيارات وتدفعها الرياح وتعلو في الجو ثم ما تلبث أن تنحط وتهوي قبل أن تعبث بها الريح كرة أخرى فتتبعها تلك الريشة إلى المجهول بلا اتجاه محدد ولا غاية معلومة. كنت مسافراً في البلاد تطارده أعماله وتلعب به جنود أبي. عاش حياة الكذب والنفاق والمداهنة وجرب الشرور والآثام والغواية. ما الغاية من هذا كله ما الهدف؟ وإلى متى يستمر كل هذا؟ وهل لهذا من نهاية؟ كم تساوي الآلاف من السنين التي عشتها في ميزان العمل الجميل المفيد؟ أخجل أن أقول إنني لم أفعل شيئاً مفيداً أبداً. وحتى اللحظات الجميلة من عمري والتي أحسست أن لها معنى حين أنقذت أولئك النسوة لم تدم طويلاً فقد أفسدتها بأن تخليت عنهن. مضت أربع ألفيات على تلك الحادثة ولكنني لم أنسها فقد حفرت عميقاً في ذاكرتي وقلبي.

●●●●

حياة الأطياف موجهة كلها نحو الشرور والآثام والأذى والغواية. هي حياة البؤس والذل والمهانة، والحقد والانتقام والمكائد. لا شيء فيها يمضي مستقيماً ولا شيء فيها منطقي. لابد أن أبي قد ترك بصماته في كل شيء فيها، فهي حياة العبودية لـ«عزازيل» والخضوع له. عشتها ورأيتها رغم أنني لم أكن أريدها ولكنها كانت واقعاً محتوماً لا فكاك منه. وأنا قد تعودت

التمرد على كل شيء وتعودت أن أعيش حياة حرة لا سلطان لأبي عليها، ولكن بالرغم من ذلك كله وجدت نفسي أدور في فلكه وأسير على خطاه حتى وإن لم أشعر. فلماذا لا أتمرد عليه في كل شيء فأجرب حياة أخرى مغايرة. ما هو أكثر شيء يغيظ أبي ويغضبه؟ المثل والقيم والأخلاق؟ إذن لماذا لا أجرب حياة المثل والقيم والأخلاق ولو مرة واحدة فقط؟ لماذا لا أجرب حياة صالحة مثلما يفعل بعض بني الصلصال؟ كنت في الماضي أحاول الاقتراب من «إبرام» لأنني كنت أعلم أنه رجل مصلح ومتصل بالسماء، ولكن «عزازيل» حال بيني وبين ذلك فلم أتمكن ولم أستطع، وضاع عمري هباء حين طاردتني جنود أبي. ثم لما عدت إلى الأرض وجدت أن «إبرام» قد مات وانقضى ألف عام على موته، وكانت الفرصة مواتية في عهد النبي «سليمان» للاقتراب مما جاء به إبرام، ولكنني أفسدتها بأن تمردت على كل شيء في لحظة من لحظات الغضب والثورة الحمقاء والعناد، وقد لقيت جزائي بأن حبست ثلاثة آلاف عام في أضيق سجن حتى صار مضرباً للأمثال. وأنا الآن لا أصدق أنني خرجت للحياة مرة أخرى وأن الفرصة مواتية ولا تزال بين يدى. فلأجرب هذه المرة شيئاً آخر مغايراً تماماً لما كنت أقوم به. لماذا لا أجرب حياة الصالحين من بني الصلصال؟ حياة القيم والمثل والاستقامة؟ وياترى هل ستتاح لي الاستفادة من هذه الفرصة بعد كل هذه الآلاف من السنين؟ سأكون أكثر الأطياف حظاً لو تمكنت من العيش حتى أجرب ذلك النوع من الحياة.

بقيت أخاطب نفسي وأنا أسير في الطريق على غير هدى.. متقمصاً جسداً من أجساد بني الصلصال. ومشيت ومشيت حتى لم أعد أقدر على المشي، ولكنني كنت أستمر في المشي حتى أقنع نفسي بأنني حي وأن قدمى مازالتا تعملان. وكلما تعبت وأردت التوقف تذكرت ذلك السكون الذي استمر ثلاثة آلاف عام فأستمر في الحركة بلا توقف ولا خمود. أسقط على وجهي ثم أنهض فأمشي مرة أخرى. طوال الطريق كنت أرى أطيافاً غريبة جداً تلبس ملابس بني الصلصال وتقلد أشكالهم وأفعالهم ولكنها بالقطع أطياف وليست من بني الصلصال فأعجب لما أرى ولكنني لا أجرؤ أن أتوقف أو أسأل أياً منهم عن كنهه أو مايفعل. وبالطبع لا أعلم هل هي أطياف على الحقيقة أم أنها محض خيالات لا وجود لها فقد أصبحت كثير التوهم. كنت قد تعودت على أن الأطياف جميعها عارية لا تلبس شيئاً يستر أجسادها. الذكور والإناث كانوا هكذا ما رأيتهم عبر الآلاف من السنين إلا وهم عراة. ولكن هؤلاء الأطياف كانوا يلبسون ما يسترهم وكانوا شيئاً غير معهود ولا مألوف. معقول أن الأطياف بدأوا يقلدون بني الصلصال؟ لا أصدق. ربما يكون ما أرى ضرباً من الهذيان أو الصدمة التي تعقب الحرية. عموماً ماهي إلا أيام أو ربما أسابيع أو شهور ويتضح لي كل شيء.

جمعت ما تبقى لي من قوة وواصلت السير. وبعد نحو عدة ساعات أصبح الطريق مرصوفاً بمادة سوداء اللون وكانت هناك صناديق من المعدن الملون تشبه المركبات القديمة التي تمشي على عجلات، وتتحرك فوق إطارات سوداء اللون وتجري في ذلك الطريق الأسود بسرعات مجنونة وهي تئز أزيزاً مفزعاً. من المدهش أن تلك العربات بلا أحصنة تجرها ولا بغال ولا حمير ولكنها رغم ذلك تجري بلا هوادة وهي أسرع بعشرات المرات من المركبات التي تجرها الخيل. وهناك أطياف داخلها. ودفعني الفضول إلى أن أحاول معرفة هذه المركبات فأسابقها أو أوقف إحداها، وبعد محاولات كبيرة نجحت في تغيير شكلي الذي اتخذته عند خروجي من القمقم فتقمصت صورة أحد الأطياف الذين رأيتهم في مركبة من تلك المركبات. كان يلبس ثوباً أبيضاً ويلف رأسه بقطعة من القماش الأبيض الرقيق المنسوج بعناية والمربوط في شكل دوائر متداخلة وكان أسمر اللون بل كان شديد السمرة فاجتهدت في تقليد ذلك الشكل بحذر وأتقنت التقليد. وحين بدأت أسير على ذلك الطريق الأسود كانت تلك المركبات كلما اقتربت مني أطلقت صافرات حادة الصوت مفزعة قبل أن تتجنبني ثم تمضي ولا تلوي على شيء. وفهمت أنهم يريدونني أن أبتعد عن هذا الطريق الأسود الذي أسير عليه فاضطرتني تلك الأصوات إلى السير جنب الطريق وليس فوقه.

حين مرت بي أول مركبة بعد ذلك توقفت فوراً وناداني قائدها فكلمني بلهجة غريبة كنت قد سمعتها في القديم حين كنت آوي إلى بئر ميمون بمكة على الطريق إلى منى قبل أن تطاردني جنود أبي، وفهمت بعد ذلك من

الأطياف أنها العربية، ولكن قائد هذه المركبة كان يتكلمها بلكنته المحلية:

- مجنون انت؟ سكران انت؟ ماشي وسط الشارع؟ داير تموت؟ من وين ولى وين؟ اركب اركب.

وبالطبع لم أجبه ولم أفهم كلامه، ولكن العربية كانت قريبة الشبه جداً من الأكدية وكذلك هي تشبه الآرامية وبذلك فقد استطعت أن أتعرف على مفردات الكلام فوراً ودون الحاجة لأية ترجمة. لم أجبه ولكنني ركبت وحييته بإيماءة من رأسي ففهمها ورد عليها بمثلها واستمر ينظر عبر نافذة بلورية واسعة تمكنه من مطالعة الطريق أمامه، وهو يمسك بعجلة سوداء مثبتة على الجدار الأمامي من المركبة. وبين الفينة والأخرى يمد يده داخل كيس من القماش فيخرج منه حفنة من التمر يناولني الجزء الأكبر منها ثم يبقي في يده تمرة واحدة يدفعها داخل فمه. يقاسمني طعامه في صمت وإذا امتنعت يلح بأن يغمزني بيده لآخذ ما فيها دون أن ينظر ناحيتي ودون أن يتكلم. كان رجلاً سخياً. وفهمت أن سكان تلك البلاد يمتازون بالكرم.

سادت فترة من الصمت تثاءب خلالها الرجل مرتين ثم مد يده بعفوية نحو أحد النتوءات البارزة في تلك المركبة ليس بعيداً عن تلك العجلة المثبتة أمامه والتي يمسكها بكلتا يديه وكأنه يمسك زمام الخيل التي تجر المركبة وكان واضحاً أنه يستخدمها ليدير منها تلك المركبة ويقودها. لمس الرجل ذلك النتوء وفجأة سمعت صوت امرأة تغني وأصوات أبواق ومعازف فقفزت من مقعدي حتى كدت أقف على أطراف قدمي، وتلفت حولي في

فزع فلم أر داخل تلك المركبة أحداً غيرنا. وغاص قلبي من الفزع الذي كاد أن يصبح رعباً فلم أر أى أطياف حولنا فقد كان الطريق خالياً منهم وكذلك المركبة. ولكن من أين تأتي هذه الأصوات؟ ونظرت نحو الرجل نظرة ملؤها الشك والخوف، ولم يكن منتبهاً في البداية ولكنه حين أدار وجهه ورأي تلك التعبيرات الفزعة على وجهي انتبه وخاطبني:

- الصوت عالٍ؟ آسف آسف، أزعجك الصوت سوف أخفض صوت المذياع حالاً ..مممـ كدا أفضل؟

وتابعت يده وهي تعبث بذلك النتوء الصغير وإذا بالصوت ينخفض حتى أصبح كأنه يأتي من بعيد ولكن من أين يأتي هذا الصوت؟ وأين هي هذه المرأة المغنية؟ وأين هم الضاربون بالطبول والعازفون على الأوتار ونافخو المزامير؟ إني حقيقة لا أرى أحداً منهم هنا. ياللعجب. وما هو هذا المذياع الذي ذكره؟ وكيف يمكن أن يصدر كل هذه الأصوات؟ وكيف يستطيع هذا الرجل التحكم في شدة الصوت ظهوراً وخفاء؟ لاشك أنه قد حدثت بعدي أشياء كثيرة فما عاد الناس يعتمدون على الخيل لجر المركبات فقد أصبحت المركبات تجري وحدها مستقلة عن الخيل. وواضح الآن أنهم أصبحوا يتحكمون في الأصوات القريبة والبعيدة. ما الذي أصاب العالم من بعدي؟

ولم أجرؤ على سؤاله كيف تسير هذه المركبة بلا أحصنة ولا بغال، لأنني لو فعلت فسوف يطردني منها حتماً وسأضطر إلى إكمال المشوار سيراً على الأقدام. ولكنن تجرأت فسألت الرجل بعد صمت طويل:

- أين نحن؟

- على مشارف مدينة كسلا.

وعلمت منه أننا نتجه غرباً داخل بلاد السودان. وكنت أرى نوعاً غريباً من بني الصلصال على جنبات الطريق. ولم يطل بنا الأمر فبعد حوارنا بقليل وجدتني عند مشارف تلك المدينة الجميلة الرابضة تحت الجبل، وسرعان ما أوقفنا بعض الرجال الذين يبدو من هيئتهم أنهم حراس، رغم أنني لم أر سوراً للمدينة ولا بوابة. وكان هؤلاء الرجال قد علقوا على أكتافهم آلات معدنية رفيعة وفي مؤخرتها مقابض خشبية لماعة. كان الحراس يلبسون ملابس ذات ألوان مبرقعة تميل للَّون الأخضر وقد لبسوا قبعات غريبة وأحذية سوداء ضخمة.

خاطبني أحدهم بلهجة صارمة وهو يمد يده:

- بطاقتك.

ولم أفهم المقصود فبقيت أنظر إليه في بلاهة تامة فازداد غضبه وخاطبني بلهجة آمرة:

- انزل!.

كان وجهه عابساً وهو يخاطبني ثم أنزل تلك الآلة التي كانت معلقة على كتفه فحملها بكلتا يديه، ورأيت أن لها مقدمة طويلة نحيفة وكانت لها فوهة معدنية وجهها نحوي ولم أفهم لماذا فعل ذلك. ولم يكن يحمل سيفاً ولا رمحاً أو شيئاً مما يحمله الحراس عادة. وتعجبت ماذا يصنع بتلك الآلة المعدنية ذات الماسورة الصغيرة والمقبض الخشبي. ياترى هل هي سلاح؟

ولكن أين نصله الذي سيطعنني به فيما لو حاولت الهرب؟ ومضينا نحو مبنى صغير دخلناه فرأينا أحدهم يلبس نفس الزي لكنه كان يزين كتفيه بثلاث نجوم نحاسية، وكان يجلس على مقعد صغير، وعندما اقتربنا منه قام ذلك الحارس الذي كان يصحبني بحركة غريبة فقد ضرب الأرض برجله اليمنى بقوة حتى أحدثت صوتاً عالياً ثم أمسك بالآلة أمامه ووجه فوهتها للأعلى فعلمت أنه يحييه. ثم قال:

- سيادتك الزول ده ما عنده بطاقة!!

كان الرجل الجالس ينظر في عيني ويتفرس ملامحي وهو يخرج شيئاً أبيض من علبة صغيرة مستطيلة فيضعه بين شفتيه ثم يخرج من جيبه آلة معدنية صغيرة ويضع إبهامه عليها ثم يفلته وسرعان ما انقدحت شرارة من النار قرَّبها إلى رأس ذلك الشيء الأبيض فاشتعل ثم زم شفتيه عليه قليلا ولم يلبث أن نفث الدخان من فمه وأنفه. هؤلاء البشر أصبحوا مهرة جداً في إشعال النار وقد كانوا في القديم يجهدون الساعات الطوال يفركون الأعواد ويضربون حجارة الصوان قبل أن تنقدح شرارة واحدة من النار لتضيء شعلتهم. والعجيب أن هذا الرجل بعد أن أشعل تلك النار لم يكلف نفسه بالمحافظة عليها فعاد وأطفأها. ربما لو فعل هذا في الزمان القديم لأوجعه أهله ضرباً فالنار يجب ألا تطفأ أبداً لأنك لا تحصل عليها إلا بشق الأنفس. وأهل هذا الزمان لم يفلحوا في سرعة إشعال الشرارة فقط بل أصبحوا ينفثون النار والدخان من أفواههم. وكبير الحراس هنا فعل ذلك للتو ثم وضع العلبة ووضع فوقها تلك الآلة، ووضع رجله اليمنى فوق ركبته اليسرى،

ولعله فعل هذا ليخيفني، ثم خاطبني:

- ما اسمك؟

قالها في تعالٍ واضح ولم تخل نبرة صوته من السخرية.

- «إبليس».

نطقتها في براءة دون أن أدرك عاقبة ما فعلت. وقلتها وأنا أراقب سحب الدخان التي خرجت من أنفه وفمه قبل أن تتلاشى قليلاً قليلاً في فضاء تلك الغرفة الصغيرة. قلتها وأنا أتخيل أبي وهو يطير في ظلل الدخان متنقلاً من مكان لمكان متدثراً بالأبخرة حتى يخيف من حوله. كنت قد سمعت الإسم لأول مرة من ذلك الرجل الذي كان يسعى وراء النبي الصالح «لوط» يسبه ويشتمه حين كان «لوط» ومن معه يغادرون سدوم وعمورة في ذلك الصباح المشئوم منذ نحو أربعة آلاف عام:

- لو أن «إبليس» نفسه خالف قوانيننا لطردناه من سدوم يا «لوط».

وفهمت يومها أنها إحدى الكلمات المرادفة لاسم أبي «عزازيل». كنت قد نجحت طوال القرون الماضية في ابتكار الأسماء والمسميات والكذب على بني الصلصال، وكانوا يصدقونني في بلاهة أو قل في سذاجة. ولكن يبدو أنني لم أفلح هذه المرة، فما إن ذكرت أن أسمي «إبليس» حتى جاء ذلك الحارس من ورائي فانهال على قفاي بالقبضة الخشبية لتلك الآلة ولم أعِ إلا وأنا ممدد على الأرض وجميع الحراس أو الجنود فوقي ينهالون عليَّ باللكمات والضربات، ويركلون قفاي بل وكل جزء من جسمي بأحذيتهم

السوداء الضخمة، ويضربونني بالقبضات الخشبية لتلك الآلات التي كانوا يحملونها، وكانوا يبصقون عليَّ وهم يضربونني. وتمزق جلبابي الأبيض ووقعت تلكم العمامة البيضاء من فوق رأسي. وسال الدم من فمي وأنفي، ونزلت سوائل أخرى من أماكن في جسمي لن أذكرها احتراماً لك. وكانوا يشتمونني ويلعنوني بألفاظ لم تستطع قواميسي التعرف على معانيها فلم أكن قد سمعتها طوال القرون الماضية ولم تكن مستعملة حتى في عهد سدوم وعمورة وقرى لوط، ولكنها بالقطع كانت ألفاظاً بذيئة. وابتدرهم رئيسهم الذي ظل جالساً مكانه وهو ينفث ذلك الدخان من فمه وأنفه:

- شاويش «جبريل» اقفل الكلب ده جوه زنزانة وطلِّع د.. أمه ابن الـشـ..

- حاضر جنابك.

وانهال الشاويش «جبريل» على جسدي الأسمر يضربه بقسوة وكان واضحاً أنه يستمتع بذلك فقد كان يؤدي عمله في إخلاص شديد. وكان واضحاً أن الألفاظ التي استخدمها رئيسه قد أوقدت في نفسه حماساً لا يخبو فاندفع يضرب ويضرب ويضرب. وكان كلما ارتفعت يده لتهوي على جسدي يستخدم ألفاظاً قريبة من ألفاظ رئيسه يكررها ويعيدها على مسمعي:

- خلص نفسك مني يا «إبليس» يابن الـشـ..

وكأنه بتكرار تلك الألفاظ يقول إن الشتم بهذه الألفاظ يفعله كل أحد وليس بالضرورة رئيسه فقط، فهي أمر عادي عنده، أو كأنه يعتذر لرئيسه بأن يعيد هو تكرار تلك الألفاظ وكأنه هو من يقولها وليس رئيسه

وهو بهذا يريد أن يحمل وزرها عنه أو هكذا فهمت.

فجأة قام رئيسهم من مكانه وانصرف وتركني تحت قبضة الشاويش «جبريل» وسمعته يتمتم وهو ينصرف:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. قال «إبليس» قال!!..

واستمر الضرب المصحوب بالشتم والبصق نصف ساعة أخرى، وأخيراً انتهى بي الحال داخل الزنزانة الضيقة المظلمة ذات الباب الضخم والقضبان الحديدية. وحين ألقيت داخلها آخر الأمر، كنت عرياناً ومجلوداً ومفلوقاً والدم يسيل من رأسي وكثير من أجزاء جسمي. وكانت بقايا الجلباب الأبيض الممزق بالكاد تستر جسدي، وكانت أوصالي تضطرم وترجف كردة فعل لذلك الضرب المبرح الذي ما كان أي بشر يقدر على احتماله، ولكنني كنت قد اخترت جسداَ ضخماً لأتقمصه وكان أسمر اللون ويبدو أن البشرة السوداء قد خلقت بحيث تحتمل القسوة والمشقة. ولكن صدمتي في ما استقبلني به بنو الصلصال وفجيعتي فيهم كانت أكبر من كل التوقعات. ورغم هذا فقد ازددت إصراراً على مواصلة التجسد. وقلت في نفسي سوف أصمد هذه المرة مهما حدث..

ولما أفقت قليلاً وفتحت عيني ونظرت حولي وجدت أنني لم أكن وحدي في تلك الزنزانة الضيقة وإنما كان بها أكثر من محبوس. ويبدو أن بعضهم قد عبث بي، لمجرد الضحك والتسلية وتمضية الوقت حين كنت غائباً عن الوعي فقد وجدت بقايا الماء مسكوباً فوق رأسي وأنحاء من

جسدي فعلمت أنهم صبوا فوقي دلواً من الماء. وربما فعلوا ذلك لأفيق من الإغماءة بسبب الضرب. وحين أفقت ونظرت، رأيت أنهم كانوا ينظرون ناحيتي ويتغامزون ويضحكون ولكنهم لم يكونوا يكلمونني. وكان أحدهم يقف هناك ناحية الباب ذي القضبان وقد شبك ذراعيه وأدار لي ظهره، وكان بالفعل عملاقاً ضخم الجثة.

تعلمت من هذه الحادثة ألا أستهين بأهل هذه البلاد، وأن أزن كلامي قبل أن أخاطبهم، ولكن كيف السبيل إلى الخروج من هذا المأزق وأنا قد عقدت العزم على أن أظل حبيس هذا الجسد حتى أتعلم من بني الصلصال عبر مخالطتهم مباشرة والصبر عليهم. كنت في هذه المرة أقاتل من أجل الإبقاء على حالتي هذه حتى لو أدى الحال إلى مثل هذا الذي لقيته من الضرب والسجن والأذى والسخرية. لن أتحول لأعود طيفاً مرة أخرى مهما حدث. لقد تعلمت درساً قاسياً أيام «ميسون» و«مايا» و«ماوية». لن أتحول مهما حدث. وسأبقى حبيس هذا الجسد مهما كلفني من عذاب. أريد أن أعرف ما الذي تميز به بنو الصلصال عنا معشر بني النار.

اقترب مني أحد المحبوسين وكان طويلاً نحيفاً ولكنه كان حاد الذكاء براق العينين، فتفرس في وجهي حتى خفت أن يكتشف أنني طيف متقمص

جسداً. صعَّد الرجل نظره في وجهي وجسدي وتفحصني قبل أن يمد يده مصافحاً. وبقيت أنظر إلى تلك اليد الممدودة وكنت متردداً، هل أصافحه فيحس بحرارة جسدي فيزيد ذلك من شكه وينكشف أمري، أم أتظاهر باللامبالاة وأدير له ظهري.. وصافحته أخيراً ولكنني بالكاد لمست يده فلم يبد أنه لاحظ ارتفاع درجة حرارتي عن المعتاد، أو لعله لاحظها وقدر أن هذا من أثر التعب أو الضرب المبرح الذي نالني مؤخراً..

- معك سفة؟

- ما فهمت !!

- سعوط سعوط عندك؟

ولم أفهم ما الذي يريده هذا الرجل النحيف، الذي رمقني بنظرة ملؤها الشك ثم غمز لأصحابه بنظرة خبيثة، وهو يعاود الحوار معي:

- أنت تتعاطى؟ شارب حاجة؟ بانجو؟ أفيون؟ مورفين هيرويين؟ أكيد أنت لست سكراناً وإلا كنا شممنا الرائحة. هل يوجد أحد لا يعرف معنى سعوط وسفة؟

- نعم أنا ..!!

- أنت إما مجنون أو عبيط وأهبل أو تستهبل!

وقبل أن أرد عليه أنقذ الموقف محبوس آخر بأن أخرج من جيبه علبة صغيرة قذف بها ناحية صاحبي النحيف الذي تلقفها بكلتا يديه وفتحها قريباً من أنفي فشممت رائحة العطرون اللاسعة النفاذة التي جعلتني أعطس كرات ومرات، وابتسم صاحبي ابتسامة عريضة ولم يعبأ

بي وبعطاسي وإنما أدخل ثلاثة أصابع في تلك العلبة وأخرج منها عجينة من ذلك المسحوق وأخفاها بين شفته السفلى وأسنانه جهة الفك الأيسر ثم أعاد تلك العلبة لصاحبها بنفس الطريقة التي تلقاها بها. كانت هذه الحركة كافية جداً لأفهم أن تعاطي النشوق أمر شائع بين هؤلاء الناس في هذه البقعة. ولمزيد من التقرب إلى هؤلاء القوم وحتى يظنوا أنني من أهل هذه المنطقة حاولت أن أقلدهم في ذلك الأمر فرأيت أنه لا بأس من المحاولة فمددت يدي لذلك الرجل ليقذف لي العلبة، وما هي إلا برهة وإذا بالعلبة تطير في الهواء ناحيتي فتلقفتها بمثل ما تلقفها صاحبي فاستقرت في يدي. وقلدته في كل شيء فوضعت ذلك المسحوق في فمي ثم أغلقت غطاء العلبة بإحكام وأعدتها إليه. يبدو أن تبادل السعوط عندهم بتلك الطريقة هو أمر شائع أيضاً، وهم لا يمنعونه ممن يطلبه أو أن المتعاطين منهم قد اعتادوا مشاركته فيما بينهم حتى مع من لا يعرفونه، وربما يكون وسيلة للتعارف وكسر الحواجز بينهم.

ولم تمض إلا دقيقتان وإذا بجدران تلك الزنزانة تدور وتدور في غير اتزان، وصور المحبوسين معي تتقسم وتجتمع وتصعد وتهبط في عيني والدنيا تضيء وتظلم وأمعائي ترتفع وتنخفض ثم تدفع بكل ما في جوفي على أرضية تلك الزنزانة الصلبة الباردة، ثم يختل توازني وأخر على وجهي دفعة واحدة وسط ذلك القيء وشتائم المحبوسين وأصوات الاشمئزاز والتقزز والضحكات الساخرة من البعض الآخر.

كنت أسمع وأعي كل ما يقولون ولكنني لم أستطع أن أرفع رأسي عن الأرض ولو مقدار أصبع واحد. وكانت عيناي زائغتين وأوصالي تضطرم وجسدي يرجف. وسمعت ضحكاتهم وهم يسخرون مني وكنت محور الحديث طوال الوقت.

- الزول دا وقع زي التور المعقور، سعوطك قوي، (ود عماري) دوخه ورماه!!

- إنه مجرد سعوط ياجماعة، وليس سيجارة بانجو مثلاً.. وياترى كيف كان يفعل لو أنني جعلته يشم كوكايين!!

- أحلف لكم إن هذا الشخص غير طبيعي، وحرام يحبسونه معنا فواضح أنه «تنبل» مسكين لا يعي ما يقول ولا يدرك ما يفعل. ألا ترى يا «أوشيك» أنه «دلاهة»؟ لقد ابتلع «السعوط» هههه «صاحبك بلع السفة !!».

●●●●

«أوشيك» يلبس الصديري الأزرق فوق جلبابه الأبيض وقد أطلق العنان لشعر رأسه الذي طال نحو السماء وكان قعر «الخلال» بارزاً وكأنه مقبض خنجر مغروس في رأسه. نظر «أوشيك» ناحية صاحبي النحيل الذي كان يتحدث ولكنه لم يرد عليه واكتفى بالنظر ناحيتي وكأنه يوافقه في كوني «دلاهة». ولكن «أوشيك» لم يكن يسخر مثل الآخرين وإنما كان يبدو

عليه الإشفاق والاهتمام. وفهمت من تعبيراتهم الغريبة أن «الدلاهة» هو المخبول أو ضعيف العقل الذي لا يفقه ما يفعل أو غير المسئول عن أفعاله وتصرفاته فهو رجل كبير ولكنه بعقل طفل صغير.

يبدو أن حارس الزنزانة الذي كان يراقب الموقف طيلة الوقت قد أيقن أنني «دلاهة» فعلاً، فقد غاب لحظات ثم عاد بعدها، وبرفقته كبيرهم الذي كان يستجوبني فور وصولي لتلك المنطقة قبل أن ينهالوا على بالضرب. وحين رأى كبيرهم حالتي البائسة أمر بإخراجي من الزنزانة، فاقتادوني خارج المبنى، وأجلسوني على الأرض، وأفرغوا فوق رأسي سطلاً من الماء، ثم أعادوني إلى مكتب ذلك الرجل فأجلسوني على مقعد وجلس رئيس الحراس قبالتي وقال:

- أنا محتار فيك!! شكلك يقول إنك محترم وعاقل ولكن كلامك وأفعالك تقول إنك عبيط وأبله فما حقيقة أمرك؟

وسكت فلم أجب واكتفيت بالنظر إلى وجهه.

- طيب لا أريد أن أعرف اسمك. فليكن «إبليس» أو أي اسم لا يهمني الآن. قل لي أين بيتكم؟ ومن أين أتيت وإلى أين وجهتك ولماذا لا تحمل بطاقة ولا هوية وماهذه الملابس الغريبة التي تلبسها؟

- ليس لي بيت ولا أعرف إلى أين أذهب.

- آآآ لماذا لم تقل لي إنك متشرد؟.. ومن أين جئت بهذه الثياب النظيفة؟ الجلباب والعمامة.. أكيد مسروقة!!.

- ....

- تكلم ! من أين سرقتها؟

- لم أسرقها..

- إذن من الذي أعطاك هذه الثياب؟ وحتى تفصيلتها غريبة فأنا لم أر مثل هذه التفصيلة منذ أكثر من عشرين عاماً.. دعني أراها بوضوح..

قال هذه العبارة واتجه نحو جدار تلك الغرفة، وكان الوقت قد شارف المغيب وأصبح الضوء في الغرفة قليلاً، وفجأة لمس أحد النتوءات التي في الجدار وإذا بضوء قوي ساطع ينبعث من سقف تلك الغرفة أضاء المكان كله في مثل لمح البرق. وكدت أعود لحالتي الطيفية وأطير فراراً وفزعاً مما رأيت من هول المفاجأة حين غمرتني الأضواء، غير أنني تمالكت نفسي، ونظرت فرأيت شيئاً بلورياً قد أضاء فجأة في سقف الغرفة مثل ضوء الشمس الساطع فحول ليلها إلى نهار. وعلى الفور عرفت السبب فمن الواضح أن بني الصلصال قد اكتشفوا سر المغناطيس والعنبر وخاصية جذبهما للحديد واستطاعوا أن يولدوا الضوء والقدرة منهما ولابد أنهم قد عرفوا سر العزم المغناطيسي والتجاذب، وهذه الأسرار لم يكن يعلمها إلا القلة من الأطياف وكانوا يستخدمونها في نقل الجبال وقطع الحجارة. والآن يبدو أن كل فرد من بني الصلصال يعرف هذه الأسرار أكثر من أي فرد من الأطياف. بل إنها أصبحت أمراً عادياً يستخدمه كل أحد حتى في البقاع النائية مثل هذه المدينة في الأطراف الشرقية لبلاد السودان. ورأيت أن كثيراً من أسرار وادي عبقر قد تسربت وأصبح بنو الصلصال يملكونها بل إنها أصبحت أمراً مشاعاً ولم تعد

من الأسرار المكتومة. صحيح أن المعرفة ملك مشاع لمن يكتشفها أو يخترعها. ولكن الواقع هو أننا في عالم الأطياف قد امتلكنا كثيراً من المعارف قبل بني الصلصال وعرفنا كثيراً من أسرار الطبيعة والعلوم، وسخرناها لمصلحتنا في حين تخلف بنو الصلصال، وهذا عيب فيهم وليس تقصيراً منا. ونحن لا يمكننا أن نعطيهم أسرارنا إلا إن قاموا هم أنفسهم ببذل الجهد للتعرف عليها واكتشافها وتسخيرها لمصلحتهم. وفي الواقع قلما يقوم بنو الصلصال ببذل الجهد لامتلاك المعرفة واختراع الأشياء وابتكارها حتى تدفعهم الحاجة أو يتاح لعبقري مخبول منهم أن يمتلك بمحض الصدفة مفتاحاً من مفاتيح العلوم أو يقع على سر من أسرار المعارف الكثيرة المتاحة، والتي تكون عادة في متناول أيديهم ولكنهم لا يبصرونها. بنو الصلصال يموت الواحد منهم ولا يبحث عن المعرفة القريبة منه، بل ولا يجهد عقله أبداً أو يستغل واحداً في المائة من القدرات العقلية التي منحها إياه واهب الآلاء.

●●●●

بعد أن قام كبير الحراس بفحص بقايا الجلباب الممزق الذي كان يستر جسدي والذي لم يقصر الشاويش «جبريل» وأعوانه في تمزيقه وتقطيع أوصاله بالضرب والاعتداء، ورأى أنه من نوع قديم جداً وحتى قماشه لم يكن مألوفاً لديه، داخلته رهبة من جانبي فقد بدأ الشك يراوده أنني لست بشرياً أو أنني قادم من مكان غير موجود ضمن قاموس الأماكن في عقله

المحدود. أو ربما اقتنع بأنه ليس من المصلحة في شيء الإبقاء على بين هؤلاء المحبوسين فأمر بإخلاء سبيلي وعلى الفور قام الشاويش «جبريل» بإطلاق سراحي وأمرني بلهجة لطيفة هذه المرة بالابتعاد عن هذا المكان فوراً وتجنب مناطق التفتيش والحراسات حتى لا يتم القبض على مرة أخرى. وسألت نفسي ياترى ما الذي يجعل هذا الرجل يبدل جلده بهذه السرعة فيتغير فوراً من ذلك العابس المتجهم الغليظ الذي انهال على بالضرب منذ مدة قصيرة في نفس نهار هذا اليوم حتى تمزق جلبابي وسالت دمائي، فيتحول وبلا مقدمات إلى هذا الرجل المشفق العطوف اللطيف فيقدم لي النصائح ويحرص على سلامتي!! ما الذي يتحكم في المشاعر الإنسانية فيجعلها تتأرجح بين النقيضين خلال فترة وجيزة من الزمان لا تفصل بينها سوى سويعات. بل لا تفصل بينها سوى دقيقة واحدة، فمنذ دقيقة، قبل أن يأمره رئيسه بإطلاق سراحي كان ينظر تجاهي شذراَ ويرمقني بنظرات قاتلة وكانت تعابير وجهه تقول إنه أسد جائع يرقب الفرصة لينقض عليَّ ويفترسني، وقد حالت الزنزانة بيني وبينه، وأي النقيضين ياترى هو الأصل في هذه النفس؟ تلك الوحشية الكاسرة الظمأى للافتراس وسفك الدماء أم هي الرقة والعطف والشفقة والرأفة واللطف؟ وكيف يجمع هذا الرجل بين النقيضين؟.

●●●●

كاد عقلي ينفجر من التساؤلات وأنا أغادر هذه المنطقة على عجل،

وثلاثة من زملائي الذين كانوا معي في تلك الزنزانة قد أطلق سراحهم وأصبحوا معي، يسيرون على جانب ذلك الطريق الأسود وهم يتلفتون وراءهم كلما سمعوا هدير مركبة قادمة من بعيد أو رأوا أضواء مبهرة، ولكن تلك المركبات كانت سرعان ما تتجاوزنا بسرعات مجنونة ولا تقف أبداً وكانت أضواؤها الكاشفة تتبدل إلى أضواء حمراء حين تتجاوزنا فنتابعها حتى تغيب عن الأنظار.

بعد إطلاق سراحنا انقسم المفرج عنهم إلى قسمين، فقد مضى رجلان منا شرقاً بينما بقيت أنا و«أوشيك» نسير غرباً.. كان «أوشيك» قد قرر بينه وبين نفسه أنني رجل لا يمكنه الصمود وحده في هذا الطريق الموحش فرأى أن يساعدني دون أن يبين لي أنه يفعل هذا. وحين بدأ برد الليل يضربنا خلع «أوشيك» ذلك الصديري الأزرق فوضعه على كتفي وألبسني إياه وبقي بالجلباب الأبيض. وحينما حاولت الامتناع عن قبوله ثبت «أوشيك» الصديري فوق كتفي بقوة ولم ينبس بكلمة وفهمت منه أنه يصر على أن ألبس هذا الصديري فاستسلمت لمشيئته وأبقيت الصديري حيث أراده «أوشيك» فقد كان جلبابي ممزقاً وعليه آثار الضرب. وحسناً فعل «أوشيك» الذي كان قليل الكلام، وكان حين يتكلم لا يزيد عن الكلمة أو الكلمتين وكانت نبرة صوته تصاعدية ولاحظت أنه يقلب الخاء هاءً فيقول «الهريف» وأفهم أنه يقصد أن يقول «الخريف» وينطق الضاد دالاً فيقول«دربته» وعليك أن تفهم أنه يقول «ضربته» وإلا وقع الضرب عليك أنت.. ولاحظت أنه لا يعرف حرف الطاء بالكلية فيستعيض عنه بحرف التاء.. فيقول «مدينة

توكر» وهو يقصد «طوكر». ولكن كلامه كان حلواً ومنطقه عذباً يطربك حين تستمع له فكنت أبتسم عند سماع كل جملة ينطقها. حين سألته عن اسمه أول مرة قال دون تردد: «أوشيك أوهاج أونور» وبعد تفكير طويل وتأمل فيما قاله أدركت أن اسمه (الشيخ الحاج أنور)!! وأدركت أنني أحتاج قاموساً للهجة المحلية في هذه الأصقاع حتى أترجم الأسماء لمعانيها الحقيقية وأفك طلاسمها ورموزها. وقلت لنفسي إنها لعبة مسلية يمكنني أن ألعبها بيني وبين نفسي كلما سألت أحدهم عن اسمه. ولكنني سرعان ما استسلمت حين سألت عن بعض الأسماء ففوجئت بأسماء مثل «أدروب» و«بلوييت» و»تورير» و«باكاش» و«أقبيب» واكتفيت بالسلام ورده مثل: «دبايوا» «دبايتو» وعلمت أن هذه هي لهجة «البجا».

كان «أوشيك» قد قرر أن يصحبني في سفره إلى حيث وجهته، كما أنه قرر أن يعاملني باعتباري إنساناً عاقلاً فقرر بينه وبين نفسه أن يتجاوز عن جهلي بما حولي فآلى على نفسه أن يعلمني. كان هناك شيء في داخله يشده نحوي ويربطه بي. قال لي «أوشيك»:

- أنا ذاهب في سفر طويل لأشهد زفاف أختي وأنت ستأتي معنا فأنت مدعو.

ولم ينتظر مني جواباً ويبدو أنه لم يكن يتوقعه ولكنني فاجأته

بقولي:

- أكيد فأنا أريد أن أرى مراسم الزفاف عندكم كيف ستكون.

- الطريق طويل جداً وأتوقع ألا نبلغ وجهتنا قبل ثلاثة أو أربعة أيام!! وكان يمكننا أن نستقل الطائرة فنصل في ساعتين أو أقل ولكنني أريد أن نصل إلى داري القريبة من هنا حيث نستقل سيارتي ثم نسافر بها براً لأننا سنحتاجها في الفرح هناك. أنا كلمتهم قبل قليل، وهم الآن ينصبون صيوان الحفل.

الآن بدأت أشك في عقل «أوشيك» فكيف يقول لي إنه كلمهم قبل قليل وبيننا وبينهم ثلاثة أو أربعة أيام؟ هل جن «أوشيك» أم ياترى ما الذي حدث له؟ وماذا يقصد بالطائرة؟ هل نجح بنو الصلصال في ترويض الطيور العملاقة لتحملهم في الهواء بعد أن روضوا الجمال لتقطع بهم الصحراء؟ قلت في إشفاق شديد:

- «أوشيك» يبدو أنك تعبت من الحبس، ولابد أن نرتاح قبل مواصلة السفر.

- لا.. لا.. لم أتعب . لماذا تقول هذا الكلام؟

- بصراحة ولا تغضب مني لأني سمعتك تقول إنه بإمكانك أن تستقل الطائرة ولم أر طيوراً عملاقة تجول في فضائكم ولا أظن أن أي طائر مهما بلغ حجمه سوف يطيق وزنك الثقيل هذا؟ ثم إنك قلت قد كلمت أهلك قبل قليل علماً بأن المسافة بيننا وبينهم ثلاثة أو أربعة أيام كما علمت.

وفي حين تجاهل «أوشيك» كلامي عن الطائرة والطيور فقد لاحظت

أنه كان يغالب الضحكة الممزوجة بالسخرية وهو يكلمني:

- لقد هاتفتهم بالهاتف «الجوال» منذ قليل يا أبلسة!!...

- لم أفهم!! كيف هاتفتهم؟ أرسلت لهم هاتفاً فطار إليهم ثم عاد بهذه السرعة؟

كنت أظن أن «أوشيك» يملك رسولاً عفريتاً من الجن مثل الذين كانوا عند النبي «سليمان» والذين هم معروفون بسرعة الطيران. ولكنه مد يده وناولني علبة صغيرة معدنية سوداء وقال:

- هاتفتهم بهذا... الهاتف الجوال أصبح يحل مشكلات الاتصال كما تعلم يا أبلسة.

- لم أفهم !! هاتف جوال؟ وكيف يتجول؟

- هذا الجهاز الصغير اسمه الهاتف الجوال. وهو متصل بمحطات إرسال متصلة بالأقمار الاصطناعية في الجو هناك، ويمكنني بواسطته أن أتواصل مع أهلي من أي مكان في العالم.

ظل «أوشيك» المسكين يشرح لي ويشرح على قدر فهمه. وسمعت كثيراً من العبارات الجديدة التي لم أستوعبها، فهل أصبح القمر المنير أقماراً كثيرة؟ وما علاقة القمر بالهواتف والتواصل؟ نحن معشر الأطياف لا نعرف عن القمر إلا أنه يضيء حين يقع عليه ضوء الشمس فينعكس ضوؤه على الأرض لوقوع مداره في المسافة بين مدار الشمس ومدار الأرض. ولم أشغل عقلي بحكاية الأقمار كثيراً فقد شغلتني حكاية الهاتف هذه أكثر، ورغبت

أن أفهم كيف يحدث هذا الأمر فطلبت منه أن يصف لي عنوان أخته وبيتها، فوصف لي العنوان بدقة، وكان متعجباً لماذا طلبت منه ذلك ولكنه لم يشك لحظة في أنني إنسان ضعيف العقل ومتخلف. ثم طلبت منه أن يستغل فترة ذهابي لقضاء حاجتي خلف الشجرة القريبة فيتصل بهم ويحدثهم وذلك ريثما أقضي حاجتي وأعود. ولما كنت أسرع طيار في العالم فقد قررت أن أستخدم قدراتي في الطيران لأفهم أين وصل بنو الصلصال من تقدم في هذا المجال. وبينما كان يهاتفهم اختبأت خلف شجرة وتظاهرت بأنني أقضي حاجتي، ولكنني في واقع الأمر كنت أطير فأصل إلى العنوان ثم أعود خلف الشجرة دون أن يلاحظ أو ينتبه لغيابي، وذلك لسرعة ذهابي وعودتي. وحين كنت أطير فأغيب عنه كنت أرى أخته في المكان الذي وصفه لي وهي تمسك بعلبة معدنية شبيهة لتلك التي كان يضعها «أوشيك» قرب أذنيه وكانت تحدثه فيسمع صوتها ويحدثها فتسمع صوته. وتيقنت من ذلك حينما رأيتها في غرفتها فدخلت وألزقت أذني قريبا من أذنها فسمعت صوت «أوشيك» وهو يكلمها ويخبرها بمكانه ويقول لها بأنه سيأتي ومعه صديق مسكين يؤنسه في السفر رغم أنه لا فائدة منه فهو متخلف وضعيف العقل. وفهمت من الكلام أنه يتحدث عني أنا، ولكن الدهشة ملأتني وأنا أراهما يتخاطبان من على البعد بهذا الوضوح وهذه السهولة. وتأكدت أن بني الصلصال قد غلبوا بني النار في هذا المجال بلا شك فقد قرب هذا الجوال المسافة بينهما وقلل من الفوارق وأوجه الاختلاف. ورغم أنني طيف إلا أن هذا الاختراع الذي أحدثه بنو الصلصال كاد أن يسبب لي الجنون

ويذهب عقلي! بنو الصلصال فاقوا بني النار في سرعة الاتصال عن بعد والتواصل والتخاطر ولم يبق إلا أن يغلبونا في نحت التماثيل والمحاريب وصناعة القدور والأدوات ونقل الأشياء البعيدة واكتشاف الكنوز التي في باطن الأرض.

وحين دخل الليل وضربنا البرد بعد أن أصبحنا في منتصف الطريق تعطلت مركبة أوشيك، ورأيت التجهم بادياً على محياه، وحين سألته عما أصابه تبين أنه لا يعرف شيئاً عن إصلاح المركبات وأنه لا بد من إيجاد شخص في هذا المكان القفر له خبرة في صيانة تلك المركبة. وحين فتح مقدمتها ونظرت فيها علمت أن هذا النوع من العلوم لا يعرفه بنو النار بعد وأنه من مخترعات بني الصلصال التي تفردوا بها وبالتالي لا يمكنني التدخل لمساعدته في هذا الأمر ولا أستطيع إصلاحها. وتركنا السيارة في قارعة الطريق وأكملنا سيرنا مشياً لعلنا نجد قرية نمضي فيها الليل أو نجد من يعيننا على إصلاح المركبة المعطلة.

وبعد أن سرنا مسافة طويلة تحت جنح الظلام في ذلك الطريق القفر تراءت لنا قرية صغيرة تناثرت بيوتها المبنية من الطين والمسقوفة بالقش، وكانت بعض الأضواء الخافتة تنبعث من نوافذها الصغيرة. وسمعنا نباح الكلاب من بعيد حين شعرت بقدومنا، وكان أكثر نباحها موجهاً ناحيتي ولابد أنها كانت تعرف أنني لست بشراً فأظهرت عدم ترحيبها بي. وحين تزايد نباحها باقترابنا من حدود القرية في تلك الليلة الباردة التي اختبأ فيها

الجميع تحت ألحفتهم، أطلت بعض الوجوه المستريبة من وراء الأبواب، ولكنها كانت سرعان ما تختفي والأبواب تغلق إلا باباً واحداً فتحته امرأة نحيفة طويلة القامة نظرت ناحيتنا وبدلاً من أن تغلق بابها توجهت صوبنا وقالت بصوت ضعيف:

- هبابكم. ادهلوا !!

وبعد أن فككت رموز طلاسم كلامها فهمت أنها كانت ترحب بنا فتقول مرحباً بكم ادخلوا.. وكان ترحيبها بنا أشد دفئاً من ذلك الكوخ الدافيء الصغير الذي أدخلتنا إليه في تلك البقعة النائية من ربوع شرق السودان. وعلمنا أنها أرملة توفي زوجها منذ مدة ولم تكن قد أنجبت منه، ثم لم يتقدم أحد للزواج منها بعد زوجها الأول. وفي حقيقة الأمر لم تكن ذات مال ولا جمال. عاشت حياة بائسة. وكان حظها من التعليم غير كبير. كانت تعد الوجبات الخفيفة كل يوم بعد صلاة الفجر لتبيعها لتلاميذ المدرسة البعيدة عن قريتها قبل طابور الصباح. وكانت بارعة جداً في صناعة الزلابية. والتلاميذ يتجمعون حولها كل يوم صباحاً، فتبيع الزلابية ثم تعود إلى بيتها تحمل قفتها الفارغة وقليلاً من النقود التي تشتري بها حاجاتها وتستر بها حالها وتؤنس وحدتها. وهي لا تطمع في شيء أكثر من الستر وراحة البال. وإذا جاء الستر بتلك النقود القليلة فإن راحة البال بلا زوج ولا أنيس لا طعم لها. وعلمت أنها حين رحبت بنا وأدخلتنا كانت تطمع في من يحدثها وتحدثه، ولابد أنها حين رأت حالتي البائسة رق قلبها وخشع فؤادها لنا وتحركت في نفسها تلك المشاعر البشرية التي ظللت عمري كله أبحث عنها

وأتمنى أن أتمثلها في حياتي..

••••

بعد أن أدخلتنا كوخها وتأكدت أنه قد طاب لنا المقام، تسللت خلسة دون أن نشعر بخروجها، وسرعان ما عادت بكسرة «القراصة» المصنوعة من عجين القمح المخبوز مع خليط الحليب وقد رشت فوقه مسحوق السكر. وانقض صاحبي «أوشيك» على ذلك الطبق فالتهمه وبالطبع شاركته بضع لقيمات. وبقيت المرأة تنظر إلينا في حبور ونحن نلتهم كل ما أمامنا في تلك الليلة الباردة. ولاحظت أنها تتحدث بلهجة محببة فهي امرأة لثغاء تقلب السين ثاء والراء ياءً ورأيت صاحبي «أوشيك» يستمتع بحلو كلامها ويعجبه لسانها ولكنه لم يتصالح مع دمامتها أو هكذا بدا لي فقد كان سرعان ما ينظر إلى الأرض كلما نظر ناحيتها وانتهى به الأمر إلى الكلام معها دون أن ينظر إليها. ولاحظت أنهما يفهمان بعضهما جيداً في الكلام كما لاحظت أنني الوحيد بينهما الذي تفوته كثير من العبارات ويجهد عقله ليتابع ذلك الحوار ذا الإيقاع السريع. ورغم لسانيهما الغريبين إلا أن حوارهما لم ينقطع ولم تتوقف هي عن الكلام فقد كان وجودنا في ذلك الكوخ الصغير هو جل ما تطمع إليه هذه المرأة في وحدتها. وهي حين تكلم «أوشيك» تنظر ناحيتي وكأنها تريد أن تشركني في الحوار بالرغم مني، فأرد على نظراتها بابتسامة وأكتفي بالمتابعة في صمت. ودون أن تدري فقد

غمرتني أفعالها غير المتكلفة بفيض من المشاعر الحلوة وأدخلت في نفسي إحساساً جديداً لم أعهده من قبل أو أنني لم أذق مثله منذ عهد «ماوية» و«ميسون». دفق الحنان البشري هو في حقيقته شيئ غير معهود في عالمنا، فعالم الأطياف تسوده المشاعر المتبلدة والقسوة والعنف والعداوة وتملؤه الكراهية والبغضاء والتسلط وحب الانتقام. ولكن هذه المرأة تعطي دون أن تنتظر أي مقابل وهذا هو أعجب ما رأيت في عالم بني الصلصال. ورغم أنها امرأة وحيدة إلا أنها أدخلت رجلين إلى كوخها وأكرمتهما في حين امتنع بعض الرجال في تلك القرية الصغيرة عن الترحيب بنا وإكرامنا.

كان «أوشيك» متلهفاً للعثور على من يعينه في صيانة المركبة فمن الخطر تركها هكذا في قارعة الطريق، والعطب الذي في السيارة لم يكن عطلاً بسيطاً و«أوشيك» يعلم على الأقل أن هذا العطل كبير ويتطلب تبديل بعض القطع التالفة في المركبة. وحينما سأل تلك المرأة أجابته بأن الرجل الوحيد الذي يعرف صيانة المركبات قد غادر القرية إلى «الخرطوم» منذ يومين ولا يتوقع عودته قبل أسبوع على الأقل. وأسقط في يد «أوشيك» فلم يدر كيف يتصرف، ولكن لم تكن باليد حيلة ولم يكن أمامه إلا أن ينتظر فقد سألها عن أقرب قرية يمكننا التوجه إليها فقالت إن أقرب قرية بها خدمة صيانة المركبات تبعد عنا أكثر من مائة وخمسين كيلومتراً.

(11)
في جسد امرأة

استسلم «أوشيك» للنوم بعد تلك الوجبة الدسمة والفراش الدافيء، بعد أن أكمل حواره الغريب مع تلك المرأة وسمعته وهو يرتل أذكاره وأدعيته، ثم وضع رأسه على مخدة صغيرة مكسوة بالجلد وسرعان ما سمعنا غطيطه.

انتحينا جانباً أنا ومضيفتي في الركن المقابل من الكوخ حيث أعدت فراشاً وغطاءين اختبأنا تحت دفئهما، وظللنا نتحادث بصوت خفي حتى لا نوقظ «أوشيك». وعلمت أن اسمها «رحمة»، وأخذت تحدثني عن ماضيها وكيف فقدت زوجها الذي توفي وهما في ريعان الشباب، وما الذي حدث لها من معاناة وعذاب بعد أن ترملت. واسترسلت في الكلام حتى وددت لو أنها كفت فقد كانت كلماتها البسيطة الساذجة تخترق قلبي وتشعل فيه مشاعر جديدة من التعاطف، وتمنيت ساعتها لو أنني أستطيع أن أدير عجلة الحياة فأعيدها طفلة صغيرة، ثم أحيل حياتها البائسة إلى سعادة لا تعرف الحزن وبراءة لا تنقطع، ولكن ما أنا إلا مجرد طيف والأطياف لا تملك في مثل هذه الأمور إلا التمني. رأيت كيف أن هذه المرأة تتشبث بالحياة مع أنه لا يوجد شيء في واقعها يستحق أن تعيش من أجله. لا زوج ولا أهل ولا ولد ولا أنيس.. ولكن قلبها كان مترعاً بالحنان رغم البؤس الذي أحاط بها من كل

جانب طوال أيام حياتها، والرضى الذي في قلبها كان يفيض فيغمرني، حتى أنني كنت أتضاءل أمام عظمة هذه المرأة التي بدأ الشيب يسري في خصلات شعرها والتجاعيد تتربع على جبينها الشامخ الوضاء رغم كل ما أصابها.

فاجأتني بسؤالها:

- ما اسمك يا ابن العم؟

- ليس لي اسم محدد ويمكنك مناداتي باسم «طيف»!!

لاحظتُ أن هذه هي المرة الوحيدة التي لم أكذب فيها بشأن اسمي مثل آلاف المرات السابقات، وأحسست بالراحة تسري في كياني حيث لم أخدع هذه المرأة.

- «طيف» اسم غريب ولكنني أحبه. قل لي يا «طَيُّوف» من أين أتيتم و إلى أين تنوي المسير؟

لاحظت أن المرأة بدأت تدللني منذ الآن. ولا أدري إلى أين سيقودنا هذا التدليل!! أرجو ألا ينتهي بي المقام بالكذب عليها.

- أتينا من الشرق ونتجه غرباً !!

- الناس هنا يأتون من الغرب ويتجهون شرقاً. الجميع يريد الاغتراب. البعض يذهب إلى «جدة» و«الرياض»، و«مسقط» والأكثرون إلى «دبي». وأنتم قادمون من الشرق لابد أنك عائد من الاغتراب. أرجو ألا تكونوا قد تركتم حقائب السفر داخل المركبة!!

لم أعرف أي مدينة هي «الرياض» فلا بد أنها مدينة حديثة التكوين، ولعلها حين ذكرت «مسقط» كانت تقصد تلك البليدة الصغيرة التي يطلقون

عليها «مسكد». وحين ذكرت «دبي» أدركت أنها كانت تقصد مدينة «الوصل» القديمة وعجبت كيف أن أسماء بعض الأماكن تتغير كثيراً في حين يبقى البعض منها كما هو فالوصل أصبح اسمها «دبي» في حين حافظت «جدة» على اسمها كما هو على مدار هذه الآلاف من السنين.

- هاهاها.. ليس معنا حقائب أصلاً، ولكن بالفعل أنا عائد من الاغتراب، وأي اغتراب.. ولكنني لم أكن في «جدة» ولا «الرياض» أو «دبي».

- إذن فأنت قادم من «عمان» أو «قطر»!!

تذكرت أنها تقصد (أرض مجان) حين ذكرت «عمان»!! وتذكرت عهد طفولتي وتذكرت أرض الكهوف وسفوح جبال الحجر الشرقية عند هضبة سلمى. هذه المرأة أثارت في نفسي كوامن الوجد القديم!!

- لا ولا هذه!!

احتارت «رحمة» في أمري فلاذت بالصمت. ولكنني أخرجتها من صمتها بالسؤال عن حالها:

- لماذا لم تتزوجي يا «رحمة» بعد أن ترملت؟

- لم يتقدم لي أحد. هل تريد أن تتقدم لي؟

قالت هذا وزحفت نحوي حتى التصق غطاؤها بالغطاء الذي كنت أقبع تحته، وتقابلت حدقات أعيننا واقتربت من بعضها، وكانت تنظر في جرأة مليئة بالرغبة الأنثوية. وتضاحكتُ لأخفي فزعي من هذا السؤال الذي تبعه ذلك الزحف المخيف والاقتراب. وخفت أن تواصل الهجوم فتدك حصوني وتهدم أسوار مدينتي. ولكنها بقيت حيث هي وواصلت الكلام:

- لو تقدمت لي فسوف أرفضك على الفور إلا إذا..

- إلا إذا ماذا؟

- إلا إذا تحقق ما أظنه فيك؟

- وما الذي تظنينه فيَّ يا «رحمة»؟

- أنك جني. طبعاً أنا متأكدة أن «أوشيك» ليس جنياً ولكن أنت بالتأكيد جني، بل أظنك جني «هدندوي» لأنك أتيت مع «أوشيك» هذا ولكن «أوشيك» إنسي... لا يهمني من أي قبيلة تكون فقد كرهت بني البشر. لقد عشت بينهم ولم أجد ما كنت أؤمله فيهم بعد وفاة زوجي. ولو تقدم لي جني فربما أتزوجه لأنني سمعت أن الواحدة منا حين تتزوج جنياً فسوف يعيد لها شبابها الذاهب ونضارتها الذابلة... وربما يأخذها إلى كنوز «سليمان» المدفونة تحت البحر فتأخذ منها ما تشاء..

قالت هذا وهي تمسك بأطراف الغطاء بكلتا يديها وكأنها تريد أن تغطي وجهها بذلك الغطاء أو تختبيء تحته خجلاً من كلماتها التي ألقت بها فجأة.

وحين سمعتُ اسم «سليمان» والكنوز التي تحت البحر اقشعرت كل مسام جسمي وغاص قلبي فزعاً ولكنني تضاحكت لأخفي فزعي من هذا الكلام:

- هاهاها.. لابد أنك تمزحين. وهل يعقل أن يتزوج الإنس من الجن؟ وهل يعود الشباب؟

- نعم نعم. يقولون إن الجني رهيب في المعاشرة الزوجية.. أليس

هو ابن «الجنية»؟

قالت هذا وضحكت ضحكة رنانة ثم واصلت حديثها ولم تنظر ناحيتي لترى ردة فعلي على ذلك الكلام الذي ملأني بالدهشة والخجل معاً، ولو أن بني النار يتعرقون من جراء هذا الكلام لتبلل الفراش الذي كنت أرقد عليه:

- أنا سمعت بأن كثيراً من النساء اللاتي يعشن وحدهن ولا يقبلن الزواج من الإنس يتزوجهن الجن. أنا أعرف «حياة» التي كانت ترفض كل من يتقدم لها، وسمعت النساء يتهامسن بأن جنياً كان يعشقها وهو الذي كان يمنع الخطاب من التقدم لها. وأنه متزوج منها ولها منه أولاد وبنات..

- وهل تصدقين هذا الكلام يا «رحمة»؟ هذا كلام بعيد لا يصدقه العقل..

- لالا.. عليك أن تصدقه لأنني رأيتها وهي حكت لي أن الجني العاشق تزوجها وأنها تكتفي به عن جميع الرجال وهي ترى أولادها ولكن نحن لا نراهم. هل تصدق يا «طيف» أنني يوم رأيتك عرفت على الفور أنك جني. أنا لا أخاف من الجن.. ماذا يستطيع أن يفعله بي الجن؟ إنهم أضعف من أن يفعلوا أي شيء. أنا أقوى منهم. ولقد كنت أراهم كثيراً فأنا أعيش وحدي كما تعلم، وكانوا يزورونني مثلما أنتم الآن معي ونظل نسمر حتى الساعات الأولى من الفجر حين يسمعون الأذان وكنت أتلفت حولي بعد الأذان فلا أراهم ولو بقى أحد منهم حتى طلوع الفجر لتزوجته ولكنهم كانوا يذهبون مع أولى خيوط الفجر..

- أي أذان؟

- أذان الفجر للصلاة. ألست مسلماً؟

- وهل جاء زمان الإسلام؟ ياللهول إذن نحن في آخر الزمان!!..

- ماذا حدث لك؟ الآن بدأت أصدق بالفعل أنك جني يا «طيف». هل يوجد بشر لا يعرف الإسلام أيها المعتوه؟

حين ذَكَرَتْ الاسلام سرت في جسدي رعشة باردة، فقد علمنا نحن بني النار منذ بدء الخليقة أنه حين يجيء نبي المسلمين من بني الصلصال فهذا هو آخر الزمان وأن بني النار ينقسمون إلى قسمين، قسم يتبعه وقسم يعاديه، وأن أكثر نشاط «عزازيل» وجنوده يكون في هذا الزمان وأن أتباع «عزازيل» يكثرون لدرجة أنك تجدهم في كل مكان لأن «عزازيل» يدرك حينها أن نهاية الكون قد اقتربت فلا يترك باباً من أبواب الشر إلا فتحه، وأنه يستعين على ذلك بما ينتجه بنو الصلصال ويبثونه في الأثير. وأن بني الصلصال يتواصلون فيما بينهم من على البعد، وأن المعارف تكون متاحة لكل فرد في كل مكان وأن الطيران والانتقال والتواصل يصبح أسرع من أي وقت مضى، وأن المخترعات تصبح أكثر من أن يدركها أو يحيط بها فرد واحد أو أمة من الأمم، وذلك قبل أن يقوم بنو الصلصال بتدمير حضارتهم بأيديهم مثلما حدث لبني النار قبل مجيء بني الصلصال.. يتحاربون ويفني بعضهم بعضاً، فيعودون للحياة البدائية الأولى بعد الخراب الذي يحدثونه باستخدامهم لسلاح الصعقة الذي يقضي على خاصية المغناطيس على الأرض فتتعطل

الآلات والمخترعات وتتوقف المركبات وتعود الحياة إلى سيرتها الأولى، حيث لا مغناطيس ولا حضارة. ويقع الصراع الكبير بين بني الصلصال. وتتوالى الأحداث الكبيرة والحرائق والزلازل والخسف بسرعة وبعدها يحدث الدمار الشامل للكون ونهاية الحياة وبداية البعث.

سرح خيالي بعيداً فيما قالته «رحمة» حين ذكرت مجيء الإسلام، وقبل أن أسألها كم مضى على مجيء نبي المسلمين قطعت طوفان الأفكار الذي كاد يذهب بعقلي:

- يبدو أنك جبان مثلك مثل البشر. تخافون من الزواج وتحمل المسئوليات. لا أريد زواجاً ولا «نيلة»!! دعني أنام في سلام.. تصبح على خير.

قالت عبارتها الأخيرة وجذبت الغطاء فوق رأسها واختبأت تحته.

- لو اعترفت لك أنني بالفعل مثلما تقولين فهل ستخافين مني أم أنك ستتزوجينني بالفعل؟

حين سمعت «رحمة» عبارتي الأخيرة رفعت الغطاء عن وجهها ونظرت ناحيتي بلهفة فرأيت البريق في عينيها وهي تقول:

- يوووه.. !! يا «طيف».. قلت لك ألف مرة إنني لا أخاف منكم. وأنا أعرف أنك منهم لأنني رأيتهم كثيراً.. وقد كان لي في القديم صديقات يرينهم معي. فقد كانت «هيبات» التي ترمي «الودع» تراهم كثيراً وينقلون لها الأخبار ويؤنسون وحدتها وكانوا يحذرونها من أعين الجن لأنها أشد وقعاً

وتأثيراً من أعين الإنس. وقد كانت «هيبات» شديدة الجمال ممتلئة الجسم ولكنها لم تتزوج قط. ويقال أن عشيقها من الجن قتلها حين غار عليها.

- من الذي أدخل في عقلك كل هذه الترهات يا «رحمة»؟ وهل يعقل أن يعرف أحد منكم كل هذه الأخبار عنها وعن عشيقها ثم يأتي لينقلها للناس؟

- وإذا أخبرتك أن التي أخبرتني هي جنية وأنها رأت عشيق «هيبات» وهو يقتلها فهل تصدقني؟

- لا لن أصدقك حتى لو حلفت لي!! لأن هذا لا يحدث بل هو من نسج خيالك يا «رحمة».

- لو أخبرتك بأشياء عنك فهل تصدقني بعدها؟

- أخبريني..!!

- لالا. قبل أن أخبرك أريد أن أشترط عليك شرطاً وعليك أن تفي به لو تبين أن ما سأخبرك به هو بالفعل قد حدث معك.

- أخبريني إذا ما هو شرطك؟

- عليك أن تقبل بأي شرط أشترطه عليك – وفي الحقيقة هو شرط واحد فقط- وبعد القبول سوف أخبرك بأمر وقع لك في حياتك يؤكد صدق كلامي.

- سوف أجاريك في الحديث حتى أعلم إلى أين ينتهي بك الخيال!! ولكن كيف أثق أن شرطك هذا لن يضرني؟

- لن يضرك.. وعليك أن تثق بي. ألم تلاحظ أنني أخبرك بأشياء لم أخبر

بها «أوشيك»؟

- بلى بلى.. ولكن..!

- أنت مزيج من بني النار وبني الصلصال. رضعت من ثدى امرأة إنسية حين كنت صغيراً. ولهذا فدماؤنا تجري في عروقك. ولولا هذا لما اخترت أن أتحدث معك ولا أقول لك هذا الكلام.

- ياللهول ولكن كيف عرفت هذا؟

- ألم أقل لك إنني أعرفك جيداً؟ فلقد عرفتك فور رؤيتي لك. ولولا ذلك لما استقبلتك في بيتي ولما فتحت لكما الباب أصلاً أنت و«أوشيك» هذا!! رغم أنه شيخ ويخاف الله!!.

- أنت لست سعلاة أو من بني النار ومتخفية في جسد إنسية صحيح؟. إذاً أخبريني بالمزيد.

- لا. لن أخبرك بأي شيء قبل أن تنفذ شرطي.

- وما هو شرطك؟

- شرط وحيد هو أن تتقمصني بقية عمري. وفور قيامك بتقمصي فسوف لن تحتاج أن تسألني عن أي شيء وسوف أكون لك كمرآة ترى فيها روحي ونفسي وذكرياتي.

كنت في الماضي أتقمص شخصيات وهمية.. ولكنني لم أنتبه إلى أن تقمص شخصيات حقيقة هو في واقع الأمر أفيد من تقمص الخيال، لأن تقمص الشخصيات الحقيقية يتيح لك أن تحيا حياة بني الصلصال على

الحقيقة في جسد حقيقي ولكن خطورته تكمن في انتهاء حياتك مع انتهاء حياة صاحب هذا الجسد حين يأتي أجله إلا إذا تمكنت من الخروج منه قبل ذلك. وقلت لـ«رحمة»:

- ولكن هذا سوف يلغي ذاتك وشخصيتك وإرادتك يا «رحمة»، ويجعلك طوعاً لإرادتي وشخصيتي لأنني حينها أكون أنا المسيطر.

- وهل تعتقد أنه قد بقيت لي شخصية أخاف عليها أو إرادة أخشى زوالها؟ سيطر كما يحلو لك يا طيوف سيطر سيطر.. المرأة منا تعيش من أجل زوجها وأولادها. وأنا لازوج لي ولا أولاد فلو تقمصتني فإنك سوف تبعث في جسدي حياة جديدة تستحق أن أحيا من أجلها. وسوف تكون زوجي بقية عمري، ومن يدري فربما أرزق منك بأولاد. إن أردت أن تسعدني فتزوجني.

- أحلفك بكل ما تؤمنين به أن تخبريني كيف عرفت أنني رضعت من ثدى امرأة إنسية.

- هل وافقت على شرطي؟ عليك أن توافق أولاً..

- لا فائدة من الحديث معك فأنت عنيدة جداً. آسف لن أقبل بشرطك. ليس لأنني لا أريدك زوجة لي فأنا أقدر أن أحولك إلى امرأة جميلة، وأستطيع أن أسعدك بالطبع.. ولكن لأنني أخاف من الالتزام. أنا أحمل ماضياً غير سوي وتاريخاً عريقاً في الخيانة. تخليت عن جميع من وثقوا بي. لا لا .. لا أريد تكرار هذا الأمر مرة أخرى أبداً.

- جميل إذاً أنت لا تريد تكراره فلا تكرره وانتهى الأمر. تزوجني

ولا تتخل عني ولا تخني ونعيش في تبات ونبات ونخلف صبياناً وبنات. وبالمناسبة عليك أن تسرع فقد أبلغ مرحلة اليأس من الإنجاب قبل أن ينتهي هذا الحوار الطويل بيني وبينك الآن. فلأبقى صامتة أكرم لي.

كان منطق المرأة السهل الممتنع البسيط هو أكثر ما أخافني منها، وكانت امرأة كريمة وشجاعة وصادقة، وكانت تعلم عني الكثير فقد ذكرت للتو أنني لست بشرياً ولابد أن أعرف كيف حدث هذا. ولكنها لا تريد أن تخبرني. ويبدو أنني لا أجيد التنكر في أجسام بني الصلصال فقد عرفتني قبلها تلك المرأة الإبرامية «ماوية».

- سوف أوافق على شرطك ولكن لي شرط واحد هام لابد أن توافقي عليه وإلا فلا اتفاق بيننا.

- هِهه أنت مراوغ محترف. قل لي ما هو شرطك يا شاطر؟

- سوف أوافق أن أتزوجك وأنفذ شرطك بأن أتقمصك بقية عمرك ولكن بشرط واحد وهو أن اتفاقنا هذا يعتبر ملغياً على الفور لو امتنعت عن تنفيذ أوامري بعد أن أتقمصك، وذلك محافظة على حياتي وحياتك، لأنك تعرفين أنه لو حدث لك شيء وأنا متقمص جسدك فسوف يحدث نفس ذلك الشيء لي أنا أيضاً حين أكون حبيس الجسد وأن كل ما يقع على جسدك يقع عليَّ بكل تأكيد.

- اتفقنا.. تقمصني!!.

- ألن نتزوّج أولاً؟

- بالطبع. !!

- لأنني يوم أتقمصك نصبح جسداً واحداً.. وأظن أن هذا في شريعتكم ممنوع.. بل حرام!! ألست من أتباع نبي الإسلام؟

- هأ هأ وهل تأبه للشريعة والحلال والحرام والإسلام يابن الجنية؟ تقمصني الآن!. أيها الهجين أو البسني أو أياً ما تفعله بي.

دفعني الفضول الشديد حين ذكرت كلمة «الهجين» أن أعرف كيف علمت «رحمة» أنني رضعت من ثدى إنسية علماً بأن هذا الأمر لم يطلع عليه أحد من قبل. وكنت مستعداً لفعل أي شيء حتى لو كان هو الزواج من «رحمة» من أجل أن أحصل على جواب لتساؤلاتي المحيرة كيف عرفت «رحمة» هذا السر.

●●●●

أنا أعلم بالطبع أن التقمص الحقيقي مضر ببني الصلصال، لأنك حين تدخل جسداً آخر تظلم صاحبه فتسلب إرادته وتصيب نفسه بأمراض عديدة ليس من السهل زوالها أو علاجها، وذلك لتنافر الطبائع بين بني النار وبني الصلصال، بالإضافة إلى حرمانه من ممارسة نشاطه الاجتماعي وعلاقاته مع الآخرين. الوحدة والقلق هما أسوأ ما يصيب الإنسان الذي تتقمصه الأطياف. ولكن أسوأ من ذلك هو أن الطيف يتقيد بالجسد ويكون

حبيسه ولا يجد حريته ولا يقدر أن يستخدم جميع قدراته فيقلصها ليتمكن من البقاء داخل هذا الجسد. كما أن الطيف يمرض بمرض ذلك الجسد ويسعد بسعادته ويشقى بشقائه. ولكنني لا أعلم شعور الطيف المذكر حين يتقمص جسد امرأة. كيف سيحس وهل سيتعايش مع هذا التناقض فيكون نعمة أم أنه سينقلب نقمة. عموماً بالتجربة يتضح كل شيء.

كنت على وشك أن أخرق قاعدة كونية هامة وهي المزج بين العالم الافتراضي الذي ظللت أحيا فيه منذ ولادتي والذي يحيا فيه بنو النار والعالم الواقعي الذي يعيش فيه بنو الصلصال وهما عالمان متوازيان تقل نقاط التقاطع بينهما ويصعب المزج. نعم أدرك أن البعض منا حين يتقمص جسداً من بني الصلصال أو حين يرضع من ثدي امرأة منهم يكون قد خرق هذه القاعدة، أو خرج عليها، ولكنه خروج مؤقت وسرعان ما يعود كل شيء إلى طبيعته. وأدرك أيضاً أن الخيط الذي يفصل بين هذين العالمين هو خيط رفيع جداً، وأن بني الصلصال حينما يبالغون في وصف شيء متميز من عالمهم ينسبونه إلى عالمنا، ولكن المدهش أيضاً هو أن قومي من بني النار حين يصفون شيئاً مدهشاً فإنهم ينسبونه إلى عالم الحقيقة الواقعي عالم بني الصلصال ولكن ربما تنجح هذه العلاقة لكوني هجيناً فأنا أجمع بين خصائص بني الصلصال وخصائص بني النار فقد رضعت لبن امرأة إنسية وربما يؤهلني هذا المزج للنجاح من يدري فالتجربة خير برهان.

كنت أدرك أيضاً أن بني الصلصال قد استحدثوا علماً مستقلاً لعلاج النفس البشرية التي يمسها أحد بني النار لأنها تكون نفساً مضطربة غير سوية في مقاييسهم وتحتاج إلى العلاج والدواء وإلى المعاملة الخاصة. وأنها تدفع صاحبها إلى القيام بأفعال وأقوال خارجة عن المألوف في واقع بني الصلصال حتى أنهم ينسبون من يفعل هذا إلى عالمنا! ولكن المدهش أيضاً هو أن نفس الشيء يحدث في عالمنا لمن يقترب من بني الصلصال. ولا أنسى كيف أن جنود أبي ظلت تطاردني بقية حياتي وأن «عزازيل» نفسه قد جمع كثيراً من قبائل بني النار للقبض عليَّ حين علم باقترابي من بني الصلصال وتعاطفي معهم. كان يقول لجنوده إنني مريض لابد من القبض عليه وإرساله للعلاج.

ولكن الذي لابد أن أعلمه هو هل هذه المشاعر الجميلة التي أحس بها حين أقترب من بني الصلصال مقتصرة على جنسهم فقط أم أنها مشاعر محايدة يستطيع أي مخلوق أن يحس بها ويعيشها؟ في واقع الأمر لقد أحسست بها وعشتها بل واستمتعت بها كثيراً حين اقتربت من بني الصلصال، علماً بأنني من بني النار. ولكن هل يعقل أن هذا الإحساس متعلق بكوني قد رضعت حليباً في طفولتي من امرأة إنسية؟ أم أنه لا علاقة له بهذا؟ أظن أن التقمص سوف يجيب عن سؤالي هذا.

هذه أول مرة أتقمص فيها جسداً حقيقياً فقد كانت جميع الأجسام السابقة وهمية اخترعتها، وحين تقمصت «رحمة» وانتقلت داخل جسدها وتمددت في جميع حنايا جسدها أحسست بالدماء تجري في عروقها والأنفاس تعلو وتهبط في صدرها وأحسست بحرارة الجوع ولسع البرد، وأصبحت أحس بجميع مشاعر الأنثى.. أصبحت جسداً من نار في امرأة من نار.. وأحسست بكياني وكأنه أصبح جزءاً من كيانها وذاب فيه ولكن روحي بقيت مستقلة لم تذب في روحها، وبقيت إرادتي هي المسيطرة. نفسي تقدر أن تخاطب نفسها دون الحاجة إلى الكلمات. ما هي إلا أن أهمس لها فتدرك للتو ما أريده منها. وتركت لها حرية الإرادة، فتختار ما تريد وتفعل ما تشاء دون إملاء مني أو تدخل إلا إن تعلق الأمر بمصيري وحياتي. بالفعل أريد أن أعرف هذه المرأة ومن خلالها أتعرف إلى حياة بني الصلصال في هذا الزمان الغريب بعد ثلاثة آلاف سنة أمضيتها في الحبس داخل القمقم. أريد أن أعرف ما الذي تغير. ودون أن أشعر حبست نفسي هذه المرة في قمقم من لحم ودم. حبست نفسي في قمقم «رحمة»، في جسد امرأة.

●●●●

أول رغبة اجتاحتني هي أن أرقص وأقفز وأنطلق في العراء، ولكن حياء الأنثى الفطري منعني من ذلك فقاومت رغبتي وبقيت أحدث نفسي بأنه ينبغي أن أذهب إلى تلك المرأة (شيخة الزار) في طرف القرية لأشهد إحدى

حفلات الزار، حيث تجتمع النساء لإفراغ ذلك الكبت النفسي والجسدي الذي يقبع فوق هاماتهن طول العمر ولا يستطعن التعبير عنه إلا في الافراح حيث يرقصن في الساحة أو حين ينطلقن في جموح ليفرغن جميع الرغبات الفائرة التي تجتاحهن في حفلات الزار.

حين استيقظ «أوشيك» من نومه في صباح اليوم التالي وصلى الفجر كان أول شيء لاحظه هو أن أبلسة قد اختفى ولم يعد معنا في ذلك الكوخ. ووجد نفسه وحيداً مع «رحمة». ولم يشأ أن يسألها عن أبلسة أين ذهب. فقد تركهما يتحادثان حين غط في النوم تلك الليلة. ولكن أبلسة اختفى فجأة فسبب ذلك حرجاً لـ «أوشيك» الذي وجد نفسه منفرداً مع امرأة غريبة في كوخ منعزل في أطراف القرية. خرج ونظر في جميع الاتجاهات ولم ير أبلسة، فظن أن أبلسة قد ذهب يتفقد المركبة فطار طيراناً إليها ولكنه فوجيء بالمكان خالياً وخاوياً . وأخيرا استسلم لظنونه وأيقن في نفسه أنني قد تخليت عن رفقته أو أن لي سراً لم أخبره به، فعاد حزيناً واستلقى على الفراش ينظر إلى سقف ذلك الكوخ المصنوع من القش ويتأمل ويفكر. لم يكن أمامه إلا الانتظار. فالرجل الوحيد المختص في صيانة المركبات لن يأتي اليوم أو غداً على الأقل..

كنت أراقب «أوشيك» بعيني «رحمة»، وأشفق على محاولاته المستميتة للبحث عني، ولم أشأ أن أخبره بحقيقة ما حدث حتى لا أفسد جميع التدابير التي اتفقنا عليها أنا و«رحمة». ويبدو أنني حتى لو أخبرته فلن يصدق. وبصراحة لا أحد مستعد أن يصدق أن رفيقه الذي كان مسافراً

معه وبصحبته كل هذه المدة هو في حقيقة أمره طيف من الأطياف انتهى به الأمر إلى أن يتقمص المرأة التي استقبلتهما وأحسنت إليهما. فما الفائدة إذن من المخاطرة؟ بقيت صامتاً ولم أتكلم وتابعت مسيرة حياتي ومغامرتي.

●●●●

لم أصنع الزلابية فجر ذلك اليوم مثلما اعتدت أفعل وبالطبع لم أذهب حاملة قفة الزلابية لأبيعها للأطفال عند سور المدرسة. ولم أذهب إلى سوق الخضار. كانت أعضاء جسمي كلها تؤلمني فبقيت ساكنة خامدة طول ذلك النهار في حين بقي «أوشيك» خارج الكوخ يراقب المركبة. وحين ناديته للغداء تردد برهة ثم جاء متكاسلاً وجلس مطرقاً وأكلنا صامتين ثم خرج.

زرت «حنينة» شيخة الزار عصر ذلك اليوم فرحبت بي ترحيباً غير معتاد، فقد كانت تمر بي في العادة ولا يكون بيننا غير السلام المتكلف والابتسامة المتبادلة ثم تذهب كل واحدة في طريقها، وكنت أمر ببيتها كل يوم تقريباً وأنا في طريقي إلى المدرسة أحمل قفة الزلابية لأبيعها أو وأنا عائدة إلى البيت منتصف النهار أحمل تلك القفة الفارغة إلا من قطعة القماش التي كنت أغطي بها أكياس الزلابية.

أدخلتني «حنينة» داخل بيتها واستمعت لي في اهتمام زائد، وشكوت

لها التعب والقلق والصداع، فطلبت مني حضور حفل «الكرامة» الذي سيقام بعد يومين في تمام الساعة الثالثة ظهراً داخل «البرندة» الخاصة في بيتها. وكنت أعلم أن مثل هذا الحفل هو لاكتشاف نوع الخيط الذي يناسبني من خيوط الزار. وحين دلفت معها داخل تلك البرندة رأيت كثيراً من الأدوات المستخدمة في حفل الزار. كانت هناك الطبلة الكبيرة التي تقوم بالضرب عليها (علوية) مساعدة الشيخة، والكشكوش الذي هو من اختصاص (بدرية)، وكان هناك المبخر والبروش التي يجلس عليها الحاضرون، والعصا التي ينزل بها (المدسترون)، والكرسي الذي توضع عليه معدات الحفلات الخاصة وطلبات الزار التي يحضرها أهل المُكرِّم كهبة للزار، توضع فوق ذلك الكرسي وتُغطَّى بقماش أبيض حتى يحين موعد بداية الحفل فتقوم الشيخة بإزالة الغطاء عن الكرسي وتقوم بمعاينته وعند التأكد من تمام الطلبات تأخذ مكانها قرب الطبلة ويبدأ الحفل. وتكون بداية الحفل بعد دق الطبلة بأن تبدأ الشيخة بأداء لحن كلمات الخيط وتردد مساعداتها تلك الكلمات ويشاركها جميع الحاضرين في الأداء ويستمر ذلك فترة قصيرة قبل أن ينزل المدسترون والمدسترات.

كنت أعلم كل هذا ولا أعلم من أين تعلمته فلم يخبرني به أحد، ولكنني فقط علمته. كما علمت أن لكل مجموعة من المدسترين زيٌّ خاصٌّ بها، وهذا شيء يلتزم به المدستر لأنه جزء مهم من طلبات الخيط.

وفي يوم حفل الكرامة تقاطرت النساء على برندة «حنينة» وجاء المتفرجون والفضوليون فوقفوا خارجاً ينظرون من نوافذ البرندة إلى النساء اللاتي تجردن من ملابسهن الخارجية وبقين بالجلابيب والفساتين وكشفن شعرهن. وجاءت (علوية) و(بدرية)، ثم جاءت الشيخة «حنينة»، وبدأت المراسم والطقوس.. ومن أغرب ما سمعت هو أنهن بدأن بالصلاة على نبي الاسلام، ثم بدأت أغاني الخيط القصيرة وكانت لا تتعدَّى البيت أو البيتين وتشتمل أحياناً على كلمات مبهمة لم أفهمها ولم أتبين معانيها.

غالبية المدسترين لهم خيط واحد لا ينزلون إلا فيه، والبعض الآخر لهم أكثر من خيط، فالنزول في خيط معين يساعد الشيخة على تلمُّس طلبات الزار فأكثر طلبات (السحاحير) اللحم النيء، و(الخواجات) يطلبون الخمر والسجائر والبدلة والطربوش الأحمر، و(الهدندوة)، يطلبون السوط والجلابية والخنجر والخُلال. أما النساء فتنحصر طلباتهن في العطور والفساتين والمجوهرات. الغريب في الأمر هو أن هذه الطلبات في بعض الأحيان تشتمل عليها كلمات الخيط نفسها وفي نهاية الخيط يعود المدستر إلى حالته الطبيعية، إلا في بعض الحالات، حيث يكون على الشيخة «حنينة» التوسُّل للأطياف والأسياد وإرضائهم حتى يهدأ صاحب الخيط (المدستر)، وغالباً ما يكون هذا وسيلةً لطلبات أخرى من قبل الأسياد.

النسوة اللاتي نزلن قبلي أشعلن في جوانبي حماساً وقاداً لم أعرف مصدره، ورأيت أطيافاً مجهولة كثيرة تحاول الدخول إلى الجسد الذي كنت أتقمصه. والبعض دخل واختبأ وأطياف أخرى هربت مذعورة حين اشتمت رائحتي المميزة.

الأغنيات السابقة وإيقاع صوت الطبل والكشكوش وصوت الطشت النحاسي شديدة التأثير على الحاضرين فقد دفعتهم للتمايل والتراقص ودفعت البعض منهم للنزول في الخيط فقد أخذت أجساد البعض منهم في التصلب فجأة وأصيبت بالشلل المؤقت ثم بدأت أطرافهم تهتز وأصابتهم حالات التلبس ثم بدأت أجسامهم ترجف بأكملها وأصبحوا فجأة في وسط الحلقة يتمايلون ويتقافزون والبعض منهم ينزل بدون ارتداء زي الزار .

أحدث التطريب فعله مع الايقاع المؤثر مما دفع بي للانسجام بشكل أقوي، فاندفعت أرقص بحركات مجنونة ولاحظت أنها كانت على قدر كبير من الانسجام، وتصاعدت وتيرة الرقص إلى درجة فقدت فيها السيطرة على نفسي وكانت الدنيا تدور، والأصوات تبتعد وتقترب وكأن هناك باباً بيني وبينها يغلق فتخفت الأصوات ثم يفتح فجأة فتعود الأصوات كأشد ما تكون قوة.

وكنت أقاوم كي لا أسقط على الأرض ولكنني رأيت الأشياء تصعد إلى

الأعلى فجأة واقترب رأسي من أقدام الراقصين من حولي بسرعة ووجدتني وقد تمددت على الأرض ورأيت أعينهم تتفحصني وسمعت كلماتهم تأتي من بعيد فطلبت منهم «التسرية» .

أحد الراقصين حمل «مبخرة» مليئة بالجمر المشتعل فبدأ يلتهم الجمرة تلو الأخرى بينما تسلقت «صلحة» النخلة المجاورة للبرندة ثم ألقت بنفسها من أعلى تلك النخلة، وقامت تنفض ثيابها ولم يصبها أذى. وكانت «ست البنات» تعض إحدى شفتيها حتى سال الدم منها وقامت بتذوقه أمام الحضور والراقصين ثم انقلبت تمشي على يديها وقد رفعت ساقيها في الهواء، بينما شربت إحداهن الدم المراق.

فجأة بدأت روحي في التمايز عن روح «رحمة» وبدأت أحس أن روحي هي المسيطرة تماماً بل إنني بحثت عن روح «رحمة» فلم أجد لها أثراً فقد تملكتها روحي في لحظة الزار هذه تماماً وبقيت روح الطيف عندي هي التي تتحدث وتحدث الأشياء.

وفي غمرة هذه المشاهد العاصفة رأيت روح «رحمة» وقد تحولت إلى طيف أمي الذي كنت أحلم به خلال الأربعة آلاف سنة الماضية. رأيته

فجأة ولم أكن أتبين ملامحه تماماً ولكنني عرفته. ولعل كل هذه الأعوام قد أثرت على طيفها فانمحت معالمه ولكنه هو هو طيف أمي الذي لا تخطئه عيني أبداً. كان طيف أمي يقبع في روح «رحمة». عرفت الجواب إذن. طيف أمي هو الذي أخبر رحمة بكل شيء.

رغم أن أمي كانت سعيدة جداً وهي تنظر ناحيتي إلا أنني أحسست أنها مشفقة لما أنا فيه فقد وجدتني متقمصاً جسد امرأة. لابد أن لوجود أمي هنا سبباً وجيهاً. ولابد أنه سبب هام فقد انقطع طيف أمي حين كنت محبوساً في ذلك القمقم. لم أرها قط خلال تلك الفترة من عمري .. وبقدر ما حزنت يومها على ذلك فقد كنت مرتاحاً إلى أنها لم ترني وأنا في تلك الحال الكئيبة في الحبس وفقدان الإرادة. وبدأت أفهم لماذا لم أر طيفها حين كنت داخل ذلك القمقم. فهمت أن طيفها كان يوجهني نحو مستقبلي. ولم يكن هناك ثمة ما توجهني إليه حين كنت محبوساً فانقطع طيفها عني. أدركت الآن أن طيفها لم يتخل عني قط وأنها كانت تتبعني طوال تلك السنين فقد كانت تعلم بحركاتي وتوجهاتي. وأدركت الآن كيف أن قلب الأم لا يتخلى عن الأبناء أبداً فهو رباط أبدي. الأم تحس أن ابنها هو ثمرة غرسها في الحياة، وهو ملك لها فلا تتخلى عنه مهما كانت الأسباب، وهي في سبيل سعادته مستعدة لأن تضحي بكل شيء ومستعدة أن تقاتل الكون كله ولا شيء مستحيل في سبيل الدفاع عن ابنها. أدركت الآن كم كنت غبياً حين ظننت أنها تخلت عني. كان طيفها معي إذن دون أن أدرك.

●●●●

عرفت على الفور أن طيف أمي هو الذي كان يراقبني طوال الوقت دون أن أشعر وحين ألقى النبي «سليمان» القبض عليَّ بعد ذلك ظل طيف أمي يبحث عني بلا فائدة وظل يخبر كل من لقيه بقصتي. طيف أمي تقمص هذه المرأة «رحمة» وأخبرها بقصتي ولذا فهي حين رأتني عرفتني على الفور وتمنتني زوجاً لها. كان طيف أمي يقودني إلى الأنبياء لينتقم من «عزازيل»، وهو الذي قادني لأخلص المرأة الإبرامية «ماوية»، وهو أيضاً الذي قادني إلى أن أتبع أثر «إبرام» في أغوار الأردن ثم مصر ثم مكة وهو الذي قادني إلى حيث النبي «سليمان» من بعد ذلك ولكنني كنت غبياً فلم أفهم وبدلاً من ذلك تمردت على النبي «سليمان» وأتباعه فلقيت جزائي الذي أستحقه. طيف أمي كان يتدخل ليخلصني من «عزازيل» وجنوده، وكان يتقمص بني الصلصال دهراً بعد دهر وهو ينتظر خروجي من القمقم حتى جاء أخيراً حين خرجت فتتبعني من رائحتي وكان يدفعني دفعاً إلى حيث «رحمة» التي ظل يتقمصها فترة من الزمان قبل مجيئي، وكان روحاً من أرواح الزار طوال المدة الماضية.

نظرت فرأيت حولي أطيافاً كثيرين في ذلك المكان الذي يعج بوجود القوى الخفية من الأرواح التي بدأت على الفور تعلن طلباتها وتملي شروطها ورأيت هذه الأرواح وقد حلت فيمن حولي من الراقصين وصارت تتحدث

بألسنتهم فأصبح الراقصون يخضعون لتصرفاتها وسلوكها.

وكنت مشغولاً بنفسي عن هذه الأرواح التي ربما كنت أعرف البعض منها في القديم. ولهذا فلم أنتبه إلى روح الزار الأخرى التي دخلت وشاركتني جسد «رحمة». كانت روحاً من تلك الأرواح التي عاشت في معبد أوروك. وهي روح الكاهن الذي دبر أمر اغتيال المرأة الإبرامية «ماوية» في المعبد في ذلك الزمان القديم. تسللت تلك الروح في حين غفلة مني وسيطرت على الجسد. وبقيت روحي مشغولة بالزار فلم ألحظ كل هذا الانقلاب الذي حدث فجأة. وكنت حينها أمر بحالة من النشاط غير الاعتيادي وكنت أحس بطاقة جبارة تسري في جسدي، فبدأت الرقص متجاوباً مع خيط الزار، وعلى الفور انتقلت من عالم «رحمة» إلى عالم قديم في المشرق وزمان غير زماني ووجدت أنني رجل ولست امرأة.. ووجدتني أتحدث اللغة الأكدية بطلاقة ورأيت أن جميع الحضور هم معي في ذلك المعبد القديم في مدينة «أوروك» وأننا نتلو طقوس الصلاة لـ«عزازيل». بدأت على الفور في ترتيل تلك الصلوات القديمة التي كان أهل أوروك يرددونها في المعبد. وخاطبت الحاضرين باللغة الأكدية القديمة وخرج من جوفي صوت رجل فقلت:

- لا أرضى حتى تعوذوني بتعويذتي أنا ابن (أوروك) و ابن (كش).

تعويذتي كنت أعلقها على رقبتي. بها أخذت «رحمة» صارت جزءاً مني وصرت منها. عوذوني بتعويذتي: إلُ حَيا إرْحَمَ يرِءَّمْ، إرْحَم مَرَءْ إلتُ، عَشْتَرْ إنْ زَجِّ يُثَّبْ، إنْ رُغْتِ كَنَكْتِ يُدَرَّءْ، وَرْدَتا دَمقْتا تُحْتَنـّا، كريشُ تُرْدا تُرْدامْ، أَنَ كِري رُغْتِ كَنَكْت طِيبْ دادْكَ، آخُذْ فاكِ شَ رُقَّتِ، آخُذْ بُرَّماتِ عِنيكِ، آخُذْ

عُرْكِ شَ ثِنَتتِ، أَشْحِطْ كرِيشْ، إِلُسِينْ أَبْـتُكْ، جِشْ صَرْبَتَ، يُوميشَّ دُورِي، تَنتَّ تزْكَرِيِنـي، كِ رَعي يطور ضأن، عَنْزِ جَلُمَشَ لَخْر، فُخَسَّ أَتان مُهْرَشْ، شرْكُوا يِداشُ، شَمْنُ طِيبُوتُ شَفَتاشُ، أساMْ شَمْن إِنْ قاتِيشُ، أَسامْ إِرِنِ إِنْ فُودِيشُ، إِرْحَميُدَبَّـبُشِ، وَ يِشْكُـنُش أَنَ مُخُّوتِ آخُذْ فاكِ شَ دَد، إِلتُ عَشْتَرْ و ، إِلتُ إِشْخَرَ أُتِمِّيك، قَدِ زَوَرْشُ وَ زَوَرْكِ لا إِعْـتَمْدا لا تَفَسَّحِينِّ.

- أقسمنا عليك أيها الروح المبجل أن تفسر لنا ما قلته، قله ولكن هذه المرة بلساننا حتى نفهمه. قله بالعربية:

الروح المتغلبة نحت روحي جانباً واستغلت جسد رحمة بالكامل وصارت متملكة له. واستغلتني تلك الروح لأترجم لهم ما قالته بالأكدية آنفا فصرت أتكلم بطريقة آلية وأترجم:

- الإلهُ حيا يَرأَمُ اليَرْحمَ، اليرحمُ ابنُ الإلهةِ عشتار في المحراب، بالبخور المُرِّ يَتَطَيَّب، البَتُولَتانِ الحَسْناوانِ اسْتُرْضِيَتا، وَرَدَتا الكَرْمَ وَصَدَرَتا، في كَرم بَخُّور المر طَيِّبْ وِدَّك. أَخَّذْتُ فاكِ ذا الرِّقَّة، أَخَّذْتُ عَينَيك الزَّرقاوَين، أَخَّذتُ حِرَكِ ذا الثَّنْيَة! أَسْرَعتُ إلى كَرْمِ الإله سِين، وقَطَعتُ من غَرَبَة الفُرات ذكرتني إحسانا طُولَ عُمْرِي، يوماً تلو الآخر، كالراعي يَطُورُ الضّأنَ، والعَنزةِ جَدْيَها، والشاةِ حَملَها، والأتانِ مُهْرَها نِعْمَتان يَداهُ، دُهْنٌ وطِيبٌ شَفَتاهُ، دُهنُ الأَرْزِ العَطر في كَفَّيْـه، دُهنُ الأرز العَطِر في فُودَيه، زَمْزَمَ اليَرْحمُ عليها ... ثُم فَتَنَها! أَخَّذْتُ فاكِ الحَبِيب! أَقْسَمتُ عَليكِ بالإلهةِ عَشتار والإلهةِ إِشْخَرَ ألا تَذْهَبِي قَبلما زَوْرُهُ وَزَوْرُكِ ... يَتَّصِلان.

رضيت روح الكاهن وخرجت من جسد «رحمة» المسكينة. وبعد خروج تلك الروح استعادت روحي السيطرة وسري عني، وخمد ذلك الجسد الفائر، وعادت روحي ممتزجة بروح «رحمة» حين خمد الصراع داخل جسدها وذهبت روح الكاهن. ولكن روحي بقيت وكأنني أحمل ثقلاً كبيراً على كتفي. روحي أصبحت خاوية مظلمة وكأن جيوش الظلام جميعها اجتاحتني وغزت كياني وعقلي. أحسست كأنني أغوص في بئر عميقة مظلمة لا قرار لها. أحسست كأن جميع الوحوش الكاسرة المخيفة تتربص بي لتنقض على وتفتك بي. أردت أن أصرخ فلم أستطع، وحاولت الكلام فوجدت أن فمي قد جف وتجمد وتخشب وأن لساني لا يطاوعني فلم يتحرك. حاولت ازدراد ريقي فوقف في حنجرتي وكأنه قد أصبح قطعة من الجليد عمرها مليون عام. أنفاسي تخرج من صدري وكأنها ريح السموم، فائرة حارة تخرج من لا أين وبلا كيف. تخرج فتلهب أنفي وشفتى بحرارة. دقات قلبي أصبحت مثل وقع الطبول الأفريقية في ليل القرية الراقص. كانت روحي وروح «رحمة» تصطرعان. روحي تريد أن تغادر هذا الجسد وروح «رحمة» تتشبث به في قوة وعناد وإصرار، وكأنها كانت تعلم أن مفارقة هذه الروح لجسدها تعني موتها الحقيقي.

لا أعلم كيف غادرت البرندة وحفل الزار ولكنني غادرته. كنت أسير

مثل شبح يتسلل في الظلام خفية، وخوفاً أن يلمحه أحد أو يلاحظ انصرافه. كان هناك شيء ما يدفعني دفعاً للهروب من هذا المكان. أحسست أن جمجمتي جوفاء. تحركت يدي بعفوية لتتحسسها. وجدت أن رأسي لا يزال موجوداً في مكانه ووجدت أن لي شعر امرأة وكان كثيفاً ومدهوناً ومليئاً بالزيوت.

حين وصلت البيت كان «أوشيك» قد فرغ من صلاته وأخذ يتلو كلاماً لم أتبينه فقد كان يقرأ بصوت منخفض وقد تهيأ للخروج. وكنت قد علمت منه يوم تقمصت «رحمة» أنه حزين لاختفاء رفيقه الذي كان مسافراً معه.. وكان الحزن قد تملكني لأنني خذلت «أوشيك» ولم أخبره بأنني من الأطياف أو بأنني أنوي الغدر به والتخلي عن صحبته.

فجأة لاحظ «أوشيك» اضطراب حركتي وزيغ بصري. كنت قد ألقيت بنفسي على الفراش بطريقة غير مهذبة، فقد ارتفعت ساقاي في الهواء واستقرتا على الفراش ولم أكن قد خلعت حذائي، ولم أعبأ بوجوده في البيت أصلاً.

- «رحمة» ماذا بك؟ هل أنت بخير؟
- ....
- «رحمة» أجيبيني هل أنت مريضة؟ هل تشتكين من شيء؟
- ....

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم.

حين نطق بهذه العبارة، قفز قلبي من مكانه وكأن أحداً أدخل يده في صدري لينتزعه من قفصه. الدماء انطلقت تعدو داخل شراييني فزعة وكأن جنود «عزازيل» يطاردونها. لمع شيء في عيني مثل سنا البرق الخاطف في ليلة مظلمة مطيرة. ما الذي يقوله «أوشيك»؟ وهل يملك قوة خفية لا أعلمها؟ غريب هذا الرجل. كنت قد لاحظت في عينيه شيئاً غير اعتيادي حين صحبني ونحن في الطريق من ذلك المكان الذي حبسونا فيه، يوم أشفق على وغطاني بذلك الصديري الأزرق حين ضربنا برد الليل. في عيني «أوشيك» قوة غريبة تنبعث من قلبه وتدل على قدرات خارقة يمتلكها هذا الرجل. لاحظت أنه كان كثير الصلاة وكان يتمتم بالأذكار فعلمت أنه متصل بالسماء.

لاحظ «أوشيك» اضطرابي وحركاتي حين قرأ تلك العبارة فاقترب مني وغطاني بقطعة من القماش سترت جميع جسدي وبدأ يقرأ شيئاً:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، الطريد اللعين الخبيث المخبث الرجس النجس من نفخه ونفثه وهمزه وموته!!

حمم الجحيم انصبت كلها فجأة فوق رأسي، وأحسست بأطنان العذاب الأليم تصلي خلايا جسدي وتخترق حصوني وتهدم دفاعاتي ولم يصمد أمامها شيء. أبواب النيران جميعها انفتحت فجأة في ذلك الجسد الصغير الضعيف

جسد «رحمة» وأصبحت فجأة حبيساً لا أستطيع حراكاً. كانت العبارات تقيدني وتربطني بسلاسل من نار، وكان الحميم يفري جسدي فرياً.

قلصتُ روحي إلى أقصى شيء ممكن وحاولت الهروب والاختباء. انتقلت إلى أحشائها فكانت حمماً من نار تغلي، فهربت إلى أقصى قدميها، ولكن تلك الكلمات كانت تلاحقني وتلسعني بالسياط النارية. هربت إلى الدماغ فوجدته مستعراً بأتون اللهب. نزلت إلى صدرها. كان أزيز أنفاسها يفري روحي. غاصت نفسي في أصابع يديها فكانت كل أناملها ترجف خوفاً. انتقلت إلى بُضْعِها فوجدت النار تتربص بي. أين أذهب أين أذهب ياويلي.

- اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ....

كان «أوشيك» لا يعبأ بي وبحركاتي، لم يكن يهمه شيء، أصبح فجأة أعدى أعدائي. بت أكرهه كأشد ما يكون الكره في هذا الكون. لو وجدته غافلاً يوماً ما فسوف أنتقم منه شر انتقام وأمزقه كل ممزق. ولكن كيف أتخلص الآن مما أنا فيه؟ و«أوشيك» لا يريد أن يرحمني ولا يخفف عني. كان يمضي في القراءة وكان يمطرني بوابل من مدافع الكلام الذي لم أعد أحتمله. أريد مغادرة هذا الجسد بأي ثمن. أريد الهروب والطيران إلى كون آخر غير مأهول. أريد الهروب في الفضاءات.. أرغب في الطيران إلى نجم الجبار. وهذه المرة سوف أبقى هناك مليون عام. بل سوف أبقى هناك إلى الأبد ولن أعود إلى هذه الأرض الملعونة. سوف أبقى في تيه الفضاءات. لن

أعود لن أعود.

- سوف أخرج أريد أن أخرج .. أخرجوني. هاآآآآآآه.. حرام عليك.

- ما اسمك وما الذي أدخلك هنا ياملعون؟

- هاآآه أنا «طيف» أنا «طيف». أريد أن أخرج ولن أعود.

- (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ).

كان ما يقرأه «أوشيك» يتحول على الفور إلى أطنان من الحميم تصب فوق رأسي وتحرق كل ذرة في كياني. لا أدري من أين تأتي. ضاقت أنفاسي بل هربت. توقف قلبي واختنقتُ. أحسست بروحي وكأنها تحت جبل ضخم يلقي بكل أثقاله فوقها. ياللهول ماهذا؟

كان ما يقرأه «أوشيك» كأنه يأتي من عالم آخر لم أعرفه من قبل ولم تحلق في سماواته أجنحتي. فجأة أحسست كأن السماء أطبقت على الأرض وكأن كل شيء قد عاد فجأة إلى أصله، إلى النواة الأولى التي انبثقت منها الخلائق. ومضة النور التي انطلقت من فم «أوشيك» تشبه ومضة الانفجار الكوني العظيم الذي ما زال صداه يتردد في أرجاء العوالم منذ الأزل. تيار الكلمات التي خرجت من فمه تسللت في مسارب مسامي كلها تشويها وتفريها، وتنشرها وتطويها قبل أن تعيد ترتيب ذراتها وخلاياها.

أحسست بشيء يشبه لحظة ما قبل انفجار قنبلة كونية ضخمة.

السكون المرعب المخيف واحتشاد الطاقة وانتظار القادح الذي يشعل الفتيل. الضغط المتصاعد المتزايد الذي يسبق الهبة العاتية، كنت أسمع صوت دوران الجزيئات حول النواة في خلايا قلبي الذي امتلأ بالرعب الأجوف الأرعن.

العرق الذي يشبه انبثاق نبع الماء الفوار الحار من جوف الأرض، رشح من جسمي وانتبهت إلى أنني أعرق مثلما يعرق البشر. الكلمات كأنها السياط فوق رأسي. لا.. لا بل كأنها مطارق من نار أو شهب ثاقبة. بل كأنها.. كأنها.. لا أعرف. لا أستطيع أن أصفها. لا يوجد شيء يشبه وقعها.

- أريد أن أخرج ولن أعود أعدك بأني لن أعود.

●●●●

روحي وروح «رحمة» تصطرعان في جوفها فكانت روحها تتشبث بي ولا تريد أن تتركني لأخرج. وكنت أريد الخروج بأي ثمن فقد حبست نفسي طائعاً في جسدها والآن أصبحت محبوساً رغم إرادتي بكلمات «أوشيك» التي ربطتني حتى أنني لا أستطيع المغادرة والخروج من هذا الجسد قبل أن يأذن لي «أوشيك»، ولو بقيت لاحترقت بكل تأكيد، وكنت لا أريد هذا. كنت أعلم في نفسي أنني خالفت ناموساً كونياً وقاعدة أساسية، هي أن وجود روحين في جسد واحد هو أسوأ ما يمكن أن يحدث. الصراع داخل الجسد استمر يدور بين روحين: روح «رحمة» اليائسة المضطربة التي ترغب في التشبث بي بأي ثمن، وروحي اليائسة المعذبة الخائفة التي تريد الهروب ولو إلى أقصى أطراف الكون، ولا تستطيع!! أحسست بالعجز التام لأول مرة.

بحثت عن طيف أمي من حولي. رأيت كثيراً من الأطياف الخائفة المذعورة وهي تنظر من بعيد وتراقب الموقف. كان الفضول يدفعهم لمعرفة ما يجري ولكن خوفهم من العذاب كان يبقيهم بعيداً فلم يجسروا على الاقتراب وكانت كلمات «أوشيك» تطاردهم في الأرجاء وسيف النورانيين المسلط على رقابهم يهددهم بالفناء والهلاك فقد جلب «أوشيك» بكلامه الذي يقرأه ملايين النورانيين المسلحين الذين كانوا على استعداد لأن يفتكوا بالأطياف فتكاً.

- «طيف» هل تعلم أنك قد آذيت هذه المسكينة بدخولك فيها؟

- هي طلبت مني أن أتقمصها وأن أدخل فيها وبإرادتها واختيارها.

- ولماذا تطلب منك هذا؟ وماذا تريد أنت منها؟

- أنا لا أريد منها شيئاً. كنت أريد فقط أن أتقرب إليها وأن أعرف حال بني الصلصال وحياتهم.

- ما هو دينك ياطيف؟

- ديني؟ لا دين لي. سمعت بدين «إبرام» وكنت أريد أن أتبعه.

- إبراهيم عليه السلام كان على الحنيفية السمحة فلماذا لم تتبعه؟ أولم تسمع بعده بنبي؟

- سمعت بأنبياء كثيرين ولم أرهم ولم أعلم دينهم وسجنت أيام النبي «سليمان».

- أيها الكذاب الأشر. كم عمرك؟

- أكثر من خمسة آلاف.

- خمسة آلاف ماذا؟

- خمسة آلاف سنة أو أكثر.

- لماذا تكذب وتستمر في الكذب؟ هل تظن أن الكذب يخلصك مني؟.

- أنا لا أكذب الآن. أقسم لك أني لا أكذب أنا صادق. مكثت في القمقم وحده ثلاثة آلاف سنة منذ عهد النبي «سليمان».

- عجيب هذا الأمر.. طيب هل سمعت بالنبي «محمد»؟ وهل سمعت بالإسلام؟

- نعم سمعت من «رحمة» أن هذا زمانه.

- ولماذا لم تتبعه يا «طيف»؟

- كنت أريد أن أرى «إبرام» وذهبت لرؤيته حين كان في «بكة» ولكن جنود أبي طاردتني في «منى» فلجأت إلى سديم الجبار. وحين عدت بعد ألف عام علمت أنه مات منذ زمان.

- هل عندك شك في أن الله واحد؟

- لالا. بالقطع لا فواهب الآلاء هو الواحد.

- جميل. وهل عندك شك في أنه أرسل الرسل إلى بني البشر؟

- لا أشك في هذا فقد علمت أن «إبرام» كان متصلاً بالسماء وكذلك «سليمان».

- إذن فاعلم أن «محمداَ» قد أرسل إلينا وإليكم. وأن كثيراً من بني قومك قد اتبعوه. هل تريدني أن أقرأ عليك بعضاَ مما جاء به؟

- نعم ولكنني أخشى هذا الكلام. فأنت حين قرأت أحرقتني قراءتك وعذبتني.

- لا بأس سوف أقرأ عليك هذه المرة بنية الهداية وليس بنية الطرد والإبعاد ولا الحرق والإتلاف. إذن اسمع هذا الكلام الذي جاء به محمد رسول الله من عند الله الواحد الأحد: (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ).....

ظل «أوشيك» يقرأ ذلك الكلام الجميل الذي كان كأنه كلام النورانيين الذين يحرسون «فردوس عدن». بل كان أجمل بكثير فلم أسمع في حياتي شيئاً أجمل من هذا. والعجيب أنه لما قرأ في هذه المرة لم يؤذني الكلام بل كان برداً وسلاماً على روحي. أحسست أن هذا هو الذي كنت أبحث عنه طوال القرون الماضية. ليتني قابلت «إبرام» منذ تلك العهود وسمعت منه مثل هذا الكلام الجميل. لقد كنت حريصاً على ملاقاته والاستماع إليه ولكن «عزازيل» وآه من «عزازيل».. لو لم يحل بيني وبين «إبرام» لكنت الآن من أتباعه منذ ذلك الزمان القديم ولتغير مجرى حياتي.. حين استعرضت تلك الذكريات القديمة تأسفت في نفسي أنني خنت «ماوية». وأسفت لضياع عمري الذي خلا من هذه القيم والمعاني. أسفت لحياتي الخاوية الفارغة الجوفاء.

لم يكن عندي مثقال ذرة من شك أنني سوف أتبع هذا الدين. ليس

لأنني أردت تخليص نفسي من جسد «رحمة» المسكينة ولكن لأنني وجدت ما كنت أبحث عنه. لقد انتهت رحلة الضياع وبدأت رحلة اليقين. والغريب أنني وجدت طريقي وأنا في آخر عمري.

(12)
العبور إلى الكون الآخر

- أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

- الله أكبر الله أكبر. ماشاء الله تبارك الله. مبارك إسلامك.. مبارك إيمانك. أنت أصبحت الآن مخلوقاً جديداً. أنت أصبحت أخاً لها ولنا. هل تعلم أن الإسلام يمحو كل ما كان قبله من معاصٍ وسيئات؟ هل تعلم أن سيئاتك كلها قد تبدلت الآن وفوراً إلى حسنات بمجرد نطقك للشهادتين ودخولك في الإسلام؟ أنت الآن نظيف وبلا ذنوب وكأنك قد ولدت للتو.

- غير معقول. كل ما كسبته طوال القرون الماضية من آثام وسيئات وظلم لبني الصلصال وعبث ومجون وخيانة وغرور وكل شيء؟ كل ما فتكته بالغير؟ كل هذا ذهب إلى غير رجعة؟

- نعم. كلها لا تزن عند الله شيئاً الآن بقدر ما تعنيه عودتك إلى الله وإلى الطريق الصحيح. كل جبال السيئات أصبحت الآن جبال حسنات. ادع لي فأنت الآن مجاب الدعوة.

- لا أصدق هذا لا أصدق لا أصدق!!.

- كل ما أخبرتك به صحيح تماماً. أنا أعلم أنك تقول هذا الكلام لأنك فرح. أتصور مقدار سعادتك الآن. لولا أن طول مكثك داخل جسدها يؤذيها لأبقيتك حتى تخبرني بعالمك وحتى أستفيد منك علماً، خاصة وأنك كبير في السن وأنك تحمل تجارب السنين وبلا شك أنت ذخيرة معلوماتية قيمة،

ولكن لا بأس سوف أسمح لك بالخروج الآن. اخرج مع أنفاسها ولا تؤذها. وقبل الخروج قل السلام عليكم.

- نعم نعم، سوف أخرج الآن حالاً. أريد الخروج بالفعل. السلام عليكم.

●●●●

كان إذن «أوشيك» لي بالخروج قد أطفأ عالمي القديم المظلم الذي عشت فيه آلاف السنين وأنار لي عالماً جديداً نظيفاً فسيحاً. كان خروجي من جسد «رحمة» بمثابة ميلاد جديد وكأنني قد ولدت من رحمها هي!.

يبدو أنه مقدر لي الارتباط الدائم بالنساء من بني الصلصال لتغيير حياتي وعالمي. أمي التي ظل طيفها يتبعني ويوجهني على مدار السنين والدهور.. المرأة التي رضعت من ثديها بعد ولادتي.. «ماوية» المرأة الإبرامية المؤمنة التي قادتني إلى درب إبرام، «ميسون» تلك الفتاة الفاتنة التي أحببتها يوماً ما، وأخيراً «رحمة» التي انبثق وأنا في جسدها هذا النور الجديد، الذي أضاء كياني وعالمي وروحي.

حين خرجت من جسد «رحمة» انطلقت أطير في الفضاء بأقصى ما استطعت من سرعة. وانطلقت بقوة لم تسر في جسدي قبل هذه المرة. وكنت كأسعد مخلوق في جميع الأكوان، رأى النور فأبصر. كان في ظلمات

الظلمات. ولم يصدق بصره فانطلق يريد أن يتحقق مما رأى. كنت أريد أن أرى العالم بعيون جديدة. وحين حلقت عالياً رأيت أطيافاً كثيرة تشبهني. كانوا مؤمنين مثلي. ومن أتباع نبي الإسلام. كيف لم أبصرهم وكانوا يملأون السهل والجبل؟ كيف غاب عني أن هناك كوناً آخر غير الكون المظلم الذي بقيت فيه طوال عمري؟ وأطيافاً أخرى غير تلك الأطياف البائسة التي ملأت الكون رجساً ودنساً وفتكاً وخراباً؟ أصبحت أحن إلى كل بقعة عشت فيها طفولتي الشقية. أريد أن أعيش فيها طفولة أخرى جديدة وسعيدة. أريد أن أبحث عن الأطياف الحقيقيين الذين غيبت نفسي عنهم. أطياف الطفولة البريئة. أطياف الشباب والصبا. الأطياف المؤمنة. أتباع الأنبياء والرسل. أطياف الاستقامة.!!

●●●●

شهدت مع «أوشيك» شهادة الاسلام. وفور حدوث ذلك أصبحت روحاً مختلفة. لا أدري ما الذي حدث في داخلي ولكنني فور النطق بهذه الكلمات والاعتقاد فيها وفي وحدانية الإله والتصديق برسالة نبي الإسلام حل السلام في قلبي ونفسي، ورأيت أنه كأنما أعيد تشكيل كل ذرة في كياني فأصبحت مخلوقاً آخر. لم أعد أحس بالانتماء إلى«عزازيل» ولا إلى قومه. أنا طيف نعم ولكنني لست كبقية الأطياف التي كنت أعهدها طول عمري. وفور حدوث ذلك انفتحت أمامي أبواب كثيرة رأيت من خلالها كوناً آخر

عبرت إليه فوجدت ملايين الأطياف التي لا تشبه أطياف عالمي القديم. كانت أطيافاً أخرى في كون آخر جديد لم أعرفه من قبل. كان هو هو الكون المعلوم لم يتغير، ولكن الذي تغير هو الكون الذي في كياني وعقلي وقلبي وروحي. كنت أعمى فأبصر. وحين أبصرت رأيت أطيافاً كثيرين من حولي. كانوا مسلمين. وكانوا لا ينتمون إلى كوننا هذا بأية صلة. كانوا أطيافاً من كون آخر في عالم حقيقي. عالم كما ينبغي أن يكون. في عالمهم الذي كان حولي طوال هذه القرون ولم أكن أعلمه لا يجوز للطيف أن يكذب، ولا يغش ولا يخون. عالم هؤلاء الأطياف الأطهار مترابط ومتواصل. لا تحس بأنك وحيد. يعيشون حياة الطهر. الطيف الواحد منهم لديه رسالة يؤديها. كانوا أطيافاً ليسوا كالأطياف فلم أعهد ذلك النقاء والطهر في أي طيف من قبل.

أصبحت أسأل نفسي ياترى هل المشاعر الجميلة التي أحسستها وأنا مع بني الصلصال هي شيء نابع من فطرتهم أم أنه أصل في عقيدة التوحيد وشريعة السماء؟ ولكنني سرعان ما تراجعت عن هذا النوع من التفكير وكنت خجلاً من نفسي فهل شريعة السماء وفطرة بني الصلصال أو غيرهم إلا شيء واحد؟ بنو الصلصال وغيرهم يولدون وهم على فطرة السماء ثم يقومون هم بطمس تلك الفطرة وتغييرها وتشويهها كيفما يشاءون أو يتجاهلونها في أنفسهم فتموت وتحل محلها طبائع ممسوخة وعادات ممجوجة.

أنا أعلم أن الفطرة هي أجمل هبة سماوية ولو بقيت عليها فقد

اخترت البقاء على النقاء. وأعلم أن المشاعر الجميلة والمعاني السامية هي شيء أصيل مركوز في فطرتنا ودواخلنا، حين نبحث عنه نجده ولكننا قلما نفعل.

●●●●

هل تصدق إن قلت لك أنني أصبحت أحافظ على الصلوات في مواعيدها، وفي المسجد مع بني الصلصال؟ لا بل لم يغب ذكر الواهب عن قلبي ولساني وعقلي؟ لقد تعلمت خلال الأيام القليلة التي أمضيتها مسلماً ما لم أتعلمه خلال خمسة آلاف عام ضيعتها خارج دائرة الإيمان.

التوازن الكوني يقوم على الإيمان بالعالم المنظور والعالم غير المنظور معاً. وإيماننا بالعالم المنظور وحده يغلب جانب المادة على جانب الروح فتكون المادة ميتة بلا روح في دواخلنا في حين أن الإيمان بعالم الروح وحده يلغي عنصر الحياة في الكون فالروح لا تفنى إلى يوم الدين حتى في عدم وجود المادة. والتوازن الصحيح هو التسليم بالعالمين معاً وأنهما يكمل بعضهما الآخر وبهما يكتسب الكون معناه.

تعلمت أن جوهر الإيمان هو الإيمان بالغيب، فالإيمان بالله هو إيمان بالغيب، والإيمان بالملائكة والقدر واليوم الآخر. والحضارة الإنسانية ضعفت حين ألغت هذا الغيب من حياتها فجنحت للعالم المحسوس دون غيره، وأنكرت العالم غير المادي أو تنكرت له. وتعلمت أن أضعف المخلوقات حين

يسلم لخالق الغيب والشهادة يربط مصيره بالقوة التي لا تقهر ولا تغلب.

تعلمت أن الكون نسيج مترابط أصله واحد وأنه جميعه يلهج بالحمد لواهب الآلاء، وأن هذا الحمد هو روح الكون وحياته لا حياة له إلا بحمد الواهب، إن ترك الحمد يموت.

تعلمت أن الإيمان والعلم هما شيء واحد، وأن نقيضهما: الجهل والكفر، هما شيء واحد أيضا.

وتعلمت أن أعيش لغاية وهدف أسعى لتحقيقه وأنني إن لم أتمكن من تحقيقه خلال سني عمري في هذا الكون فإن نيتي حينئذ تتكفل بتحقيق ما انتويت تحقيقه فالنية تعني أنني لو أتيح لي تحقيقه لفعلت وأن عدم تمكني ليس نابعاً من إرادتي وبذلك فإن ما لم أتمكن من تحقيقه هو في حكم ما حققته.

تعلمت أن الكثرة وحدها ليست مقياس جودة العمل وأن هناك مقاييس أخرى تعادل الكميات .

وتسألني من أين تعلمت هذا كله وأنت طيف حديث الإيمان فأقول لك إن كل هذا وجدته مجموعاً في كتاب واحد نزل من السماء. والمصيبة هي أنكم لا تقرأونه رغم أنه ظل بين أيديكم أكثر من ألف وأربعمائة وأربعين عاماً، ولكنني يوم قرأته فهمت كل هذا وأكثر. وكله مكتوب وموجود في ذلك الكتاب. ما عليك إلا أن تقرأه فقط افتح عقلك واقرأ وتدبر والكتاب سوف يخبرك بكل شيء تحتاجه. حين تقرأ ذلك الكتاب يملأك الزهو وتحس بالفخر بأنك تنتمي للإله الأعظم خالق الأكوان كلها، وليس لإله مخلوق

ضعيف عاجز لا يعلم ما حوله ولا سلطة له ولا سلطان.

●●●●

حين عدت في أمسية ذلك اليوم إلى بيت «رحمة» كان «أوشيك» قد حزم أمره بألا يضيع وقته في انتظاري فلم يكن يعلم أين ذهبت ولذا فقد كان يتأهب للمغادرة قبل أن يراني واقفاً أمامه بقامتي الطويلة وجسمي الضخم. وحين رآني قادماً تهلل وجهه فرحاً وأسرع فاحتضنني ببراءته المعتادة وقال يلومني:

- أين كنت يا أبلسة؟ فقد اختفيت فجأة حتى قلقت عليك وكنت أنتظرك طوال الأيام الماضية.. والآن كنت أهم بالرحيل حين انقطع رجائي في رؤيتك.

مسكين «أوشيك» فهو لم يكن يعلم أن صديقه أبلسة هو نفسه طيوف الذي كان متقمصاً جسد «رحمة» وأظنه لن يعلم أبداً فأنا بالطبع لن أخبره بهذا وهو لن يصدقني لو أخبرته. ولذت بالصمت فلم أشأ أن أكذب عليه رغم أن جوانحي كلها كانت تضج بالامتنان لهذا الشيخ الوقور الذي كدت أبوح له بكل شيء ولكنني آثرت الصمت.

- كنت على وشك المغادرة لمواصلة الرحلة فهل ما زلت ترغب في مرافقتي للزفاف؟

- اسمعني يا «أوشيك».. حقيقة شوقتني لرؤية عمران الوصل (دبى)

حتى إنني فكرت في السفر إلى هناك فوراً. فما رأيك؟

- رأيي أن هذا أفضل قرار اتخذته منذ أن قابلتك. فأنت محتاج إلى أن تزور دبي ولكنك تحتاج أيضاً إلى رفقة صالحة تصحبك هناك حتى لا تتوه في غابة المباني أو تضيع في زحمة أحد المولات يا صديقي..

قال ذلك بلهجته اللطيفة المحببة. ثم استدرك فقال:

- بالمناسبة أنا كنت أنوي السفر إلى دبي فور انقضاء مراسم زفاف أختي، وربما أقابلك هناك خلال أقل من أسبوع بعد الزفاف، وهاك عنواني في دبي أو يمكنك أن تهاتفني إن رأيت أن تقتني هاتفاً متحركا أو جوالاً يا أبلسة.

- اتفقنا إذن.

- بالمناسبة يا أبلسة أنا محتار فيك ولا أستطيع أن أتصور كيف هي حياتك بلا جوال؟ بل لا أستطيع أن أتصور كيف كانت حياتنا قبل اختراع الهواتف المتحركة؟

نظرت إلى «رحمة» وقد تمددت على الفراش وكانت تتابع الحوار وعيناها تكادان تنطقان بكلام كثير. لكنني لاحظت أنها ما عادت مثلما قابلتها في المرة الأولى، فقد خمدت شعلة الحماس التي رأيتها في عينيها تلك المرة الأولى. فهي الآن وكأنها تراني لأول مرة واختفت تلكم اللهفة التي كانت تحسها تجاهي.

- عفواً من هذا الرجل الذي معك يا «أوشيك»؟

ارتسمت الدهشة الكبيرة على جبين «أوشيك» وهو يسمع هذه

العبارة من «رحمة»، فلم يكن يتوقعها.

- هذا صديقي أبلسة الذي جاء معي أول يوم وكان رفيقي في الطريق يا «رحمة».. ألا تذكرينه؟ ما الذي جرى لعقلك؟ ألم تقضيا تلك الليلة في الحوار والكلام وكنت وكأنه تعرفينه منذ مليون عام؟

التفت «أوشيك» ناحيتي وكأنه يعتذر عما قالته «رحمة»:

- لا تلق بالاً لكلام «رحمة» يا «أبلسة» فهي قد مرت بوعكة خفيفة أثناء غيابك ولكنها الآن بخير. أليس كذلك يا «رحمة» ؟

وسكتت «رحمة» فلم تجب. وبدا واضحاً أن «أوشيك» كان قد نجح في محو ذاكرتها وذكرياتها عني حين كان يقرأ ليطرد طيفي المتجسد فيها. وإلا فقد كانت تعرف اسمي وكانت تدللني فتناديني «طيوف».

وتدفقت المشاعر المختلطة في قلبي وروحي وكياني. مشاعر العطف والشفقة على هذه المسكينة اختلطت مع مشاعر خيبة الأمل في الذكريات الحلوة للحظات التي عشناها معاً منذ أيام قليلة ماضية.

●●●●

كان آخر شيء فعلته في كوخها هو أن شاركتها كسرة «القراصة» المصنوعة من عجين القمح المخبوز مع خليط الحليب وعليها مسحوق السكر.

أكلنا صامتين. ولكنني كنت أقول لها في نفسي كلاماً كثيراً.. لم أجرؤ

على التصريح به أو إعلانه.. وكانت تنظر نحوي أحياناً بعين شاردة وقلب كسير... اشتقت إلى لهجتها اللثغاء المحببة وكلامها الحلو الذي يحيل دمامتها إلى جمال لا مثيل له. ولكن كل هذه المشاعر بقيت في قلبي فلم أشاركها مع «رحمة».. وانقطع ذلك التواصل الجميل الذي كان بيننا في الأيام الماضيات. انقطع وكأنه لم يكن.

وحين كنا منهمكين في أكل كسرة «القراصة» كنت أختلس النظرات إليها محاولاً أن أعرف مصير طيف أمي هل بقي معها أم أنه ذهب في سبيله.. وقرأت أفكارها فرأيتها مثل ورقة بيضاء ناصعة تعبث بها الريح ولكنها فارغة خالية. وأدركت أن طيف أمي قد غادر بعد أن أدى دوره فاطمأن إلى أنني بخير. ياللأمهات تظل أطيافهن معك حتى بعد الممات وتحلق أرواحهن فوقك وكأنها تحرسك. هذه هي مشاعري تجاه أمي مع أنني حرمت من صحبتها في حياتها. ولا أدري كيف هي مشاعر من عاش سنوات طويلة تحت كنف أمه وتحت جناحها. لو تبدل الحال فرأيت أمي لأمضيت بقية عمري تحت أقدامها.

غادرت كوخ «رحمة» وكنت أعلم أنني لا أقدر أن أقدم لها يد المساعدة دون أن أؤذيها، فأنا من الأطياف وهي من بني الصلصال.. غادرت وعادت هي إلى حياتها القديمة البائسة.. عادت أرملة حزينة منطوية على نفسها.. لا مال ولا ولد ولا أنيس. عادت لعملها المعتاد. تستيقظ كل يوم لصلاة الفجر ثم تبدأ في إعداد الوجبات الخفيفة لتبيعها لتلاميذ المدرسة

البعيدة عن كوخها وقريتها قبل طابور الصباح. عادت تحمل قفتها المليئة بالزلابية كل صباح، وتمشي إلى تلك المدرسة على قدميها فتجلس خارج السور مسندة ظهرها إلى الجدار تراقب الأطفال وهم يقبلون نحوها من أجل الزلابية. لم يكن همها هو كسب المال، فلو استطاعت لوزعت تلك الزلابية بالمجان على جميع أطفال الأرض. كان كل همها هو أن ترى البسمة والفرحة في وجوه هؤلاء الأطفال الذين يتحلقون حولها كل صباح من أجل الزلابية، وهم يضحكون والبشر يلف المكان من حولها، وأصواتهم تملأ قلبها بالسعادة والرضى. «رحمة» التي حرمت الزوج والأطفال كانت ترى جميع هؤلاء الأطفال بمثابة أبنائها فكانت تقضي أسعد أوقاتها حين تراهم حولها يأكلون من يدها. وكانت أتعس اللحظات هي حين تفرغ القفة من الزلابية ولا يعود الأطفال للجلوس معها، فكانت تنهض متثاقلة وتغادر سور المدرسة إلى ساحة سوق الخضار القريب ثم ما تلبث أن تعود منه إلى كوخها آخر النهار بقفة فيها بعض خضروات وقطعة خبز، وربما قليل من الستر ورضى القلب.. وكان ذلك هو كل شيء. حياة بلا معنى ولاطعم.. بلا لون ولا رائحة.. بلا زوج ولا رفيق ولا أنيس.. ولكن بفؤاد كسير محطم ..

تمنيت أن أتحول إلى بشر حقيقي من بني الصلصال حتى أكون زوجاً لـ«رحمة».. على الحقيقة فأشاركها بساطة الحياة ولقمة العيش. وأحمل عنها الكد والنصب والتعب، وأسعى لكسب العيش صباحاً ثم أعود مجهداً آخر النهار لأضع اللقمة في فمها وأرى السعادة والفرحة على وجهها، وأحس

بنبضات الحب في قلبها. بل تمنيت أن أتحول إلى مليون رجل من بني الصلصال يسعون في الأرض من أجل النساء الأرامل والأطفال اليتامى الذين فقدوا رحمة الأب وحرموا حنان الأم..

عدت فخلوت إلى نفسي وبدأت أتساءل. هل ما أحسست به تجاه «رحمة» من مشاعر هو مثل الحب الذي يحس به الرجل من بني الصلصال تجاه امرأة منهم؟ هل هو حب حقيقي اكتسبته من حليب تلك المرأة التي أرضعتني؟ أم أن المشاعر لا جنس لها ولا وطن؟ وهل يولد بنو النار وهم يملكون مثل هذه المشاعر ثم يطمسونها أم أنهم لا يملكونها أصلاً؟ ولو كانوا لا يملكونها في الأصل فهل مثل هذه المشاعر مكتسبة؟ لكن ما أحس به من مشاعر لا أظنه مكتسباً بل هو بالقطع مشاعر حقيقية وعميقة أحس أنها ولدت معي!! حتى ولو كانت من جانب واحد فقد تذكرت للتو أن «رحمة» ماعادت تبادلني أية مشاعر!!

●●●●

فكرت أن أسافر إلى مكة فأشهد موسم الحج هناك فأحج مع الحجيج وأشاهد تلك البقاع التي مضت مدة طويلة منذ رأيتها للمرة الأخيرة. وهكذا كان..

وحين طرت إلى (بكة) في موسم الحج تغير في نفسي الكثير. كانت آخر مرة جئت فيها إلى هذا المكان في عهد «إبرام» منذ أربعة آلاف عام، حيث كنت أقتفي آثاره وأتتبعه في غور الأردن وأسأل عنه في قرى مصر ثم انتهى بي المقام في (بئر ميمون) في الطريق إلى (مِنَى) قرب (بكة) ببلاد الحجاز حين رأيته للمرة الأولى والأخيرة في حياتي فكنت أذهب صباح كل يوم لأراقب «إبرام» ووحيده «إسماعيل» وهما ينقلان الحجارة ليرسيا قواعد ذلك البيت الذي في أسفل بكة. وكنت أعود آخر الليل لأبيت في البئر وذلك قبل أن يعلم «عزازيل» فيطاردني هو وجنوده. كان المكان في عهد «إبرام» قفراً موحشاً، لا زرع، ولا ماء غير زمزم، ولا أشجار غير السدر والعوسج والحرمل، ولا ثمار غير الفقع والكمأة والنبق، ولا حشائش غير الشيح والقيصوم وقليل من العرار.. وكنت أرى بعض الجرهميين الذين نزحوا من عرفات واستقروا بمكة، لم أر غيرهم بشراً ولا أنيساً ولا سامراً. وكان المكان يعج بالأطياف من جنود «عزازيل» في ذلك الزمان القديم.

وحين قادني الشوق فلم أتمالك نفسي وطرت في الهواء حتى هبطت الوادي الذي يقع البيت الحرام في أسفله، كنت أتوقع أن أرى ذلك البيت المبني من الحجارة في أسفل الوادي جوار جبل الصفا وعنده تلك البئر «زمزم» وشجرتان من النخل وخيمة واحدة جوار البيت. ثم لا شيء غير الجبال والأحجار والرمال. مثلما كان العهد بها في زمن «إبرام» ووحيده «إسماعيل». ولكن ولأنني ما زلت أسرع طيار فقد ظننت حين رأيت ما رأيت أنني قد أخطأت المكان هذه المرة وأن أجنحتي قد قادتني إلى مكان

آخر أو حتى كون آخر، فقد أفزعني ما رأيت وهممت بالفرار. ولكنني سرعان ما تمالكت نفسي فبقيت أنظر!!

رأيت الوادي ممتلئاً بالمباني الشاهقة والقصور العالية والطرق الحديثة وأصناف البشر من كل لون. والبيت وقد أحيط ببناء كبير شاهق مسقوف وكان واضحاً أنه المسجد الحرام الذي أخبرني عنه صديقي «أوشيك».. ورأيت طوفاناً من الناس حول البيت وداخل ذلك المسجد وحوله وفي الطرقات. كانت الحشود تطوف حول البيت وترفع أصواتها ملبية وقد لبسوا الأزر البيضاء وتلفعوا بمثلها من الأردية. وكان جميع الرجال يلبسون مثل هذا اللباس الموحد. وكانوا يطوفون بالبيت ويسعى البعض منهم بين جبلى الصفا والمروة اللذين تم استيعابهما داخل ذلك المسجد فأصبحا جزءاً منه، وآخرون يشربون من ماء زمزم. رأيت القائمين من المصلين ورأيت الراكعين والساجدين. وطرت في سماء مكة فرأيت الحشود تملأ السهل والجبل على امتداد الطريق من مكة إلى منى. لا يوجد مكان خال من الناس أبداً. وحين وصلت منى وجدتها وقد امتلأت عن بكرة أبيها بطوفان البشر الذين كانوا يزحفون وكأنه يوم الحشر.

كان هذا المكان خالياً من بني الصلصال حين رأيته آخر مرة، وكان مكتظاً بجنود أبي وأطيافه، الذي جاءوا يطاردونني ليقبضوا على. كان المكان خاوياً وكئيباً إلا من إبراهيم وولده «إسماعيل». وكان الأطياف يملأون المكان. وتذكرت بئر ميمون والمطاردة منذ أربعة آلاف عام.

ثم جئت اليوم فإذا المكان غير المكان والوادي غير الوادي. وإذا ببني الصلصال وقد غلبوا بني النار على هذا المكان. وإذا بالنورانيين يملأون سماواته وبنو النار لا وجود لهم غير أؤلئك المؤمنين منهم، فقد رأيتهم يلبسون ملابس الإحرام مثل بني الصلصال، ويطوفون حول البيت مع الطائفين أو يقفون على جبل الرحمة في عرفات..

●●●●

بقيت في مكة مدة من الزمان أصلي في البيت وأشرب من زمزم وزرت بئر ميمون فإذا هي خالية من الأرواح والأطياف. أصوات القارئين للقرآن والمصلين والملبين لم تترك أحداً من بني النار في مكة فهجروها إلى غير رجعة ولم يبق إلا أطياف مؤمنة، أو أرواح هائمة أو قليل من الشياطين، والعفاريت القابعة في قيعان أرواح العصاة من بني الصلصال تؤزهم وتستفزهم.

ثم يممت وجهي شطر جزيرة «دلمون» (البحرين) فزرتها ولم أحتج للطيران فوق البحر لأصل إليها فقد رأيت جسراً ممتداً يربطها مع جزيرة العرب، وعجبت لما رأيت، فقد تغيرت الأماكن كثيراً وتحولت تلك البلاد إلى مدينة عامرة بالسكان، وزالت المعالم القديمة أو طمست فلم يبق لها أثر. وشدني الحنين لأزور كهوف «عُمان» الحالية فقد كان يجتمع فيها بنو قومي، ولدهشتي فقد علمت أنها قد تحولت إلى أماكن سياحية يزورها السياح

للهو واللعب ويقضون فيها الأوقات السعيدة. وعجبت فقد كنت أعلم أن الإنس في الزمان القديم كانوا يخشونها ولا يقتربون منها. ثم زرت الكهوف التي عند سفوح جبال الحِجْر الشرقية عند هضبة «سلمى»، فرأيت ذلك الكهف الضخم ذا المداخل الثلاث وقد أصبح هو الآخر معلماً سياحياً يدر المال ويقصده الناس للترفيه والمتعة.

(13)
أبراج الوصل

واصلت الطواف حتى وجدت نفسي في عمران الوصل (دبي)، وكانت سوقاً للبيع والشراء، تقدم إليها السفن من الهند والسند وبلاد الشرق، والتجار يبيعون ويشترون ويتقايضون. وكان أهلها قد امتهنوا التجارة منذ القديم. لم تكن مبانيها وعمرانها بهذه الروعة التي رأيتها عليها مؤخراً فقد كانت هناك بضعة حصون وقليل من البيوت وكان معظمها سوقاً كبيراً يتجمع فيه الناس ويقدمون إليه من الآفاق وكان بها مرسى للسفن والقوارب.

وفجأة تذكرت أن هذا اليوم يوافق موعد وصول «أوشيك» إلى دبي فطرت طيراناً إلى العنوان الذي ذكره لي قبل أن نفترق حين كنا في بلاد السودان. وحين وصلت المكان وجدت «أوشيك» وقد سبقني إلى مدينة دبي.

كان كعادته دائم البشر جميل الترحاب. وسألت نفسي هل كل بني الصلصال هم مثل «أوشيك»؟ ياالجمال الحياة إن كانوا كذلك. العجيب أنه طيلة مرافقتي له لم يسألني عن اسمي الحقيقي ولم يحرجني بالأسئلة عن أصلي ومن أين جئت ولا إلى أين المصير.

قطع «أوشيك» حبل أفكاري بأن دعاني لتناول الغداء في أحد «المطاعم» داخل «المول» القريب الواقع في شارع «الشيخ زايد». ولم أفهم

ماذا يقصد «بالمطعم» ولا «المول» ولكنني أجبته بالموافقة فقد دار رأسي من كثرة المصطلحات والعبارات التي سمعتها اليوم فلم أعد أبالي، فتبعته وسرت وراءه وبجواره مثلما يفعل الكلب الأليف مع صاحبه، وكان الفضول يملأ جوانحي لرؤية المكان الذي سنذهب إليه. وبعد برهة وصلنا مبنى ضخماً مكتظاً بالمركبات الفارهة في باحته الخلفية المسقوفة والمضاءة وقد تراصت تلك المركبات الفارهة في صفوف منتظمة بين الخطوط البيضاء المرسومة على الأرض بعناية، فتأكدت أن هذا المكان هو «المول». وحين وصلنا إلى الباب البلوري الذي كان واضحاً أنه مصنوع من قوارير فتح لنا الباب من تلقاء نفسه وأقسم أنني لم ألمسه بيدي وإنما تحرك من ذاته تلقائياً وفتح لنا، والعجيب أنه أغلق نفسه بعد دخولنا مباشرة!!. ونظرت في كلا جانبي الباب وقلت لنفسي لعل شخصاً مختبئاً بالقرب من الباب لا نراه وهو الذي يتولى فتح وإغلاق ذلك الباب لمساعدة الزوار والداخلين وعلى غرار ما يكون في قصور الملوك والقادة والأغنياء، ولكنني لم أر أحداً مختبئاً خلف الباب. ولم أر مثل هذا من قبل إلا ما رأيته في بلاد عبقر. ولم أخف دهشتي لما حدث ولكنني بقيت صامتاً فلم أعلق على ما رأيت حتى لا يبدأ «أوشيك» بالسخرية مني وهو الذي لم يفعلها معي حتى الآن رغم أنها كانت كثيراً ما ترتسم على وجهه مؤخراً. فاغلقت فمي وسكت محافظة على كرامتي.

«المول» مكان مكتظ بالرائحين والغادين من كل جنس ولون وشكل. وفيه أماكن كثيرة شديدة الإضاءة والبضائع المعروضة براقة للغاية ونظيفة. كنت أخشى أن أمشي فوق بلاطه حتى لا يتسخ وكنت أرى صورة طيفي تنعكس على الأرض وعلى تلك النوافذ البلورية في كل مكان حولي.

قادني «أوشيك» إلى مكان مكتوب عليه «مطعم» فدخلنا مكاناً نظيفاً مليئاً بالطاولات والمقاعد ورحبت بنا فتيات جميلات عند المدخل ثم رافقتنا إحداهن وأجلستنا على طاولة خصصت لشخصين ثم ذهبت. وبعد قليل جاء أحد الغلمان وهو يلبس زياً جميلاً نظيفاً ويحمل في يديه بطاقات قدمها لنا فأخذت منها واحدة ورأيت فيها نقوشاً ورسومات جميلة لأنواع مختلفة من الطعام وقوائم مكتوبة بلغتين إحداهما كانت العربية ولم أفهم ما هي اللغة الأخرى. وبعد قليل جاءت نادلة فوضعت أدوات معدنية ملفوفة داخل قماش أبيض وقارورتين صغيرتين بهما ماء ثم ذهبت. وسألت «أوشيك» عما تحتويه هذه اللفافة فأخبرني أنها ملاعق وشوك نستخدمها لنأكل بها. وعجبت من كل هذا الاهتمام وهذه الخدمة التي لم أر مثلها في الزمان القديم إلا ما رأيته في وادي عبقر أو في قصر الملك «سليمان» أو عند الملكة بلقيس. ولم يخالجني شك في أننا داخل أحد قصور الملك سليمان فقد كان الجن مسخرين لخدمته وكانوا يصنعون له كل عجيبة على وجه الأرض. وبعد قليل رجع ذلك الغلام وكان «أوشيك» يصف له كل ما يريد ولم أفهم حرفاً واحداً مما كان يقوله فقد كان يصف أنواعاً من الطعام ويذكر أسماء لم أسمع بها من قبل، وكان النادل يقترح و«أوشيك» يختار. وما هي إلا لحظات

حتى شممت رائحة الطعام الشهي ورأيت أبخرته والنادل يتجه نحونا فوضع أطباقاً كثيرة متنوعة وأصنافاً من الأكل لم أر مثلها في حياتي وكان الأكل شهياً. وأكلنا حتى بل العرق ملابسي وانتفخ بطني وأصبحت أتنفس بصعوبة بالغة فلم أذق في حياتي مثل هذا.. وكانت المائدة أكثر تنوعاً من تلك الأطعمة التي حدثني رئيس الطهاة في ذلك الزمان القديم أن «أبيمالك» يقدمها لضيفه إبرام وزوجته ساراي في مصر حين نزلا عنده.. وسألت «أوشيك» لماذا ضيفونا وأكرمونا كل هذا الكرم؟ فلابد أن صاحب هذه الدار من الأثرياء الكرماء جداً. أدار «أوشيك» وجهه إلى الناحية الأخرى حتى لا أرى الضحكة الساخرة التي غلبته فلم يستطع إمساكها وهو يكلمني:

- هذا اسمه «مطعم» يا أبلسة.. والأكل هنا بالمقابل وليس بالمجان!! وكل خدمة يقدمونها هنا هي بالمقابل. لا شيء في هذا الزمان بالمجان فهمت؟

- معقول؟ أصبح الطعام والضيافة بالمقابل؟ ياللأسف. يعني سندفع لهم مقابل ما أكلناه؟ إذن فسيكون الثمن كثيراً جداً ... ولكن يا «أوشيك» أنت لا تملك نقوداً أصلاً.. فلم أر معك ما يكفي منها فكيف ستفعل؟ أين كيس النقود؟ أين الذهب والفضة؟

أخرج «أوشيك» بطاقة صغيرة من محفظته وقال:

- بالبطاقة . سندفع لهم بالبطاقة الإلكترونية !!

ولم أفهم حرفاً مما قال فلذت بالصمت واكتفيت بالمراقبة.

وبعد أن أكلنا وشبعنا طلب «أوشيك» الفاتورة فجيء بها داخل

غلاف من الجلد الفاخر. وأخرج «أوشيك» تلك البطاقة فوضعها داخل الغلاف، فأخذها النادل وذهب. وعجبت ما الذي تساويه هذه البطاقة الصغيرة مقابل كل ما أكلناه من طعام؟ ولكن ولدهشتي الكبيرة رجع النادل بعد دقيقة واحدة ومعه تلك البطاقة فأعادها لـ«أوشيك» الذي أرجعها لمحفظته.. لم يأخذوها إذاً... ومضينا ولم يسألنا أحد عن النقود.!! والعجيب أنه حتى البطاقة تمت إعادتها لـ«أوشيك» ولم يحتفظ بها النادل. وكأن الأكل كان بالمجان بل إنهم شكرونا عند خروجنا وطلبوا منا أن نستمر في الحضور إليهم في المرات القادمة. وبدأت أشك أن «أوشيك» يرسم المقالب ليسخر مني ولكن تعابير وجهه كانت تقول غير ذلك. وسألت نفسي هل أصبحت هذه البطاقات الإلكترونية الصغيرة بديلاً للذهب والفضة والنقود المعدنية؟ هذا من أعجب ما رأيت عندكم يابني الصلصال.

وقبل أن نغادر هذا «المول» الغريب الذي يقدم فيه الطعام والضيافة مقابل رؤية تلك البطاقة الصغيرة فقط دون الاحتفاظ بها، أحسست بنداء الطبيعة فقد امتلأ بطني بما لذ وطاب، وكان لابد من إفراغ الفضلات من معدتي، ولكنني لم أعرف أين يمكنني أن أقضي حاجتي. وبالطبع استعنت بـ«أوشيك» في حياء فدلني على مكان قضاء الحاجة وأشار إلى باب مكتوب عليه «تواليت رجال» وعلى الباب رمز أو صورة لرجل.. ولم أفهم معنى كلمة «تواليت» أصلاً ولكنني قدرت أن معناها «المرحاض» فدخلت مع الداخلين. وإذا بي أجد نفسي في مكان نظيف جداً.. أرضه براقة وجدرانه من

الرخام اللامع وبه غرفات صغيرة متعددة، ولها أبواب مرتفعة عن الأرض قليلاً ، وجميعها مغلقة وقد كتبت عليها عبارة «مشغول» وكانت باللون الأحمر، وناس ينتظرون أمام هذه الأبواب وبعضهم قد شمر أطراف ثوبه قليلاً. وكانت هناك أحواض رخامية في الطرف المقابل والبعض يغسلون أيديهم. وأيقنت أنني في المكان الخطأ بلا شك فلم أر أي مكان يمكنني أن أقضي فيه حاجتي فعدت وأخبرت «أوشيك» الذي شرح لي أن قضاء الحاجة يكون داخل أي من هذه الغرفات الصغيرة. ودون أن أجادله عدت مرة أخرى وانتظرت دوري حتى سمعت صوتاً يشبه صوت الماء حين ينحدر من مكان عالٍ أو حين يصبه أحدهم في سطل نحاسي كبير. ثم فتح أحد الأبواب وخرج منه أحدهم وتوجه نحو الأحواض الرخامية ليغسل يديه. ودلفت داخل تلك الغرفة الصغيرة وقلدت الآخرين فأغلقت الباب خلفي كما رأيتهم يفعلون، ولكنني حين نظرت داخل تلك الغرفة الصغيرة لم أجد مكاناً أتبرز فيه فقد كان هناك مقعد أبيض في وسط الغرفة وبه فتحة كبيرة، وفي داخلها بقايا ماء في القعر وكان المقعد براقاً لامعاً واحترت فلم أعرف أين أقضي حاجتي. ففتحت الباب وعدت أدراجي، ولكنني رأيت «أوشيك» يقف في مواجهتي تماماً ويسد طريق الخروج أمامي. ويبدو أنه قد أحس بالورطة التي كنت فيها فهرع للمساعدة وإنقاذ الموقف. دخل «أوشيك» وأشار بأصبعه السبابة إلى ذلك المقعد وقال:

- تقعد على المقعد هنا وتعملها. وبعد أن تفرغ تغسل مقعدتك من أمام وخلف بهذا الشطاف المعلق على الجدار، وتستعمل الصابون

الموجود في هذه العلبة الصغيرة. وبعد ذلك تجفف مقعدتك بهذه المناديل الورقية بعد أن تشد اللفافة التي تدور حول محورها فتأخذ المنديل، وبعدما تستعمله تلقي به في هذه السلة الصغيرة هنا. وقبل أن تخرج عليك أن تدوس على هذا الزر لتجديد الماء في المرحاض. هل فهمت الآن يا أبلسة؟ الصبر يارب!!

قال «أوشيك» العبارة الأخيرة وهو يخاطب نفسه ودون أن ينظر ناحيتي ثم استدار وخرج. وشعرت بالحرج كما يفعل بنو الصلصال، ولكنني كنت محكوماً بكل ما يحس به بنو الصلصال. حتى قضاء الحاجة كان شيئاً لا بد أن أفعله مادمت قد اخترت البقاء في هذا الجسد!! وجلست وفعلت كل ما شرحه أوشيك. ثم نهضت فأحسست براحة عجيبة وخفة في جسدي بعد قضاء الحاجة. ثم خرجت وراقبت الخارجين من تلك الغرف ورأيت كيف يغسلون أيديهم ويجففونها فقلدتهم وغسلت يدي في أحد تلك الأحواض. كانت الصنابير في تلك الأحواض تستجيب ليدك حينما تضعها أمامها وتقرب يدك من فوهة الصنبور فتصب لك من الماء فإذا أبعدت يدك قليلاً توقف الماء. وكان ذلك نوعاً من اللهو الجميل استمتعت به قليلاً قبل أن أجفف يدي بمناديل الورق وبعدما فعلت التفت فوجدت أن بعضهم كان يقرب يده من آلة تنفخ الهواء في الأيدي كلما قرب أحدهم يده. وعلمت أنها آلة تنفخ الهواء لتجفيف الأيدي المبتلة بالماء. وكتمت دهشتي وتظاهرت بأنني غير متفاجيء. ولكنني قلدتهم.. هذا الشيء غير موجود في وادي عبقر عند بني النار! لا ولا في أي وادٍ آخر!! وأوشكت أن أسلم لبني الصلصال بتفوقهم

علينا معشر بني النار.. ولكنني مضيت في عناد وتبعت «أوشيك» في هذا المول العجيب!!

●●●●

كنت وأنا في الطريق أسأل «أوشيك» عن كل شيء تقريباً. فقد فتحت عيني على عالم غريب، لم أعهده من قبل. كنت قد رأيت الأعاجيب في عهد النبي «سليمان» ولكن ما رأيته في هذا الزمان كان هو أعجب شيء يمكن أن يحدث على الأرض. بنو الصلصال استحدثوا أشياء وأدوات ومخترعات كثيرة مدهشة. ولابد أنهم قد تفوقوا على أمم عديدة ممن قبلهم. وكان «أوشيك» يجيب عن أسئلتي جميعها ويشرح لي كل شيء بصبر عجيب، وكان يستمتع بالشرح. وبعد قليل تطوع «أوشيك» ليخبرني بالأشياء دون أن أسأل. وظل يشرح ويشرح. وحين توقفنا في إحدى المحطات لنأكل شطيرة أخبرني عن «المايكروويف» الذي يوضع فيه الطعام المجمد ثم يخرج بعد دقيقة أو دقيقتين فلا تستطيع لمسه من شدة الحرارة. وكنت أستمع وأتعجب مما يقوله «أوشيك»، وكانت كل عبارة منه تدهشني وأشك في صدقه ثم ما ألبث أن أصدقه فوراً حين أرى ما يتكلم عنه. وبت أصدق كل ما يقوله «أوشيك» دون تردد وعلمت أن بيني وبين أهل هذا الزمان بون شاسع من الحضارة لم أعرفه وأنني غريب في هذا الكون الذي كأنني أراه لأول مرة.

وحين كنا في ذلك المطعم ورأيت صوراً تتحرك في أحد الصناديق المضيئة شرح لي أن هذا الصندوق اسمه التلفاز وأن الفتاة التي بداخله ليست بداخله على الحقيقة وإنما تلك صورة مسجلة لها والفتاة ربما تكون الآن في مكان آخر ولا تعلم أن صورتها تبث عبر التلفاز وأن العلبة الصغيرة التي يمسك بها صاحب المحل فتتغير الصورة داخل صندوق الصور المضيء تسمى أداة التحكم عن بعد.. ورأيت بعد ذلك مثل هذه الصناديق معلقة في الشوارع وكانت ضخمة بصورة لا تصدق. وأخبرني أوشيك أن هذه الشاشات تستخدم للدعاية والإعلان ولترويج البضائع والمنتجات. ورجعت بذاكرتي إلى مدينة الوصل (دبي) في القديم حين كانت الإبل والقوارب تأتي بالأحمال للتجارة وكان المنادي ينادي بصوت عالي على بضاعته ليروج لها فيطوف في الطرقات وكان الناس يتجمعون حين مجيء القوافل البرية أو حين وصول السفن التجارية وكانوا يروجون بالنداءات بلا صور ولا شاشات. وقلت لأوشيك:

- في القديم كان هناك السماسرة والمروجون ينادون حين تصل السفن من الهند أو حين تأتي القوافل البرية.

قال أوشيك دون أن يلتفت ناحيتي:

- هذه الشاشة التي تراها هنا تروج للعطور أو الأحذية.. ثمنها يوازي عشرة أضعاف ثمن القافلة كلها في ذلك الزمان القديم بما في ذلك الإبل التي تحمل البضائع أو ربما تساوي ثمن السفينة نفسها وكل حمولتها. وربما أكثر من ذلك.

وامتنعت عن المقارنة بين القديم والجديد فلا ريب أنها ستقودني للجنون.

وخرجنا نسير في الشارع فرأيت أحدهم يضع فوق عينيه سطحاً بلوريا لامعاً أفزعني منظره وظننت أن هذا نوعاً مختلفاً من بني الصلصال ظهر في هذا الزمان بعدنا وأن أعينهم خلقت هكذا من البلور. ولما رآني «أوشيك» أحدق في عيني ذلك الرجل وانتبه لدهشتي أخبرني أن هذا الرجل يضع فوق عينيه نظارة شمسية مصنوعة من زجاج يقي العين من أشعة الشمس. وحين أشار إلى الشمس نظرت حيث أشار فرأيت شيئاً يحلق في أفق السماء ولكنه لم يكن أحد الطيور التي أعرفها، وشرح لي «أوشيك» بصبره العجيب أن ما أراه هو طائرة من صنع البشر، وأنها تحمل عدداً كبيراً من الناس وتحلق بهم في الفضاء لتنقلهم من بلد إلى آخر، وأن حجمها الصغير الذي أراه الآن ما هو إلا خدعة بصرية، فهي على الحقيقة طائرة ضخمة عملاقة ولكنها بعيدة عنا حيث تطير في الفضاء وتحلق عالياً.

- طبعاً هذه التي رأيتها هي طائرة ركاب ولكنك لو زرت مطار دبي يا أبلسة فسوف ترى طائرات الشحن الضخمة التي تتسع الواحدة منها لآلاف الأطنان والتي أتوقع أن تتسع الواحدة منها لقريتنا كلها شاملة المباني والسكان وتطير بهم.

قالها أوشيك وهو يضحك حتى بدت أضراسه.

- كم طائرة مثل هذه التي رأيناها قبل قليل توجد في مطار دبي يا أوشيك؟

- توجد أعداد كبيرة يا أبلسة على مدار الأربع وعشرين ساعة وقد قرأت في أحد الإحصاءات أن مطار دبي يحتل المرتبة الرابعة في ترتيب المطارات في العالم رغم أن طاقته الاستيعابية تتسع لـ 60 مليون مسافر سنوياً وأنها ستبلغ 75 مليوناً بعد اكتمال مبنى الأيرباص ويتوقعون 98 مليون مسافر بحلول العام 2020

- ولكن ما الذي يجعل كل هذه الأعداد تأتي إلى دبي يا أوشيك؟

- سوف تستضيف دبي معرض اكسبو في العام 2020 ويتوقعون أكثر من خمسة وعشرين مليون زائر للمعرض وسيأتي معظمهم من خارج الدولة يا أبلسة وبذلك فسيكون مطار دبي هو الأول في العالم بالتأكيد.

وطبعاً لم أفهم ماذا يقصد بمعرض اكسبو ولكنني أجلت السؤال لفرصة أخرى حتى لا يبدأ بالسخرية مني. غير أنه حين رأى أن عيني قد زاغتا وذهبت كل واحدة منهما في اتجاه تطوع فأخبرني بالمزيد:

- معرض اكسبو يا صديقي هو معرض لصناعة المستقبل وهو الأول من نوعه وسيكون الأكثر عالمية في تاريخ معارض إكسبو وذلك لأنه سوف يكون بمثابة منصة استثنائية تتيح للمجتمع العالمي التعاون لاكتشاف الحلول المبتكرة للطاقة والمياه وأنظمة النقل والخدمات وتحقيق النمو الاقتصادي.

هل ستصاب بالاحباط إن قلت لك إنني لم أفهم أي شيء مما قاله وإن كنت سعيداً بما سمعته منه عن هذا الحدث.. ولو طال بي عمر حتى أبلغ العام 2020 فسوف أحرص على زيارة دبي بكل تأكيد بل سوف أدعو كل الأطياف في الكون ليشهدوا عصر تفوق بني الصلصال وسيادتهم على

بني النار في كافة المجالات.

لم أندم على قرار زيارة دبي أبداً والبقاء فيها فقد كان بالفعل هو أفضل قرار اتخذته لأنه غير مجرى حياتي ونظرتي للأشياء وطريقة تفكيري. تعلمت من «أوشيك» الكثير، فقد أخبرني عن الحاسب الآلي والشبكة الدولية التي تربط العالم كله وحكومة دبي الذكية لتقديم الخدمات، والطائرات الصغيرة التي تطير بدون طيار لتوصيل الخدمات للسكان في بيوتهم، وعن مخترعات كثيرة لم أفهم منها شيئاً مثل جهاز السونار للتعرف على نوع الجنين وهو في رحم أمه قبل أن يولد، وأخبرني عن المصاعد الكهربائية التي تصعد بالسكان إلى أعلى طابق في البناية في ثوان معدودات، وأخبرني عن السلالم المتحركة التي رأيتها في ذلك المول والتي توجد في معظم الأسواق والمولات والمحلات. قال لي «أوشيك» إن أفضل طريقة لتعلم الأشياء هي أن أبقى في «دبي» بضعة أشهر حتى أتعود على مظاهر الحضارة والمدنية. ثم قال:

- ولكنني أخشى عليك أن تصبح أضحوكة للناس، هذا إن لم تصب بصدمة حضارية أو لوثة عقلية. أنت منذ الآن مصاب بالصدمة الحضارية يارفيقي!!

قال هذا وهو لا يعلم أنني كنت مصاباً بها بالفعل فقد تجمد عقلي بالكامل وتوقف عن التفكير أمام ما رأيت من مظاهر الحضارة والمدنية التي أذهلتني. دبي هي على الحقيقة نسخة من وادي عبقر مطورة مائة مرة. حين رأيتها أول مرة بعد كل هذا الزمن ظننت أن بني زوبعة قد نقلوا وادي عبقر إلى دبي، الطرق النظيفة المرتبة والجسور والمعابر. والخضرة

تكسو كل مكان، الميادين والساحات. الزهور على جانبي الطرق، والإضاءة تحيل ليل دبي إلى نهار. الدهشة التي لا تنتهي ولا تتلاشى تجعلك تبدو مثل الأبله وأنت تتجول في شوارعها وأسواقها. الألوان الجميلة. والمباني المنسقة والسيارات التي تملأ الطرقات والمولات والأسواق. وبنو الصلصال من كل لون أصفر وأبيض وأسود. عرب وعجم. الأمن في كل مكان والناس ودودون والهدوء يكسو كل شيء فقلما ترتفع الأصوات.

حين تزور أحد الأسواق يخيل إليك أن سكان دبي جميعهم قد تجمعوا فيه، ولكنك حين تدخل سوقاً آخر تفاجأ أن جميع الأسواق هي هكذا، مكتظة، لا تكاد تخلو من الناس أبداً. كل شيء موجود، حتى أنني فكرت دون مزح أن أسأل: أين أجد لبن العصفور في أماكن التسوق؟ وربما لو سألت لأجابوني وأنا لا أرغب في مزيد من الدهشة، فقلبي الضعيف لم يعد يحتمل.. وأعصابي الهرمة لا تقدر على المقاومة والصمود..

لو أجريت مقارنة بين دبي ووادي عبقر فإن المقارنة تصبح ممكنة والمقاربة ليس فيها أي نوع من الطرافة بقدر ما فيها من الحقائق. الأبراج الطويلة والناس معلقون فيها في دبي هي نفسها في وادي عبقر والفرق هو أن سكان الأبراج في وادي عبقر هم من جنس واحد بينما تجدهم في دبي من

أجناس شتى وألوان متعددة ومشارب متباينة. دبي تستوعب جميع الأجناس وتتكلم بكل اللغات. الغريب أنه لا توجد أي أزمة في أي صنف من أصناف الطعام أو الشراب أو اللباس بل الوفرة تغرق الأسواق والمحلات. وبلا شك فهم يحتاجون لجيوش وأساطيل من السيارات لنقل القمامة فالمدينة نظيفة بشكل مريب. ومن العجائب هو أنك قلما ترى شرطياً يسير في الشارع إلا شرطة المرور ورغم هذا فحركة السير لا تتوقف ولم أسمع بالجريمة في هذه المدينة الممتدة المتسعة الأطراف فلابد أنهم يملكون مخلوقات من كواكب أخرى تراقب المدينة وتحرسها. لا يوجد تفسير آخر منطقي.

الأبراج تنمو في دبي وترتفع طويلاً في السماء بأسرع مما تنمو الحشائش في واد خصب أغرقته الأمطار. أخشى ألا أستطيع أن أحفظ معالم الطريق إلى الفندق الذي يقيم فيه أوشيك فهي تتغير في كل يوم جديد. أشكال الأبراج في دبي غريبة وعجيبة فهناك أبراج ملتوية وأخرى مائلة أو ملتفة وأبراج تقاوم الجاذبية ومعظم الأبراج مكسوة بالبلور الذي يزينها من الخارج. رأيت غابات من الأبراج يتوه أعتى عتاة الجن حين يدخلها دون دليل. الغريب أن بني الصلصال لا يتوهون فيها فلديهم شيء اسمه نظام تحديد المواقع يخبرك أين أنت ثم يقودك بالصورة والصوت إلى أي مكان تقصده في المدينة ويظل يوجهك حتى تصل إلى وجهتك المقصودة. وهذا النظام يمتلكه الجميع في سياراتهم أو هواتفهم المتحركة. وأقسم لكم أنني لا أمزح.

بدأت أوقن أن وجودي في دبي هو تعويض لما فاتني من عمري

حين كنت في سديم الجبار أو حين أصبحت سجين القمقم فتخلفت عن ركب الحضارة والمدنية. ولكنه تعويض لا أطيقه رغم أنني شديد البأس ولكن ما تراه في دبي يخلب الألباب ويخبل العقول. وهاك مثالاً لما سمعته فظننته مزحة ولكن يبدو أنه عين الحقيقة. فقد سمعت بأنهم يريدون أن يستحدثوا مدناً سياحية في الفضاء بينما في وادي عبقر المدن تحت الأرض وتحت البحر. في دبي وجدت أنهم بنوا المدن داخل البحر واستحدثوا المرافيء، ولم أر في حياتي نخلة في عالم بني النار أضخم من النخلة التي رأيتها في عالم بني الصلصال وأنا أطير فوق جزيرة النخيل في دبي. والعجيب أنها استحدثت فوق الماء وليس على اليابسة فلم تكن هناك يابسة أَصلاً.. كنت أظن أن النقش فوق الماء يزول ولا يبقى ولكن هاك مثالاً لنقش دائم لا ينمحي.. بل هاك ثلاثة أمثلة وليس مثالاً واحداً. فجزيرة النخيل هي ثلاث جزر صناعية بنيت علي ساحل دبي. وهي أكبر ثلاث جزر صناعية في العالم،نخلة الجميرة ونخلة جبل علي ونخلة ديرة.

البنايات الملتفة في مدينة دبي هي مثل الأشجار المتسلقة في وادي عبقر، والقطارات التي تسير على خط حديدي فوق أبراج عالية في دبي بينما تسير في الهواء في وادي عبقر بلا خطوط. ومن يدري فربما يصنعون قطارات في دبي معلقة من أسقفها في الهواء، فهؤلاء القوم بارعون في صناعة المستحيل.

أهل دبي نقلوا قاع البحر بأسماكه إلى السوق في وسط المدينة فيجتمع

المشاهدون والزوار يطوفون حولها وبعضهم يغوص معها في «دبي أكواريوم». ونقلوا أصقاع الجليد التي كانت في قطبى الأرض والتي كان النورانيون في الأزمنة القديمة قد طردوا بني النار إليها في العصر البرمي، إبان عصور الجليد في أطراف الأرض. ولكن تلك الأصقاع الآن هي للعب يتزلج عليها الشباب ويلعب فيها الأطفال ويركبون السيور المتحركة التي تحلق في الهواء فوق الجليد في «صالة التزلج في مول الإمارات».

●●●●

لو أردت أن ترى بالعين التي ينظر بها الأطياف إلى الأرض وإلى بني الصلصال فاصعد إلى قمة برج خليفة، فهو أعلى بناء شيده الإنسان وهناك سوف تتساوى مع الأطياف وسوف تحس أنك مثل واحد منهم يطير فوق السحاب ثم ينظر إلى الكون تحته صغيراً ضئيل الحجم. رهبة الصعود إلى الأعلى والانتقال من مصعد إلى آخر أعلى منه وسرعة الصعود والترقب والتوقع ثم دهشة النظر إلى الأسفل ومشاهدة الدهشة على وجوه الزوار معك.. تجربة لن تنساها. ولا أخفي عليك أنني حين صعدت إلى هناك أحسست بضآلة بني النار أمام تقدم بني الصلصال في المعمار وحضارة البناء. والعجيب أنك ستصلي هناك في أعلى المساجد ارتفاعاً في العالم وستأكل في أعلى المطاعم ارتفاعاً في العالم كما ويمكنك أن تسبح في أعلى المسابح ارتفاعاً. ياللدهشة المجنونة الخضراء.

(14)
حلم ليلة صيف

حين فارقني «أوشيك» انتقلت إلى مدينة «أبوظبي» واخترتها مكاناً لإقامتي خلال الفترة القادمة.. وأقمت في إحدى البنايات العالية المطلة على شارع «الشيخ راشد». وهناك اتخذت جسداً لشاب عربي مثقف من شباب مدينة «العين» تلك المدينة الواحة الجميلة التي تقع في قلب صحراء الإمارات. وجعلت نفسي مغرماً بالأدب والشعر فكنت أتردد على برامج المسابقات الشعرية أحرص على حضورها وأغشى المنتديات الأدبية والمناسبات الثقافية التي تقيمها هيئة الثقافة والتراث في أحد المسارح بأطراف العاصمة «أبوظبي». وهناك شهدت حلقة لبرنامج أدبي تبثه إحدى الفضائيات حيث قابلت رجلاً جديراً بالاهتمام. وهو ذو ملامح غير عربية فقد كان أسمر اللون ويبدو افريقياً في مظهره، ولكنه يتكلم العربية الفصحى ويجيد التحدث بها مثل العرب الأقدمين. وكان حين يبدأ الحديث تتمنى ألا يسكت أبداً وتظل تسمعه حتى لو تكلم فيما لا تفهمه، فألفاظه ساحرة ولهجته حلوة وكلامه جميل. وفوق ذلك كله فهو يتميز بقدرته على السخرية من أي شيء حوله. أجمل ما حدث لي حين عرفت بني الصلصال عن قرب هو أنني اتخذت الأصدقاء بعد أن عشت حياتي كلها وحيداً غريباً، والآن صرت آنس ببني الصلصال مثل صديقي الإفريقي هذا واسمه «دارودي»، وقد قدم إلى «أبوظبي» من بلاد الصومال!!

حين أتينا للقاعة ننتظر الحلقة الأدبية جلسنا إلى طاولات أحد المقاهي المشهورة التي يرتادها الشباب لتناول العصائر والقهوة ودار بيننا حوار جميل تعرفت فيه على اهتمام «دارودي» بعالمنا، فقد كان مما دار من حوار أن بعض الشباب ينسبون شعر بعض الشعراء المشاركين في تلك المنافسة إلى قرناء من الجن، وظل يحدثني وهو لا يعرف أنني طيف متقمص. ولكنني أكبرت فيه صراحته. كان يتكلم في استنكار شديد لهذا الأمر بل وبلغ به الأمر أن سخر منه. قال لي حين أخبرته أنني من مدينة «العين»:

- هل تعتقد حقاً أن الجن هم الذيم يملون القصائد على الشعراء؟

- نعم يا «دارودي». وهل تصدق أنني أعرف مكان وادي عبقر في أرض الحجاز؟ وهو مليء بالشعراء وربما أدعوك لنزوره معاً يوماً ما، فوادي عبقر تتجدد معالمه وأشياؤه باستمرار وفي كل يوم جديد ترى وادياً غير الذي رأيته بالأمس!

حين أخبرته بهذا سخر مني مبرراً رفضه بأنه لا يحتاج إلى عبقر ولا سكانه ولا عجائبه، وواضح أنه بدأ يشك في سلامة عقلي ولكنه قال لي:

- وادي عبقر هو هنا في هذه البلاد. هو قريب منك جداً يا صديقي.. هل أنت أعمى؟ فقط انظر حولك. وادي عبقر هو جميرا وجزيرة النخلة ومدينة دبي للانترنت وبرج خليفة ودبي مول ومارينا مول وجزيرة ياس.. ولو اجتمع جن الشرق والغرب وعملوا معاً مائة عام أخرى فلن يصنعوا أكثر مما صنعه أهل دبي أو أهل أبوظبي. قل لي ما الذي يوجد في وادي عبقر ولا يوجد في دبي يا ابن العين؟ أنتم العرب تعتقدون في الجن كثيراً حتى إن

اعتقادكم هذا أصبح شيئاً مسلماً به وتظنون أن الجن هم أعرف منكم وأعلم يابشر!!. والواقع بل وحقيقة الأمر التي لا مرية فيها هي غير ذلك تماماً بل هي على النقيض من ذلك كما ترى من حولك. أنتم تعتقدون في «أرض وبار» و«وادي عبقر» اللذين غلب على ظنكم أنهما موطن الجن. لا سيما وقد ارتبط كلاهما بالإبداع وأسرار المعرفة. أنتم مغرمون بعالم الجن الذي تصورونه بخيالكم الخصب وأساطيركم الكثيرة ثم تصدقونه. نظرتم فوجدتم أن عبقر هي ملهمة الإبداع عندكم، فجعلتم الجن يسكنونها، وصورتموها على أنها أرض خصبة، ماؤها بارد عذب ومبانيها معلقة بين الأرض والسماء تتخللها طيات السحاب، وتحلق فوقها الطيور الملونة. وينسب إليها كل عجيب ويسرح فيها الخيال وتطوف فيها العقول كل بما وهبة الله من قدرة على التصوير والتمثيل. وكذلك فعلتم بأرض وبار فقد تخيلتموها من أخصب البلاد وأكثرها شجراً، وأطيبها ثمراً. وصورتم مقرها بالدهناء، حيث الإبل الوحشية، والنخل الكثير الذي لا يؤبره أحد، تتصور فيه الأطياف على هيئاتها الحقيقية. ومن عجب أن حبكتكم متقنة فلأن وبار كانت هي منازل الهالكين من أمثال عاد وثمود، فقد جعلتم الأطياف يخلفونهم فيها ويسكنونها ولا يسمحون لأحد بدخولها، فإذا دنا رجل منها ناسياً أو جاهلاً أو متعمداً حثوا في وجهه التراب، وإن أبى إلا الدخول أصابوه بالخبل أو قتلوه. فعلتم هذا حتى لا يفكر أحد من التحقق مما تقولونه بالذهاب إلى تلك الأماكن. أنتم صورتم الغول في حكاياتكم فجعلتموه وحشاً شاذاً مشوهاً متوحشاً، لا يخرج إلا لمن يسافر وحده في الليالي الموحشة. وصورتم السعالى

إناث الأطياف و بنات الغيلان، تتلون في كل وقت، وتتفنن في فتنة البشر بالنظر فهي تصيبهم بالعين بينما يفتنهم عزيف الجن وغناؤهم. وأطلقتم الأسماء والمسميات على قبائل الجن فجعلتم لهم قبائل وبطون، وجلعتم لهم أمراء وملوك وصنفتوهم ونسبتموهم إلى بني الشيصبان والشنقناق والزوابع، وجعلتم الزوابع هم أصحاب الرهج والقتام، ونسبتموهم إلى زوبعة الذي صنع لـ«سليمان» صرحاً ممرداً من قوارير. وجعلتم الشنقناق والشيصبان من رؤساء الجن، وآباء القبائل. ونسبتم إلى بني الشيصبان أنهم هم الذين أرسلوا السعلاة لحسان بن ثابت، في الجاهلية قبل أن يسمحوا له بقول الشعر. وأن السعلاة لقيت حسان في بعض الطرقات، وهو غلام، قبل أن يقول الشعر، فبركت على صدره، وقالت له: أنت الذي يأمل قومك أن تكون شاعرهم؟ والله لا ينجيك مني إلاّ أن تقول ثلاثة أبيات على روي واحد، فقال حسان:

إذا ما ترعرع فينا الغلام   فما إن يقال له من هوه
إذا لم يسد قبل شدِّ الإزار   فذلك فينا الذي لا هوه
ولي صاحب من بني الشيصبان   فطورا أقول وطورا هوه

هل تدري ماذا أعتقد أنا؟ أعتقد أن شاعراً مغموراً أراد أن يقول الشعر ليجاري به كبار الشعراء فألف هذه الأبيات ثم نسبها إلى حسان بن ثابت. وأنا على يقين أن حسان بريء منها ولو رجع الآن وسمعها لمات

من الضحك. ومثل هذا كثير في الأدب العربي وإليك القصيدة التي مطلعها «لمن طلل بين الجدية والجبل» التي تنسب إلى امريء القيس والتي فيها من التلاعب بالألفاظ والحروف المتقاربة ما فيها. وأنا أظن أن امرءا القيس لو سمع أنها تنسب إليه لمات من الدهشة أيضاً فهو لم يفكر فيها ولم يقلها وإنما ألفها شاعر كذاب ونسبها إليه زوراً وبهتاناً. وأنا أظن أن بعض الرواة الذين كانوا يروون الشعر لهوؤلاء الشعراء هم الذين كانوا يزيدون القصائد وينسبونها لكبار الشعراء. ولا أدري ماذا يرضي ذلك في أنفسهم!! والعجيب أن ذلك الرواي الكذاب نسبها لامريء القيس أشعر شعراء الجاهلية ولم ينسبها لشاعر آخر!! ياللكذب والبهتان. أنتم إذا أعجبكم شيء وأردتم أن تعلوا من شأنه وترفعوا من قدره نسبتموه إلى الجن الذين تتجاوز قواهم وقدراتهم قدراتكم ولم تعلموا أنكم أشد منهم قوة. فكم من جني ضعيف مسكين كان ضحية افترائكم عليه وهو من كيدكم بريء.

وكلما قام شاعر منكم بالإبداع نسبتم إليه شيطاناً من شياطين الجن. وكلما نفرت قلوبكم وخافت من شيء نسبته إلى الغيلان والسعالى؟ و كلما توهج عقل أحدكم جعلتم السبب هو من الجن؟ فإذا كنتم تنسبون كل إبداع بشري لمخلوقات غيركم وكل نجاح هو إلى الجن منسوب وكأنكم بهذا قد جردتم الإنسانية من المعرفة والإبداع والتميز فما الذي أصابكم؟ وإذا كان كل هذا الإبداع الشعري هو من عمل الجن إذن فما الذي بقى لهؤلاء الشعراء من إبداع وعقل وتفكير؟ لماذا جعلتموهم وكأنهم مجرد أدوات أووسائط تستغلها الجن لتقول عبرها ما تشاء من الشعر؟ ولماذا لم تظهر

الجن مباشرة وتشترك في المسابقات الشعرية إن كانت تستطيع أن تقول كل هذا الشعر الجميل؟

فجأة قاطعه أحد الشباب الذين كانوا يجلسون قريبا ويشاركوننا الحديث:

- هأ هأ أنت حقاً رجل ساخر يا «دارودي». أفكر في تقديمك لأحد المخرجين لعمل برنامج ترفيهي في إحدى الفضائيات.

- لالا أنا لا أمزح. أخبرني إذن وقل لي ما هي علاقة شيطان الجن بشيطان الأفاعي؟ وما علاقة شيطان الإبل بالحيات؟ وما هي علاقة الحية بالشيطان الذي تسبب في فعل الغواية والذي اقترنت فيه الحية بإبليس. فهل السبب هو أن الحية أحيل حيوان في البرية كما وصفها سفر التكوين في التوراة المزعومة أم أن هذه من أساطير «عزازيل» حين ألف التوراة فروى فيها كيف أغوت الحية حواء، قبل آدم، فأخرجتهما من الجنة؟ أنا سمعت بأن هناك أسطورة تقول أن الحية استغلت الناقة طويلة العنق التي كانت أحسن خلق الله قبل أن تدخل الشيطان «إبليس» إلى جوفها، كي يتسلل عبرها إلى الجنة ويوسوس لآدم وحواء ليخرجهما مما كانا فيه!! وكأن الإله لن يراها حين تفعل ذلك؟ أرأيت سذاجة الأسطورة؟ والعجيب هو أن الناس صدقوها وتناقلوها ببلاهة. وبيت القصيد في كلامي هذا هو أنكم نسبتم إلى الجن مجهود الإنس وهذا ظلم كبير فالإنس قادرون على ما لا تقدر عليه الجن. ولن يستطيع الزوابع مهما تنزلوا على الشعراء أن يأتوا بمثل ما يأتي به شعراء الإنس.

- أرى أنك مثقف جداً في هذا المجال مع أنك تعمل في مجال الالكترونيات!!

- إذن فأريدك أن تتوسط لي حتى أشارك في المسابقة الشعرية ويراني أهلي في أفريقيا على الهواء أقول الشعر وأتنافس مع الشعراء وتعجب بي الفتيات ويرسل لي الناس «لايك» على المواقع الإلكترونية! ولا يسكت جوالي من الرسائل النصية !!

كان «دارودي» من ألطف من قابلت من الأصدقاء فقد ضحكت من أسلوبه اللاذع حتى سالت دموعي فوق خدى مثلما عجبت من ثقافته وعلمه بل ومعرفته بعالم الأطياف وما يحكى عنهم وما يتناقله الناس من أساطير وحكايات وأقاصيص. وقضينا معاً وقتاً جميلاً في ذلك المقهي قبل أن يسمحوا لنا بالدخول للقاعة.

صديقي «دارودي» يعمل في مدينة الوصل (دبى) بعد أن قدم إليها من «أبوظبي» عاصمة الإمارات التي هاجر إليها منذ أن كان صغيراً بعد الأحداث التي وقعت في الصومال. وبعد أن أكمل دراسته أصبح يعمل في تجارة الإلكترونيات التي أصبحت تدر عليه دخلاً جيداً. الإلكترونيات أصبحت في هذا الزمان هي أكثر السلع مبيعاً. وبنو الصلصال ظلوا مرتبطين بالشبكة الدولية التي جمعت العالم كله الكترونياً وكأنه بيت صغير. الغريب هو أن الأطياف لا يحتاجون إلى الأجهزة حتى يتمكنوا من التخاطب فيما بينهم

عبر المسافات مثلما يفعل بنو الصلصال ولكن بالرغم من ذلك فإن تواصلهم فيما بينهم محدود لم يبلغ ما بلغه بنو الصلصال من إتاحة التواصل للجميع وبين الجميع وأعترف أن بني الصلصال قد تفوقوا على بني النار في هذا المجال أيضاً.. ولكن «دارودي» لم يكن متفائلاً بشأن مستقبل الإلكترونيات. وحين سألته لماذا فقد لاحظت أن العالم قد بلغ مرحلة من التقدم كبيرة، قال في حماس كبير:

- الناس سوف يدمرون كل هذا الذي تراه من حولك. سوف يدمرونه بغباء شديد. كنت أظن أن الإنسان كلما تقدم في المخترعات ازداد ذكاء ولكنني عرفت الآن أنه كلما اعتمد على الالكترونيات كشف عن غبائه فكأنك تضع البيض كله في سلة واحدة. نحن بني البشر نصنع الحضارة بذكائنا ثم ندمرها بغبائنا..

- وما الضرر في الاعتماد على الالكترونيات يا «دارودي»؟ ألم تقل لي بنفسك قبل قليل إنها وسيلة متقدمة توفر الوقت والجهد وتنظم العمل وتزيد من سرعة الإنجاز؟

- ياعزيزي أنت لا تنتبه إلى أن الأجيال التي اعتمدت على هذه الإلكترونيات سوف تستيقظ يوما وتصحو من نومها وتجد أن كل هذا قد ذهب إلى غير رجعة. هؤلاء البشر سوف يدمرون كل هذا في أقل من ثانية!!

- عجيب !!

- فعلاً هو أمر عجيب. فقد علمت من الشبكة الدولية أن هناك

سلاحاً هو الجيل الأخير والأخطر من القنابل النووية الكهرومغناطيسية التى لو أطلقت فإنها ستُعيد العالم كله إلى الوراء مائتى عام أو أكثر. وهذا السلاح لا يقتل البشر بل يُتلف ويعطل الأجهزة الإلكترونية وشبكات البنوك والكهرباء والشبكة الدولية والسيارات والطائرات وكل ما يعتمد على الالكترونيات. هذا السلاح يدمر أجهزة الاتصال والحاسبات الآلية وأجهزة الهاتف وأجهزة التلفاز وكل شيء. وسوف تتساقط الأقمار الاصطناعية إلى الأرض مثل الطيور النافقة، وتنطفيء المحطات الفضائية وتتوقف مولدات الطاقة الكهربائية وتوربينات ضخ المياه. وسوف نعود فجأة إلى العصر الحجري وعصر الكهوف.

- ياللهول وكيف يعمل هذا السلاح؟

- حسناً سوف أشرح لك.. لو قامت أي دولة تملك هذا السلاح بتفجير قنبلة نووية صغيرة نسبيًا منه فى الغلاف الجوى فيمكنها إرسال ما يكفى من القوة للإضرار بالإلكترونيات وشلها تماماً فتعود حضارتنا إلى القرون ما قبل الوسطى! الكهرومغناطيس الذي وضع العالم على قمة الحضارة يعتبر اليوم هو أخطر ما يهدد العالم فقد تحول إلى سلاح لا يفتك بالبشر ولكنه يفتك بكل منجزات الحضارة وتقاناتها من اتصال ومواصلات وسلاح واقتصاد. لو استخدم هذا السلاح فسوف يتحول حاسبك الآلي أو هاتفك الجوال بين لحظة وأخرى إلى قطعة من الحجر، وتتعطل كل وسائل المواصلات وأنظمة البنوك والشركات والسفن والطائرات والسيارات والميكروويف والإرسال والاستقبال التلفازي، وكذا أجهزة الاتصال اللاسلكى بجميع تردداتها. سيتوقف

كل شىء وإلى الأبد!!. باختصار، تستطيع «القنبلة الكهرومغناطيسية» أن تعود بالحضارة والمدنية الحديثة مائتى عام إلى الوراء وتلغي كل الجهد البشري والإنساني الذي تم خلال الأعوام السابقة، ومن المضحك أن هذا يتم خلال ثانية واحدة وبسرعة الضوء.

- وكيف تعمل هذه القنبلة؟

- ببساطة هي تعتمد على موجات تنطلق من مولد ذي رأس نووى لا على تفاعل كيميائى كما هى حال بقية القنابل. وقذيفتها إشعاع ينطلق من رأس نووى لا من مدفع أو صاروخ، ولهذا فهي لا تسبب خسائر فى الأرواح، ولن تقتل إنساناً واحدا، ولكنها ستعطل جميع الأنظمة الإلكترونية على الأرض وفى السفن والطائرات فنعود جميعنا إلى العصر الحجرى، نركب الدواب ونأكل من الأشجار ونصطاد بالسهام والرماح. ونشعل النيران بالحجارة الصوان. انهيار الحضارة سيحدث بسرعة الضوء. التأثير النبضى الكهرومغناطيسي ينتج فى وقت لا يتعدى مئات من النانو ثانية تنتشر من مصدرها باضمحلال عبر الهواء طبقاً للنظرية الكهرومغناطيسية بحيث يمكن اعتبارها موجة صدمة ينتج منها مجال كهرومغناطيسى هائل يولد جهداً قد يصل إلى بضعة آلاف وربما بضعة ملايين فولت حسب بُعد المصدر عن الجهاز أو الموصلات أو الدوائر المطبوعة وغيرها المعرضة لهذه الصدمة الكهرومغناطيسية. ويشبه تأثير هذه الموجه أو الصدمة إلى حد كبير، تأثير الصواعق أو البرق، فتصبح جميع الأجهزة الإلكترونية معرضة لتأثيراتها، وذلك لأن مكونات هذه الأجهزة مصنعة من أشباه الموصلات

ذات الكثافة العالية من أكسيد المعادن والتى تتميز بحساسية فائقة للجهد العالي العارض، بما يسفر عنه انهيار هذه المكونات بالتأثير الحراري الذي يؤدي إلى انهيار بواباتها. وحتى وسائل العزل والحماية الكهرومغناطيسية المعروفة (مثل وضع الدوائر داخل أقفاص معدنية) لا توفر الحماية الكاملة من التدمير، لأن الموصلات المعدنية من وإلى الجهاز سوف تكون بمثابة هوائى يقود هذا الجهد العالي العارض إلى داخل الجهاز. وبذلك تصبح جميع الأجهزة الإلكترونية أو منظومات الاتصال وأجهزة العرض، بل وأجهزة التحكم الاصطناعية بما فيها إشارات المرور والقاطرات وأبراج المراقبة الجوية للمطارات والهواتف المحمولة.. كلها عرضة للتدمير.

بالطبع لم أفهم كلمة مما كان يقوله ولكنني كنت أوميء برأسي دلالة على الموافقة. وحين رأى أن عيني قد زاغتا من محجريهما وأن انتباهي قد تشتت وأن ردود فعلي مضطربة تجاه ما يقول لعله أشفق على فغير الموضوع وتكلم عن أشياء أخرى بسيطة لم ينس أن يسخر فيها مما حوله.

●●●●

كلام «دارودي» عن الاتصالات والإلكترونيات أوحى لي أن أسألك هل ظننت حين أخبرتك أننا في عالم الأطياف نستطيع استعادة كلام الأسلاف السابقين وحواراتهم عن طريق الأرواح القديمة أن لنا قدرات خارقة وقوى أسطورية؟ في واقع الأمر سأصفك بالغباء لو أنك فعلت فواقع الأمر لقد

اكتشفت للتو أن كل ما قلته لك له تفسير علمي بسيط في عالمكم وهو أنك حين تحرك لسانك بالكلام تقوم بتحريك موجات الهواء وهذه الموجات تبقى كما هي في الأثير إلى الأبد وهي لا تزال تتحرك في الفضاء مهما طال عليها الأمد ويمكنك سماعها إذا استطعت أن تلتقطها بنجاح مثلما أنكم نجحتم بابتكار التلفاز والمذياع في التقاط الصور والأصوات التي تذيعها محطات الإرسال في زمانكم هذا ولو نجحتم في اختراع آلة تفرق بين أصوات الزمن الحالي وأصوات الزمن القديم لأمكنكم سماع تاريخ كل عصر وزمان بصوره وأصواته ولربما تمكنتم من سماع أصوات الرسل والأنبياء على مدار التاريخ ورأيتم صورهم أيضاً.

●●●●

أخاطبك الآن من البيت الذي أويت إليه آخر عمري في إحدى البنايات المطلة على شارع الشيخ راشد بأبوظبي. وأظنك قد بدأت تسأم مما ظللت أحكيه وأقصه في مذكراتي هذه. وربما بدأت تتساءل وتقول مالي أنا ولكل هذا؟ وما شأني به؟. ولذا فلن أطيل عليك فقد وصلت بك إلى خلاصة ما أردت قوله عن هذا الكون وأطيافه يا صديقي العزيز. لقد حاولت واجتهدت في مذكراتي هذه أن آخذك في رحلة داخل عقلي وكياني وخيالي، لتشاهد معي عالمي المعقد الغريب، المجهول لديك، والذي لم تكن تملك إلا القليل من المعلومات عنه. وربما يكون أكثر ما يشبه عالمي هذا هو الأوهام

والأساطير، والحكايات التي نسجتها مخيلة الكثيرين منكم، أو هدهدتك بها جدتك قبل النوم كل ليلة، أو قصها دجال مشعوذ، أو كشف عنها ساحر فاشل. وربما يكون أصدق شيء عن عالمي هو ما نطق به مجنون من بني البشر، أو عبقري مخبول.

اجتهدت أن أنقل إليك رسالة مختصرة، لأنني لو حاولت أن أفصلها لاستغرقت عشرات المجلدات الضخمة، ولكنني أردت من وراء هذا الإيجاز في هذه العجالة أن أثير أهتمامك بعالمي، فأصف لك بعضاً من حقائقه بدلاً من الانهماك في التفصيلات العميقة، كما حرصت أن تكون حكايتي بسيطة وبعيدة عن التعقيد، فقد أمليتها ليقرأها كل أحد، وأنا أعلم أنني بهذا لن أرضي معشر الاختصاصيين في هذا المجال، لأنهم يتوقعون مني أكثر من هذا، وبذا فهم سينظرون إليها بأنها أحاديث سطحية، وفي نفس الوقت سوف يلومني كثيرون لأن مذكراتي تشتمل على مفاهيم غامضة، لا سيما وأنني قد وجدت أنه لا مفر من تلخيص الكثير عن عالمي وحياتي في صفحات قليلة. وأنت تعلم أن الاضطرار إلى اختصار المعلومات يأتي بنتيجة محبطة في بعض الأحيان، فالمعلومات التي اختزنت في عقلي وذاكرتي خلال كل هذه المدة من عمري اضطررت الآن إلى وصفها في كلمات معدودة، وعبارات قصيرة. ولأول مرة في حياتي أشعر بالعجز أمام هذا التحدي الكبير.

وقد لجأت بسبب شدة حرصي على الصدق فيما أقوله، والتزام الدقة، إلى اختزال الكثير من المعارف، وأظنك قد لاحظت أن طريقة سردي للأشياء

أخاطب فيها من يعرف عالمي، ولا يستغرب لما أقوله، ولا أخاطب من يجد كل عبارة فيها غريبة عليه، فيفتح فمه من الدهشة ويضطرني للشرح والتفسير. ولكن يجب ألا يغيب عنك أن مذكراتي هذه تحتوي على كم غير قليل من المعلومات المفيدة، وفي نفس الوقت فهناك نقائص لا مفر من عدم ذكري لها، لأن هناك علوماً لا يجدر بأمثالي الخوض فيها، ولا أستطيع أن أحكي لك عنها حتى لا ينتشر الشر بنشرها. وقد كنت أدرك صعوبة إملاء هذه المذكرات، بل استحالتها، ورغم ذلك فقد شرعت في سردها لأنني كنت أعلم أن شخصاً ما في الزمان الأخير سوف تعجبه، وسيقوم بنشرها. والناس في هذه الفترة من عمر الكون أصبح إيمانهم بعالمنا إما ضعيفاً، أو منعدماً، أو أنه إيمان مبالغ فيه جداً. وبعضهم تفلسف فأنكره جملة وتفصيلاً، وظن أن هذا النكران يؤهله للانتساب لقطيع الآخذين بأسباب الحضارة العصرية والتقدم، ولكنه نسي أنه بهذا قد وضع قدمه على عتبة التدهور والانحطاط العلمي، وعمد إلى تجاهل عالم حقيقي عمره ملايين من السنين التي سبقت ظهور جنسه على الأرض، وأنه بتجاهله لهذا العالم قد ألغى جزءاً أساسياً من حضارة كونية ربما كانت في فترة من الفترات أكثر تقدماً من حضارتكم التي تفخرون بها الآن يا بني الصلصال ، وأنه قد أهمل جزءاً مهماً في عقله وإدراكه متعلقاً بالعالم غير المرئي، الذي هو أكثر تفوقاً وتقدماً من عالمكم بكل تأكيد، وأسبق منه في الوجود. وأنتم بالطبع تدركون أن أجسادكم ومشاعركم تنتهي إلى عالم غامض يحفظ التوازن الطبيعي بين العالم المنظور والعالم المتخيل. وحتى عالمكم المعلوم ينتهي في آخره إلى الغامض المجهول،

فكأنكم بوجودكم في عالمكم مثل إنسان في غرفة ضيقة ينظر من ثقب الباب إلى المجرات الكونية.

إن ضعف حضارتكم يعود إلى جنوحكم لعالمكم المحسوس المنظور وحده دون غيره، وإيمانكم به مع إنكار العالم غير المادي، أو التنكر له رغم وجوده في اللاوعي عندكم جميعاً، مع أن كل فرد منكم يحمل في جوانحه روحاً تتحكم في الجسد وتسيره، وعقلاً يفكر له، ونفساً مليئة بالمعاني والمشاعر، وكل هذه أشياء غير مادية وغير منظورة، بل هي الحاكمة والمسيطرة على عالم المادة.

وحين يفتح البعض منكم أعينهم على عالمنا سرعان ما يرون عوالم أخرى كثيرة ومدهشة، مثل عالم الخلية والذرات، والجسيمات والمصغرات، ويكتشفون عالم الجراثيم والبكتريا، وتنفتح أمامهم بعض الأبواب، ولكنهم يعودون فيغلقونها حين يتعلق الأمر بنا، ويكتفون بالنظر من الكوة إلى عالمنا غير المرئي الذي لا يقل عن عالمكم المشاهد المحسوس.

أرجو أن تكون مذكراتي هذه قد وضعت بين أيديكم بعض المفاتيح لمعرفة عالمنا الغامض والمدهش معاً، وأثارت فيكم فضولاً لاستكناه جوانبه ورغبة لاستكشافه، وربما يغلب الخوف على البعض منكم فيقفون على أعتاب بابه فلا يلجونه، وربما يتهيب آخرون مجرد التفكير فيه، ولكنني

أعلم أن كثيرين منكم يرغبون في التعرف عليه عن قرب، فهو عالم مثير، ومتى فتحت بابه فإنك لا تقدر أن تغلقه.. وأنا هنا لا أعدك بأي شيء، ولا أقدر أن أعطيك أكثر من بعض المفاتيح والعبارات، والإشارات والتلميحات القليلة. ويبقى عليك أن تكمل المشوار في محاولة الاقتراب من عالمنا، باتباع المداخل الصحيحة، والأساليب العلمية السليمة. وأرجو أن تكون مذكراتي هذه هي أحد تلك المداخل. أتمنى لك التوفيق. وسوف أبقى دائماً قريباً منك أشاهد وأستمع وأستمتع بمحاولاتك المستميتة للإطلالة على آفاق الكون الآخر الذي هو عالم تصنعه أنت في خيالك، تبنيه من واقع الحقائق التي تعلمتها ولكنك تضيف إليه كثيراً من المعلومات غير اليقينية التي اكتسبتها عبر تاريخ حياتك من الموروثات القديمة وحكايات الجدات والأساطير وما يتناقله الناس، تختزنه في اللاوعي وتظل تنسب إليه كل ما هو جدير بنسبته إلى هذا العالم، وتختلق الأشياء والأسماء والمسميات والأجناس والمخلوقات، ثم تبدأ في تصديق كل هذا فتبني عالماً كاملاً من المجهول ويتحول هذا البناء عندك بمرور الوقت إلى حقائق لا تقبل الجدال وواقع لا يتطرق إليه الشك. العجيب أنك تقبل أن تصدق كل هذا العالم الافتراضي. وقد تتغير الأسماء والمسميات والأساطير بتغير العصور. هو عالم تبنيه في عقلك بل هو ملايين العوالم إن لم يكن مليارات، موجودة في عقل كل واحد منا، وكل عالم من هذه العوالم يختلف عما عند الآخر. ولكن يجمع بينها جميعها أنها عالم افتراضي لا تراه إلا إن سمحت لعقلك أن يصدق بأنه سيراه وحينئذ فقط تتجلى لك تلك المخلوقات والعوالم في الصور التي تسمح لعقلك أن

يبنيها ولعينك أن تراها. هو عالم من الوهم الممزوج بالحقيقة. هو عالم موجود حقيقة إن أردت ذلك، ولكن ليس بالضرورة مطابقاً لما هو موجود في خيالك، وهو عالم غير موجود إن اخترت ذلك، فأنت تستطيع أن تغلق هذا الباب بالكلية ولن يجبرك أحد على فتحه إن لم ترد ذلك. أنت وحدك الذي يختار أحد هذين الوجهين. وتبقى الحقيقة الأساسية التي تدور حولها جميع الحقائق هي عقلك وإرادتك في أن تقبل هذا أو ترفضه.

●●●●

انتظر .. لا تذهب فأنا سأعود.. سوف أعود بعد فترة لأملي طرفاً آخر من مذكراتي على كاتب آخر منكم يا بني الصلصال، وقد يكون أي واحد منكم، بل قد تكون أنت هو قارىء هذه السطور، من سوف أملي عليه المذكرات الجديدة. ولكنني في هذه المرة سوف أمليها بطريقة مغايرة. لن أكتب عن عالمي عالم بني النار، فهو لم يعد عالماً غريباً مدهشاً، فلقد وجدت عالماً آخر أشد غرابة وأكثر إدهاشاً، واكتشفت كوناً جديداً مليئاً باللامعقول رغم أنه كون حقيقي وواقعي. وهو كون تظل تكتب عنه طول عمرك فلا تمل الكتابة. تفنى الأعمار ولا تفنى حكاياته وقصصه. تكتب عن أطيافه فينقلونك إلى عوالم لم يشهد لها الوجود مثيلاً، سكانه أطياف ولكنهم ليسوا من بني النار!! هم في حقيقة الأمر من بني الصلصال. هم أنتم. نعم.. سوف أكتب في المرة القادمة عنكم أنتم يا أطياف الكون الآخر!!!.

والآن.. !! مازلت تحس أنك خائف مني؟ أم أن هذا الخوف قد زال تماماً وحلت مكانه الثقة المطلقة باستعلاء بني الصلصال على بني النار؟ وهل مازلت لا تريد أن تراني على الحقيقة أم أنك لو رأيتني فلن يغير هذا من واقعك شيئاً لأنك قد اقتنعت أن كل هذا الذي حدثتك به هو مجرد وهم نشأ في عقلك ولا علاقة له بالحواس الخمس؟. هل مازلت تظن أنك تحلم أم أن ما تقرأه هو واقع ملموس؟ هل تحس بالورق بين أصابعك وأنت تمسك بصفحات هذه الرواية فتتيقن أن عالم الواقع المحسوس هو شيء آخر مغاير للواقع الافتراضي، أم أنك نائم وأن كل هذا الذي يدور في عقلك هو حلم جميل لن تلبث أن تستيقظ وتكتشف أنه قد اختفى وتبخر ولم تبق منه سوى ومضات خافتة في الذاكرة، أو كأنه لم يكن ولم يحدث؟ حركة يدك وأنت تلمس صفحة الورقة وتتحسسها بأصابعك في حياء تدل على أنك مستيقظ بالفعل.. جميل جداً. لقد نجحتُ في أداء دوري. فأنت تستمتع بالقراءة ومتابعة الأحداث. هل مازلت تظن أنك نائم وأنك تحلم؟ لا فائدة فيك... استيقظ .. وعش حياتك !!

الفهرس

أطياف الكون الآخر	3
إِهْدَاء	5
تجلي الطيف	7
الأرض القديمة	31
أطياف الطفولة	45
في معبد أوروك	67
وحـي بابـل	85
سِفْر الهروب	99
سدوم وعمورة	117
برابي مصر	129
غمام السديم	145
سواجن	165
في جسد امرأة	207
العبور إلى الكون الآخر	243
أبراج الوصل	259
حلم ليلة صيف	275

«حاولت – أنا الطيف القادم من العالم غير المنظور - أن آخذكم في رحلة داخل عقلي وكياني، لتشاهدوا معي عالمي المعقد الغريب، المجهول لديكم، والذي لا تملكون إلا القليل من المعلومات عنه، وربما يكون أكثر ما يشبه عالمي هذا هو الأوهام والأساطير والحكايات التي نسجتها مخيلة الكثيرين منكم، أو هدهدتكم بها جدتكم قبل النوم كل ليلة، أو قصها دجال مشعوذ، أو كشف عنها ساحر فاشل. وربما يكون أصدق شيء عن عالمنا هو ما نطق به مجنون من بني البشر أو عبقري مخبول». (طيف التجلي)

عمر فضل الله ينهج نهجاً جديداً في كتابة الرواية العربية يجمع بين الحقيقة والخيال في قالب مشوق ولغة شاعرة وأسلوب بديع. وتعتبر هذه الرواية إضافة جديدة لأدب الخيال (الفانتازيا) الذي يأخذ القارىء في رحلة جميلة بين عالمين هما عالم الأساطير التي طالما سمع بها على مدار التاريخ وعالم الواقع المعاش.

«أطياف الكون الآخر» هي روايته الثانية بعد النجاح الكبير الذي أحرزته روايته الأولى «تُرْجُمَانُ المَلِك».

صدر للمؤلف

- ترجمان الملك: (رواية)
- حرب المياه على ضفاف النيل – حلم إسرائيلي يتحقق